محمد الباز

الشعراوى والسادات

مدبولى الصغير

الشعراوى والسادات

الشـــعراوى والســـادات

الناشر: مكتبة مدبولى الصغير
٤٥ شارع البطل أحمد عبدالعزيز
تليفون: ٣٤٧٧٤١٠ ـ ٣٤٤٢٢٥٠
ميدان سفنكس ت: ٣٤٦٣٥٣٥
رقم الإيداع: ٩٨/٢٠٨٨
الترقيم الدولى: 1-048-286-977
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى:

تصميم الغلاف: عاطف منصور

مراجعة لغوية: السيد عبدالمعطى

الصف والإخراج الفنى: كريم كمبيوتر

محمـــد البـــاز

الشعراوى والسادات

- رأى الشعراوى فى الصلح مع اليهود.
- تكفير الشعراوى فى مجلس الشعب.
- فتوى الشعراوى التى قتلت السادات.

الناشـر: مدبولـى الصغيـر

الإهـــداء

إليهــا..

حياة بعد الحياة

وعشقاً بعد العشق..

محمد الباز

قبـــل
الكـــلام

[١]

بحر من المتعة تعيش فيه عندما تقرأ أو تكتب عن شخصية مثيرة للجدل.. أحداث حياتها صاخبة لدرجة الدهشة.. تجربتها الحياتية تستحق أن يتعرف عليها الناس.. البحر يتحول إلى محيط من المتعة عندما نجمع بين شخصيتين جمعا بين هذه الصفات جميعها.. كل سطر من حياتهما يبعث فينا حيوية المناقشة والجدل وأحياناً.. الاعتراض، اعتراض على ماحدث بالفعل!!

واعتراض على ماقالوا أنه حدث.. وهذا بالفعل له ضرورة!!

والاعتراض يأتى ليقف فى وجه أسلوب كتابة حياة شخص يحاول أن يجعل من نفسه بطلاً، فيجمع كل أحداث الفترة التى عاشها ويقول بمنتهى البساطة أنه كان بداية الأحداث ونهايتها.. ولولا وجوده فى تلك الفترة لكانت الحياة فى مصر توقفت، وعلى ذلك فالحمد لله أنه كان موجوداً فى بلدنا مصر.. وإلا لكان البلد انهار.

كثيرون فعلوا ذلك..!!

وكثيرون يفعلون ذلك!!

وكثيرون سيفعلونه فيما يستقبل من الزمان.

ومن أظرف وأطرف وأعمق من فعلوا ذلك فى تاريخنا المعاش حالياً شخصيتان هامتان للغاية.. أولهما الشيخ الشعراوى وثانيهما الرئيس السادات.. والرجلان لهما باع طويل فى الحكى المتواصل عن حياتهما وما فعلاه من أحداث عظيمة ومهام جسيمة فى تاريخ مصر.

فالرئيس السادات كتب انتصار أكتوبر بدماء المصريين وكتب له التاريخ ذلك.. لكن ليس معنى ذلك ـ مثلاً ـ أنه هو الذى كوّن تنظيم الضباط الأحرار وهو الذى رسم له طريقه

ومساره..!! هو الذى فعل..!! هو الذى قال..!! هو الذى كتب..!! هو الذى طالب.. هو الذى أسس.. هو.. وهو.. إلى نهاية ما قام به الرجل.

والشيخ الشعراوى سلك فى حياته نفس المسلك.. فهو مبدأ الأحداث وهو نهاية الوقائع.. لولاه ما كانت الدنيا دنيا.. ولا الحياة حياة..

الحديث عن الرجلين ممتع، فقراءة ما كتب عنهما أو تسجيل ما قيل على لسانيهما يجعلك تعيش فى عوالم من الخيال الجميل الذى تنساه بعد قراءته مباشرة ولا يعلق فى ذهنك من كلماته شيء.. فقط تستمتع بما تقرأه عنهما.. أو حتى تكتبه عنهما.. فقط وأنت تقرأ أو تكتب.

الرجلان حياتهما مثيرة.. صاخبة.. مملوءة بالأحداث.. مشحونة بالصراع.. نجمعهما لا بهدف المتعة الوقتية أو التسلية العارضة فقط.. فهذا سخف لا نحب أن نقع فيه.. لكن جمعهما معاً لأهداف.. ولأهداف كثيرة.. جاءت هذه الأهداف على أعتاب الرجلين لأنهما وببساطة شديدة حملا اللقبين والاسمين:

«الشيخ» الشعراوى..

«الرئيس» السادات..

أما عن الأهداف.. فدعونا نتحدث عنها.. بعد قليل فلها حديث آخر..!!

[٢]

سهل جداً أن نعثر على مئات بل آلاف الكلمات عن الرئيس السادات على لسان الشيخ الشعراوى يرويها فى إطار سرده لقصة حياته والحديث عن مواقفه، بل نجد الرئيس السادات يطغى على كلام الشيخ كثيراً، فتشعر أن الشيخ عندما يتحدث عن السادات تغلب عليه نبرات التأثر.. فكم قال الشيخ ولأكثر من مرة أنه كان معجباً بالرئيس السادات كثيراً.

ولايتوقف حديث الشيخ عن السادات عند مواقفهما الشخصية أو ذكريات الشيخ معه، ولا حتى آيات الإعجاب بشخصية الرئيس، ولكن حديث الشعراوى يتعدى إلى تحليل سلوك

السادات النفسى وإيجاد التبريرات أحياناً لبعض ما فعله السادات. هذا يفعله الشيخ ويفعل مثله بعض الذين يكتبون عنه، فنجد مثلاً فى كتاب «منهج الشيخ الشعراوى فى إصلاح المجتمع..» لإبراهيم عبدالعزيز، الصادر ضمن سلسلة «اقرأ»، تجد جملة واحدة كلماتها تقول: «كان الرئيس السادات يحضر بعض الخطب التى يلقيها الشيخ الشعراوى فى الأزهر وخاصة فى فترة ١٨ و١٩ يناير..!!» (وعلامات التعجب من عندنا). فالغريب أن هذه الجملة جاءت شاذة عن سياق الكلام فلم يكن لها أى داع ولم تقدم أى فائدة اللهم إلا إقحام العلاقة بين الشيخ والرئيس فى الحديث عن الشيخ وهو حديث لا ينتهى بالطبع.

تعالوا بنا إذن ننتقل بكم إلى ضفة النهر الأخرى لنجد شيئاً غريباً للغاية فكل ماكتب عن الرئيس السادات، سواء كتبه بنفسه في «البحث عن الذات» أو كتبه عنه آخرون، وهم كثيرون، مئات المقالات.. مئات التحليلات.. الأعداد الخاصة من الجرائد والمجلات عنه.. كل هذه الأوراق التى تحدثت عن الرئيس السادات لم يرد فيها مطلقاً سطر واحد يشير من بعيد أو قريب إلى الشيخ الشعراوى..!!

شىء يدهشك بالفعل، ففى كتاب «الشعراوى الذى لا نعرفه» الذى سجله سعيد أبو العينين وكتبه على لسان الشيخ، نجد عدة فصول - وأقول عدة فصول - تحمل عنوان «حكايتى مع السادات».. و«عدة» هذه تعطينا دلالة أن الحكاية كانت طويلة للغاية والعلاقة كانت وثيقة جداً.. هذه العلاقة مثلت عند الشيخ الشعراوى حدثاً كبيراً، ولذا فرضت نفسها على قصة حياته، فعندما تحدث عنها خصص لها سطوراً كثيرة.. لكنها بالنسبة للرئيس السادات لم تتعد علاقة حاكم برجل فى دولته.. داعية إسلامى فى الأساس.. ثم وزير لمدة عامين من مدة حكم الرئيس.. جاء كوزير قام بدوره ثم مضى.. ولذا لم يشر الرئيس إلى الشيخ كثيراً ولا تحدث عن الشيخ أحد ممن كتب عن الرئيس، اللهم إلا إشارات بسيطة منها كتاب بعنوان «اغتيال أمة» للدكتور محمد عباس.. الكتاب عن السادات ولكنه من الصفحة الأولى تشعر أن الكتاب شرع مؤلفه فى كتابته من منطلق الثأر الشخصى، فهو ينفى عن السادات كل ميزة ويلصق به كل نقيصة، وكأن الرجل أحد أتباع الشيطان.. أو هو الشيطان نفسه.. فكل عصره فساد.. وكل حياته عبث.. وضاعت مصر والسبب رئيسها.. كتب محمد عباس كتابه وكأنه يكتب باليمين ويحمل باليسار سكيناً يلوح به فى الهواء، يريد أن يسكنه قلب السادات الذى مات.

على أية حال ليس هذا مايشغلنا هنا.. فالمهم أن محمد عباس أقحم حديث الشيخ فى ثنايا الحديث عن السادات ليقول له كيف ياشيخ وأنت الداعية الإسلامى المشهود لك من الجميع تتورط فى حكومة رئيس ألهب ظهور شعبه بالفساد؟.. كيف تبرر له أفعاله؟.. كيف تدفع عنه من يعارضونه.. وهم على حق وأنت تعلم أنهم على حق؟!!

غير ذلك لانجد اسماً للشيخ الشعراوى فيما كتب عن السادات، وهنا يأتى السؤال الذى لابد أنه سيقتحمك:

«فإن كانت العلاقة كتبت من جانب واحد.. فكيف نجمع الرجلين ونكتب عن أيامهما معاً؟.. كيف يجمعهما حديث واحد.. وأحدهما فقط هو الذى تحدث عن العلاقة.. ومايدرينا حقيقة ماقيل عن العلاقة من طرفها الأول وهو بالنسبة لنا الشيخ الشعراوى؟!».

وأقول أن هذا طبيعى ومنطقى للغاية فيمكن أن نتحيز لرجل الدين على حساب رجل السياسة فى هذه العلاقة لأن رجل الدين هو الذى يقول ويتحدث ويسرد وبالطبع لن يجعل من نفسه خادماً للسلطان.. فربما ننخدع بذلك.

أقول ربما!!

وفى الوقت نفسه أقول وربما لا.. لأن الشيخ الشعراوى أجبرنا منذ زمن ألا نقرأ كلماته عن حياته ونصدقها بلا تفكير.. ولكن الشيخ جعلنا نقرأ مايسكن خلف سطوره بل نستعين بسطور الآخرين حتى نفهم.. وهذا ما نحاول أن نفعله هنا..!!

[٢]

اعتاد من يكتب أن يضمن كلامه قائمة مراجع، سواء جعلها فى آخر كتابه أو جعل هذه المراجع أسفل صفحات كتابه فيما يطلق عليه هامش الصفحة.. وقد اعتاد القارىء نفس الشىء.. اعتاد على قراءة قائمة المراجع.. بل هناك بعض القراء الذين يعتمدون على أسماء المراجع ونوعيتها فى تحديد رأيهم فى الكاتب..

وحكاية المراجع هذه حكاية.. وفى هذا الكتاب بالذات لأن به كماً كبيراً من الكلمات

منسوبة للرجلين وعليه فإن إثبات المصدر الذى اقتطعنا منه هذه الكلمات مهم للغاية.. لكن لماذا هو مهم؟!.. فهل من الضرورى أن أقول أن الشيخ الشعراوى قال كذا.. وقد قال هذا الكذا فى كتاب بعنوان كذا.. للمؤلف فلان الفلانى.. وماذا يفيد ذلك؟.. قد يقول شخص ما أن هذا الكلام لم يقله الشيخ ونحن نتقول عليه وننسب له ما لم يقله ونفترى عليه ونضيف له مانقص من كلمات ونزيد عليه مازاد من معان.

وهذا كلام جميل للغاية لو أثبت أحد أن هناك كلمة وضعناها على لسان الشيخ لم يقلها أو لم يكتبها أو لم يتحدث بها فى حوار طويل ضمّنه من أجرى معه الحوار فى كتاب وما أكثر هؤلاء ياسادة.. ما أكثرهم.

صحيح أننا نشير كثيراً إلى مصدر كلمات الشيخ، بل وفى نهاية الكتاب ستجد قائمة بالمراجع.. لكن بالنسبة للشيخ الشعراوى لا يستحق من كتبوا عنه أو بمعنى صحيح من أجروا معه حوارات أن نشير كلما أخذنا قولاً للشيخ إلى كتاب فلان أو علان.

فالحوارات كلها متوافرة ومعادة ومتكررة وأوقعت الشيخ فى مطب التناقض.. الرئيس السادات كفانا مؤونة ذلك فكتب عن نفسه «البحث عن الذات»، هذا فضلاً عن أنه لم يترك أحداً يعبث فى حياته.. أثناء حياته على الأقل.

ليس معنى ذلك ـ مرة ثانية ـ أنك لن تجد بعض الهوامش أو قائمة فى آخر الكتاب.. إطلاقاً..

المسألة فقط هى الثقة التى يجب أن تكون بين من يقرأ ومن يكتب.. وأظن أن هذا واجب..!!

نقطة البداية

كل إنسان تمثله نقطة..

نقطة واحـدة فقط.. قـد تكبر.. قـد تصغـر.. لكنها في النهـاية نقطة واحدة.. تشـغل تلك النقطة موقـعية متغـيرة على مدار حياة الإنسـان.. فيمكن أن يكون الإنسان بنقطتـه تلك يمثل مـركزاً لدائرة تقف بقـيـة النقاط من حـوله على مـحيط دائرته.. ويمكـن أن تمثل النقطة التى تجسم وجود الإنسان مجرد نقطة ضمن مجموعة نقاط على محيط دائرة حول نقطة أكبر..

حالات مـفردة تعيشـها النقاط التى تتـسمى بأسمـاء الناس فى حياتنا تلك، وقـد تعيش النقاط حـالات مزدوجة.. فتلعب دور المركـز، تأسر مجـموعة من النقاط من ناحـية وفى نفس الوقت تسير مع مجموعة نقاط حول نقطة ثابتة من ناحية أخرى..

وهكذا بالضبط عاشت النقطتان اللتان تمثلان الرئيس السادات والشيخ الشعراوى..

فالسـادات فى فترة رئاسـته للجمـهورية التى بدأت من عام ١٩٧٠ إلى عـام ١٩٨١ كانت نقطته بلا شك هى نـقطة المركز لدائرة محـيطها كبـيرجداً، وقـفت عليه مئـات بل آلاف النقاط وكانت نقطة الشيخ الشعراوى بالطبع من هذه النقاط.

وظل الشيخ الشعراوى أيضاً بين أصدقائه ومعارفه هو نقطة المركز.. عالم الدين المسافر من أجل دين الله منذ عام ١٩٥٠.. و..

بحديث النقاط هذا ندخل وبمنتهى البساطة إلى عالمهما معاً..

الرئيس السادات.. رجل السُّلطة..!!

والشيخ الشعراوى.. رجل الدين..!!

هل كان هناك نوع من التقارب والتـشابه والتماثل يكاد يجمع بين الشخـصيتين رغم أنه من المفـروض أن يسـير خط الدين وخـط السُّلطة بشـكل مـتوازٍ.. التـقـارب يضـر والتقـاطع يضل..؟!

ليس التقارب وحده..!!

وليس التقاطع وحده..!!

بل الامتزاج أحياناً..!! والذوبان أحياناً أخرى..!! بذلك يمكن أن نصف العلاقة التى ربطت بين الشيخ الشعراوى ـ الدين ـ من ناحية والرئيس السادات من ناحية أخرى ـ السُلطة..

لايستطيع أحد أن يشكك فى إخلاص الشيخ الشعراوى وحرصه على أمر دينه وخدمة عقيدته والرغبة فى النهوض بهذا الدين وتخليصه من كافة ألوان العسف والخسف والقيود التى يمكن أن تفرض على الدين من أى جهة.. فهذا على الأقل أهون مايجب أن يقوم به رجل الدين.. هذا فضلاً عن تقديم نفسه بكامل رضا فداء للدين إن تطلب الأمر ذلك.. يستخدم فى ذلك كل شيء فى حدود المباح والمسموح به دينياً.. حتى لو استغل الحاكم وسيطر على رجل السُلطة..!!

لكن هيهات أن يحدث ذلك فقد أثبتت التجارب منذ دخلت القاموس كلمات السُلطة والدين.. إن رجل السُلطة هو الأعلى هو الذى يكسب دائماً.. هو الذى يأخذ كل مايريد من رجل الدين.. هو الذى يستطيع أن يخدع ويضحك على الناس ثم يقول لهم فى النهاية الدين معى فمن ضدى..؟!

والرئيس السادات دون الحديث عن سلبياته وإيجابياته أو حبنا له أو كرهنا لشخصه أو انسياقنا خلف من يسفهون حياته أو الذين يرفعونه لدرجة الأنبياء.. كل ذلك لا يعنينا ولا يدخل فى دائرة اهتمامنا.. فقط نؤكد أن الرئيس السادات جاء ليحكم.. جاء ليكون هو القائل ومن بقى يستمع.. جاء لتكون كلماته منهاجاً وليس للباقين سوى أن يسيروا على هداه.. جاء ليبنى مجداً، ولا مانع عنده من أن يعمل الجميع كعمال أو «فواعلية» فى بناء هذا الصرح.. المثقفون.. المفكرون.. الأدباء.. رجال السياسة.. العلماء.. رجال الدين.. كل هؤلاء لم يكن عند الرجل مانع من استخدامهم كأداة للوصول إلى مايهدف، كل واحد عنده كان يلعب دوراً محدداً وبعد نهاية الدور ينزل من على المسرح لايهتم به أحد ولا يتذكره أحد.. الحديث مرة أخرى لايتعلق بدور السادات ولا مدى ماحققه لمصر.. الحديث ينصب فقط على إيضاح ملامح العلاقة بين رجل الدين ورجل السُلطة من خلال استحضار هذا النموذج الفريد فى حياتنا السياسة (السادات ـ الشعراوى)، وأسباب اختيار ذلك كثيرة ومتعددة.

● فالشيخ الشعراوى الآن يمثل قمة رجال الدين ويشهد له الجميع بأنه ذلك العالم الذى يرسله الله على رأس كل قرن من الزمان حتى يجدد للناس دينهم، والرئيس السادات رجل أطلق على نفسه الرئيس المؤمن وأطلق على مصر دولة العلم والإيمان.. فالدين عند الرجلين (الحاكم ـ رجل الدين) مثّل أساساً هاماً من الأسس التى تكوّن عملهما.

● يتحدث الشيخ الشعراوى ـ وكثيراً مايتحدث ـ عن دوره السياسى وينفى عن نفسه تهمة كونه رجل سلطان أو عالم سُلطة تقرّب يوماً من السلطان ليبتغى عنده مصلحة.. وهذا يجعلنا نسأل لماذا يؤكد الشيخ الشعراوى على هذه النقطة دون غيرها كلما سنحت له الفرصة؟

● خطورة وضرورة الموضوع نفسه، فالعلاقة بين رجل الدين ورجل السُلطة كانت وستظل من أخطر العلاقات على الإطلاق فى تاريخ الناس وفى كل العصور.

فالدين ـ أى دين ـ له سُلطة روحية لا يستطيع أحد أن يقف أمامها، ومهما بلغ رجل السُلطة من قوة وسيطرة وهيمنة على رعيته فإن مكان رجل الدين لايستطيع أحد أن يشغله أو يقوم بعمله، فكلمة واحدة يقولها رجل الدين مشفوعة بكلمة قال الله وقال رسوله تجعل الناس تُخضع الرقاب وتسير إلى أى اتجاه يرغبه رجل الدين.

لذا يحرص رجل السُلطة أن يسيطر على رجل الدين ويجعله أداة من أدواته.. الاختيار وقع على السادات لأنه استغل رجل الدين بصورة جعلت رجل الدين يفعل مايرغبه الرئيس وهو فى قرارة نفسه مقتنع بما يفعله وأن الذى يفعله إنما هو لوجه الله.. فلم تكن هناك فرصة للتراجع.

والشعراوى لأنه مازال يصر أنه قام بدوره دون أن يقع فى شرك السُلطة أو يتلوث بدنسها.

من منهما جذب الآخر نحوه؟.. هذا ما سنعرفه.. فقط نقرأ بحياد شديد لأن الكتابة أيضاً كانت بحياد لن أقول شديداً.. لكنه على أية حال حياد..!!

محمـــد البـــاز

١

العمامة.. والسيف

«يأتى السادات لتبدأ القصة الكاملة التى نعيشها هنا على صفحات هذا الكتاب، وقبل أن ننتقل إلى زوايا الصورة وملامحها نثبت فقط أن فى قصة السادات مع الشعراوى يتأكد لنا أن الحاكم حتى لو كان يحمل صفة الرئيس المؤمن لاتصلح معه النيات الحسنة ولا طيبة الرجال».

فى أواخر الثمانينيات خرج محمد جلال رئيس تحرير مجلة الإذاعة والتليفزيون بحوار ساخن للغاية مع الشيخ محمد متولى الشعراوى.. سجل الحوار كما دار تماماً، لم يضف كلمة ولم يحاول أن يزيد أخرى، بل قال وقتها أنه عاد لبيته وأفرغ شرائط التسجيل وقدم الحوار للقراء بلا تدخل منه، والسبب أن القضية التى كان يتناولها الحوار أخطر من أن نضع على وجهها شيئاً من الرتوش، خاصة والمتحدث هو فضيلة الشيخ الجليل محمد متولى الشعراوى.. هكذا قال.

والقضية ببساطة كانت قضية توظيف الأموال وشركاته وأصحاب هذه الشركات وما أشيع عنهم وقتها وتورط الشيخ الشعراوى معهم ووقوفه بجانبهم.. كان الذى لفت انتباه محمد جلال وقتها إجابة الشيخ عن سؤال وجه إليه.. كان السؤال - بنصه - **«لعلك سمعت عن السلوكيات الشخصية لأحمد توفيق الريان وغيرها التى أظهرت حجم الانحرافات التى كانت تحدث داخل هذه الشركات..؟!»**.

وكانت الإجابة - بنصها أيضاً - **«إننى أعتبر كل المسائل مسائل شخصية إلى حد ما.. ولا أحب أن أتحدث فيها وعموماً سوف تثبت التحقيقات الحقائق الصحيحة والشائعات الكاذبة»**.

لم تعجب هذه الإجابة محمد جلال وكتب فى مجلته مقالاً بعنوان «حديث هادئ للشيخ الشعراوى»، وختم كلمات المقال بقوله: **«فضيلة الشيخ الشعراوى من منطلق حبنا العميق لك والتوقير الشديد لشخصكم الجليل ودوركم غير المسبوق فى تاريخ الدعوة الإسلامية يريد صاحب هذه الكلمة التى هى كلمة الناس فى الشوارع والبيوت والمقاهى.. يريد صاحب هذه السطور أن يكتب كلمة فى الأسبوع القادم يقول فيها انه قد أخطأ والناس معه قد أخطأوا فى الفهم..»**.

الرد كان سريعاً، أسرع مما يتوقع محمد جلال نفسه.. واستمع من يحدثه تليفونياً

يقول له أنا محمد إسماعيل، الشيخ الشعراوى يريد أن يحدّث محمد جلال.. وقال الشيخ الشعراوى كلمات بسيطة: «تريد أن تكتب كلمة فى الأسبوع القادم.. قال محمد: نعم.. قال الشعراوى: فى انتظارك اليوم. قال محمد: السادسة مساءً.. وذهب وقام بتسجيل الحوار ونشرته مجلة الإذاعة والتليفزيون وظهر من الحوار أن الشيخ الشعراوى رجل طيب لكن يستغله من حوله، ظهر ذلك واضحاً للغاية من تعليقات محمد إسماعيل على حوار الشيخ والتعليقات نوردها بنصها من حوار محمد جلال الذى ضمّنه بعد ذلك فى كتاب بعنوان «لا ياشيخ شعراوى».. وأضاف إليه ردود الفعل عليه..

كانت تعليقات محمد إسماعيل كالتالى:

● الشعراوى: «... **قلت له مش كان زميلك؟ قال لى: شوف يا ابنى اللى ينسب للعلم ومايبقاش ليه أعداء نقص حظ من النبوة**».

محمد إسماعيل: ... اللهم صلى على النبى.

● الشعراوى: «... **وربنا عملها عندى كده.. زى مايكون بيعدنى لحاجة**».

محمد إسماعيل: ... لحاجـات..!!

● الشعراوى: «... **عشان تعرف النعمة اللى كنت فيها، الكلية اللى كنت أدرس فيها كنت وانا واقف فى الدرس أرى الكعبة**».

محمد إسماعيل: ... مفيش نعمة أكتر من كده..

● الشعراوى: «... **نادى على الخادم يا أحمد.. جاء شاب.. سأله الشيخ: أنا لما باخرج من هنا يعنى أروح أى مكان باعمل إيه؟ باخد الأكل؟.. الخادم: أيوه.. بتاخِد الأكل**».

محمد إسماعيل: الحرس بياكل الأول والله العظيم كنا فى الوادى الجديد خدنا كل حاجة من هنا حتى الملوحة والسردين والجبنة.

● الشعراوى: «.. **اقول كلمة على الهامش، مجلة روز اليوسف ماذا تعرف عن روح كتابها ليها لون وإلا لأ؟!**».

محمد إسماعيل: اتجاه يسارى طبعاً.

● الشعراوى: **«أولاً المصرف الإسلامى الدولى للاستثمار والتنمية حصلت فيه هزة لدرجة أن البنك المركزى عين له مفوضاً فهل وقفت مكتوف اليد؟»**.

محمد إسماعيل: صلح المسار فعلاً.

● الشعراوى: **«والله العظيم أنا قلت لمحمد مصطفى مادامت الأمور اتضحت هذا الاتضاح والنيابة العامة هى الوكيلة عن كل الشعب فلتأخذ دورها»**.

محمد إسماعيل: هو قال كده.. فضيلة الشيخ قال كده.

● الشعراوى: **«والله العظيم إن كانت قد صدرت منى فأنا أقصد أن أقول أن الاتساع فى التشهير غلط»**.

محمد إسماعيل: لا فيه حاجات شخصية..

● محمد جلال: **«هل تعتقد أن هناك مخططاً لتصفية شركات توظيف الأموال؟»**.

محمد إسماعيل: ماتحرجوهش بالسؤال ده.

●●●

هذه وغيرها الكثير من التعليقات التى أبداها محمد إسماعيل الذى كان بمثابة المستشار الصحفى للشيخ الشعراوى.. وتعليقات الرجل تعطيك إيحاء بالوصاية على الشيخ وعلى أفكاره.

ليس هذا موضوعنا على أية حال.. ولم يكن الحوار الذى قام به محمد جلال هو هدفنا من السرد السابق.. فبعد أن نشر محمد جلال حواره هذا - والكلام قاله لى محمد جلال فى لقاء معه - اتصل به كثير من رجالات الدولة وأقطاب السياسة ليقولوا له شكراً لقد كشفت الشيخ الشعراوى أمام الناس بحوارك هذا، وهو ماكنا نحتاج إليه لأن الشعراوى كان يقف مع أصحاب شركات توظيف الأموال وهو ماكان يعضد موقفهم

ويخلق رأياً عاماً خلفهم لدرجة أن الحكومة كانت مكتوفة الأيدى ولا تستطيع أن تتخذ أى إجراء مع الشركات وأصحابها مخافة التصادم مع الشيخ وتابعيه بإحسان إلى يوم الدين..

هكذا قال لى محمد جلال، والعهدة عليه وحده.. وأجدنى مرة أخرى أكرر أنه لا الحوار ولا محمد جلال ولا محمد إسماعيل - المطيباتى - هم الهدف، ولكن دلالة الموقف الذى حكاه محمد جلال.. فقد شكره رجال الدولة على تعريته للشيخ الشعراوى، وهو مايعتبره محمد جلال بطولة إلى اليوم، وهى بطولة بالفعل، لكن من وجهتنا نسير معها إلى زاوية خاصة.. فالبطولة أن الرجل أزال بعض الغبار عن الصورة التى يقف فيها رجل السُلطة ورجل الدين.. ومن هنا ندخل..ونحدد معالم وحدود الباب الذى نلج منه إلى موضوعنا هذا.. العلاقة الجدلية بين رجل السُلطة ورجل الدين.. فهل عندما نتحدث عنهما نصف العلاقة بقولنا:

«عندما ينام رجل الدين فى فراش السُلطة..»..

أم نقول:

«عندما ينام رجل السُلطة على كتف رجل الدين..»؟

فالشيخ الشعراوى كان فى ذلك الوقت ملء السمع والبصر والفؤاد، يحتل مكانة عالية للغاية عند رجال الدولة، يقدرونه وينزلونه منزلة كريمة.

ماحدثنا به محمد جلال يؤكد أن المسألة كانت ظاهرية وأن السُلطة لا تحترم أحداً ولا توقر أحداً.. ولكن الاحترام وعدمه مرتبطان فقط بمصلحة الدولة.. ومصلحة رجالها.. فلا الشيخ الشعراوى ولا غيره يستطيع أن يغير ملامح العلاقة التى تربط بين السُلطة والدين، ولا أحد يستطيع أن يقول مثلاً أن الشيخ يستطيع أن يؤثر ويغير، فالتأثير والتغيير مرتبطان فقط باتجاه الريح.. فإذا كانت الكلمات مع ريح السُلطة كان التأثير ملحوظاً.. وإذا كانت ضدها ضاعت الكلمات بحروفها.

رجل الدين دائماً وأبداً ينام فى فراش السُلطة، بل ويشد عليه الغطاء كاملاً فلا يكاد يظهر منه شىء.. وحتى لو قال البعض أن العلاقة هى علاقة رجل سُلطة يضع رأسه على

كتف رجل الدين يستمد منه النصح والنصيحة.. نقول أن ذلك فى الظاهر، وفى الظاهر فقط.

وتعالوا نقلب صفحات تاريخنا الإسلامى بحكامه ورجال دينه لعلنا نجد شيئاً نستند إليه وعليه..

●●●

بعد موت النبى ﷺ ركب أبو بكر الصديق على الخلافة ومن بعده عمر، وكان الرجلان يمثلان امتداداً لمدرسة النبى ﷺ.. وليس معنى ذلك مثلاً أن على وعثمان نقضا هذا التمثيل أو خرجا عنه.. المقصد أن أبا بكر وعمر مثّلا مدرسة النبى ﷺ قمة التمثيل وأصفاه، فلو عشت فى عصرهما لتمثلت حياة النبى ﷺ كلها صغيرها وكبيرها.. وعندما نطوف بعهدهما لن نجد حديثاً عن صاحب السُلطة ورجل الدين لسبب مهم جداً أن مسألة رجل الدين هذه لم تكن قد ظهرت بعد واتضحت، فكان أبو بكر رجل سُلطة ورجل دين فى الوقت نفسه يحفظ عن رسول الله ﷺ ويستحضر تعاليمه بين جنبيه.. ويسير على هدى كلماته بلا إفراط أو تفريط، وهكذا فعل عمر وإن وقع الاختلاف.. فكان يرد سريعاً لايعطونه فرصة لينمو أو ليتشعب بهم فى مجاهل تؤدى بالدعوة كلها إلى طرق ضيقة لا يزيدها الحوار إلا ضيقاً، فأبو بكر وعمر اختلفا فى حروب الردّة وساد كلام أبى بكر ليس لأنه الخليفة ولكن لأن حجته كانت أقوى من حجة عمر.. ساعتها لم يستنكف عمر ولم يستكبر على أن ينزل على رأى أبى بكر ولكنه سمع وأطاع.

وفى عهد عمر ظهر جلياً كيف يتعاون الخليفة مع أهل العلم والمشورة ومنهم كان الإمام على.. وكثيرة هى المواطن التى أنقذ فيها الإمام على عمر من الوقوع فى الخطأ وكانت كلمات على هى التى تسود.. من تلك المواقف ماروى أن امرأة بالمدينة أحبت شاباً من الأنصار ولكنه لم يطعها فيما تريد، فجاءت ببيضة وألقت صفرتها وسكبت البياض على فخذيها وثوبها ثم جاءت إلى الخليفة عمر صارخة فسأل عمر النساء فقلن له: «إن ببدنها وثوبها آثار الرجل»، فهمّ بعقوبة الشاب، فأخذ يستغيث ويقول: «يا أمير المؤمنين تثبت فى أمرى فوالله ما أتيت فاحشة ولا هممت بها فلقد راودتنى عن نفسى فاعتصمت»، فنظر عمر إلى على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ وقال يا أبا الحسن ما ترى فى أمرها؟

فنظر على إلى ماعلى الثوب ودعا بماء حار شديد الغليان فصب على الثوب فجمد البياض وظهرت رائحة البيض فزجر الخليفة أمير المؤمنين عمر - رضى الله عنه - المرأة فاعترفت وعاقبها..

موقف آخر نورده عن عمر وعلى حيث أحضر قوم امرأة منهم وضعت لستة أشهر وقالوا عليها، وطالبوا أمير المؤمنين بتوقيع الحد عليها، ولما همّ عمر بتوقيع حد الزنا استنقذ على المرأة من بين أصابع القوم حيث إن المرأة تلد لستة أشهر فالله تعالى يقول فى القرآن الكريم: ﴿ **وحمله وفصاله ثلاثون شهراً..**﴾ وفى آية أخرى يقول: ﴿ **والأمهات يرضعن أولادهن حولين كاملين..**﴾، ولو أنقصنا الحولين - العامين - من الثلاثين شهراً لبقى للحمل ستة أشهر.. وهى مدة حمل المرأة، ساعتها ردد عمر قولته الشهيرة: «لولا على لهلك عمر..».

فى هذه الفترة - خلافة أبى بكر وعمر - لم تظهر للناس حقيقة العلاقة بين رجل السُّلطة ورجل الدين، لأنه - كما قلنا - ذابت الحدود بينهما وتلاشت حتى توحدا.. والدليل نأخذه من موقف عمر بن الخطاب عندما جعله أبو بكر على القضاء وظل عمر شهراً كاملاً لا يأتيه أحد بمظلمة فخلع نفسه من القضاء وقال: «إن قوماً يعرف كل منهم حدود الله لا يجد القاضى عملاً له بينهم..»

هذه مدرسة ظلت تفتح أبوابها حتى مات سيدنا عمر بطعنة غادرة من عبد مجوسى. طعن فى عمر الإسلام كله.. وأغلق بطعنته الامتداد الصافى النقى لعهد النبى ﷺ..

ويبدأ عهد عثمان بن عفان.. وفى عهده يمكن لنا - وبمنتهى البساطة - أن نؤكد أن الخط الذى كان يجمع بين رجل الدين ورجل السُّلطة بدأ فى الافتراق وأصبح الخط خطين لا خطاً واحداً.. لم يكن سيدنا عثمان السبب.. ولكن سطوة الأمويين التى ظهرت مبكراً هى التى فعلت ذلك..

والأمويون فى الأصل كانوا من الطلقاء الذين عفا رسول الله ﷺ عنهم يوم الفتح بقوله: «اذهبوا فأنتم الطلقاء..»، استغل الأمويون فرصة خلافة عثمان بن عفان استغلالاً جيداً.. وكانوا قد ألقوا البذور قبل ذلك فى عهد عمر عندما تولى معاوية إمارة الشام.. وكان أن أعطاهم النبى ﷺ الحق فى ذلك عندما قال أبو سفيان يوم الفتح فيما قال: «...

ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن..»، تقدم الأمويون الصفوف فى الحملات العسكرية بعد دخولهم الإسلام مباشرة، وهذه الناحية ترجع لمهارة الأمويين الحربية ومعرفتهم بمناطق الفتوحات، فقد كانوا قادة القوافل فى رحلتى الشتاء والصيف، أى كانوا أكثر خبرة وأكثر صلاحية للقيادة العسكرية فى فتوحات الشام، وبالتالى كانوا أكثر صلاحية فى حكم البلاد المفتوحة والتعامل معها خصوصاً وقد كانت للأمويين علاقة وثيقة بقبيلة «كلب» العربية المنتشرة فى الشام.. وهذه العائلة كانت تملك غوطة دمشق وأهم مدن الشام وكانت تسيطر على الطرق التجارية فيها، وعن طريق تلك العلاقة توطد الفتح الإسلامى فى الشام.

ورسمت الصورة هكذا، ففى أواخر عهد عمر كانت الشام فى يد معاوية ومصر فى يد عمرو بن العاص. وتوثقت الروابط الأموية الكلبية أكثر بزواج معاوية من بنت شيخ قبيلة «كلب» ميسون بنت بحدل الكلبى..

وعندما جاءت خلافة عثمان أقبل الأمويون يقولون فى سرور يدوم كثيراً: مرحباً بالدنيا ومافيها طالت غيبتك فأين كنت..؟!

الحلم كان حكم المسلمين..

وعند هذه الكلمة فقط تبدأ أول نقطة فى الكتاب الكبير الذى يحوى القصة كاملة.. قصة الصراع بما فيه من تقارب وتباعد بين الدين والسُلطة.. بين الحاكم ورجل الدين.. بين السيف والعمامة.. استطاع الأمويون السيطرة تماماً على عثمان.. فظهر مروان بن الحكم فى المدينة بجانب عثمان.. وظهر معاوية فى الشام.. وعبدالله بن أبى السرح فى مصر.

وهنا اختلفت سياسة عثمان عن أبى بكر وعمر وأتاح لنجم الأمويين أن يصعد وأعطاهم بذلك الفرصة لتعرف الأموال طريق جيوبهم ولتظهر للمرة الأولى السياسة النفعية.. التى داست فى طريقها حتى أصحاب رسول الله ﷺ.. وهاهو أبو ذر الغفارى الصحابى الجليل الذى يسمع بما يحدث فى الشام على يد معاوية فيذهب للشام وهناك هاله أن يرى المال وقد أصبح سيداً والناس قد أصبحوا عبيداً للمال ومعاوية يتخذ من المال وسيلة لإغراء الناس للالتفاف حوله لتحقيق طموحاته العريضة.. ومضى أبو ذر يردد فى

أذن المكان والزمان «بشر الكانزين الذين يكنزون الذهب والفضة بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم يوم القيامة..».

يلتف الناس حوله ويشعر معاوية بالخطر.. ويتمزق بين إحساس بضرورة القضاء على الرجل وبين معرفة بمكانة أبى ذر وقدره عند النبى ﷺ .. كان لابد أن تحدث مواجهة، وحدثت.

فقد تحدث أبو ذر فى وجود معاوية وقال: **﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ماكنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون..﴾**.

فيرد معاوية بأن هذه الآية نزلت فى أهل الكتاب.. يرد عليه أبو ذر: بل نزلت فى أهل الكتاب والمسلمين أيضاً.. ساعتها لم يجد معاوية مفراً من أن يرسل لعثمان فى أمر أبى ذر متهماً إياه بأنه يفسد الناس فى الشام..

هنا تبدأ الصورة التى نسعى خلفها فى بدايات التكوين.. يقف فيها معاوية بن أبى سفيان فى موضع الحاكم ويقف أبو ذر فى موضع الرجل الذى يحمل رسالة يؤديها أمام الحاكم مهما كان الثمن.

كانت رسالة معاوية إلى عثمان أن أبا ذر يفسد الناس، وفى الحقيقة أو المعنى الحقيقى كان تخوف معاوية لأن أبا ذر يعكر على معاوية صفوه ويحرمه من متعة التلذذ بمال الناس فى هدوء، وما أحوج المغتصب للحظة واحدة يخلو فيها باله من كل شىء.

استدعاه عثمان إلى المدينة وحدد إقامته ولكن برفق من يعرف مكانة وقدر الرجل، لكن أبا ذر يفضل أن يعيش لله فى «الربذة»، وخرج من المدينة إلى حيث يريد.. اعترض معاوية متخوفاً واستجاب عثمان حذراً..

رجل آخر من صحابة النبى ﷺ وهو عمار بن ياسر وكان قد انتقد عثمان فى سياسته المالية وعدم تفريقه بين الأموال الخاصة والأموال العامة، فقد قالوا أن بعض أهله يتحلى بحلى من بيت المال، ووصل ذلك إلى عثمان فقال:

ـ «لنأخذ من حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت أنوف أقوام»!

وكان هذا الرد غريباً، ولم يعجب على بن أبى طالب، فقال له:

ـ «إذن تمنع من ذلك ويحال بينك وبينه..».

وعندما قال عمار بن ياسر:

ـ «أشهد الله أن أنفى أول راغم من ذلك».

غضب منه عثمان وسبه وأخذه بالقسوة والشدة وأمر بضربه حتى أغمى عليه

مرة أخرى يقف الحاكم فى ضفة ويقف من يحاول أن يذكره أو يعيده لجادة الطريق فى ضفة أخرى.

رغم أن المواقف السابقة تكفى لكن مازال فى السطور كلام، وهذا حوار دار بين الإمام على وعثمان ننقله من كتاب «خلافة عثمان بن عفان» للأستاذ مأمون غريب.. وبعد الحوار كلام..

على: «تعلم ياعثمان أن أفضل عباد الله إمام عادل هُدِىَ وهَدَى.. فأقام سُنّة معلومة وأمات بدعة متروكة، فوالله إن كلاً لبيّن وإن السُنّة لقائمة لها أعلام.. وإن البدع لقائمة لها أعلام.. وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضَلَّ وضُلَّ به فأمات سُنّة معلومة وأحيا بدعة متروكة، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر فيلقى فى جهنم كما تدور الرحى ثم يرتطم فى غمرة جهنم»**، وإنى أحذرك الله وأحذرك سطوته ونقماته فإن عذابه شديد أليم، وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول فإنه يقال يُقتل فى هذه الأمة إمام فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة ويلبس أمورها عليها ويتركهم شيعاً فلا يبصرون الحق لعلو الباطل يموجون فيها موجاً ويمرحون فيها مرحاً».

عثمان: «قد والله علمت ليقولن الذى قلت، أما والله لو كنت مكانى ماعتقتك ولا أسلمتك ولا عبت عليك ولا جئت منكراً أن وصلت رحماً وسددت خلة وأويت ضائعاً ووليت شبيها بما كان عمر يولى، أنشدك الله ياعلى هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك؟

على: «نعم».

عثمان: «فتعلم أن عمر ولاه؟».

على: «نعم».

عثمان: «فلِمَ تلومنى أن وليت ابن عامر فى رحمة وقرابة؟».

على: «سأخبرك أن عمر بن الخطاب كان كل ولى فإنما يطأ على صماخه إن بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى الغاية وأنت لا تفعل، ضعفت ورفقت على أقربائك».

عثمان: «هم أقرباؤك أيضاً».

على: «لعمرى إن رحمهم فىّ لقريبة ولكن الفضل فى غيرها».

عثمان: «هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها؟ فقد وليته».

على: «أنشدك الله، هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من غلام عمر منه؟».

عثمان: «نعم».

على: «فإن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت تعلمها فيقول للناس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغير على معاوية».

الرجلان من صحابة رسول الله ﷺ ومن العشرة المبشرين بالجنة ومن خيرة المسلمين لكنهما ـ وفى هذا الموقف ـ حاكم يدافع عن سياسته وقف أمام رجل دين يحاول أن يحق الحق ويضع الأمور فى نصابها، يمكن أن يقتربا فى درجة علمهما ومعرفتهما بتعاليم النبى ﷺ وأحكامه لكن منطقية الأشياء تفرض علينا أن نلتمس تعليل الأمور بهذا التقسيم.. حاكم ورجل دين.

فعثمان بن عفان ـ الحاكم ـ لم يسمع لصحابة رسول الله ﷺ ولا لعلى بن أبى طالب نفسه وهو أحد أفراد الشورى وابن عم الرسول ﷺ، بل كاد أن يبطش عثمان به وحاول العباس إصلاح مايمكن إصلاحه، وفى النهاية آثر عثمان لقرابته من على ألا يتورط معه ويشتد عليه.. ومع ذلك فقد كان على ـ الذى يقف فى ضفة رجل الدين هنا ـ حريصاً كل

الحرص أن يسود فى العالم الإسلامى روح الوفاق وأن يبتعد شبح الفتنة عن سماء الإسلام.. وهذا ابنه الحسن بعد أن قُتل عثمان يقول لأبيه:

- «يا أبى أشرت عليك حين حوصر عثمان أن تخرج من المدينة فإن قُتل قُتل وأنت غائب عنها.. وأشرت عليك حين قُتِل عثمان وراح الناس إليك وغدوا وسألوك أن تقوم بالأمر ألا تقبله حتى تأتيك البيعة من جميع الآفاق..».

فيقول الإمام على لابنه:

- «أما خروجى حين حوصر عثمان فما كان ذلك ممكناً فقد كان الناس أحاطوا بى كما أحاطوا بعثمان، وأما انتظارى طاعة جميع الناس من جميع الآفاق فإن البيعة لاتكون إلا لمن حضر الحرمين من المهاجرين والأنصار، فإذا رضوا وبايعوا حق على جميع المسلمين الرضا والبيعة».

وعندما تولى الإمام على الخلافة عادت مدرسة النبى ﷺ لتطل برأسها من جديد.. وعاد الخطان من جديد ليتوحدا فى خط واحد..

●●●

ثم جاء معاوية الذى وصل لسدة الحكم على جثث كثيرة أهمها وأعلاها جثة الإمام على نفسه وليضع من أول يوم منهاج حكمه وسياسته ويؤسس المُلك كله على جملة مازالت تطل برأسها علينا إلى اليوم.. قال معاوية:

- «إنى لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين مُلكنا..».

كلمات عميقة للغاية من السياسى الحاكم.. ويالها من فاجعة عندما تقال فى مجتمع المفروض أن دينه الإسلام..

اعتلى معاوية الحكم، ومن وقتها بدأ الحاكم يفكر ويخطط ويقضى الوقت الطويل فى كيفية إحضار كل من يخدم الحاكم ليستمر فى حكمه.. يستوى فى ذلك الجميع.. اللصوص والأمناء.. المنافقون والمخلصون.. العصاة ورجال الدين.. فمادام الهدف يتحقق فلا ضير أن يقوم به الشيطان.

وضع الأمويون وكبيرهم معاوية منهجاً للحفاظ على مُلكهم من خلال رجال الدين.. اعتمد هذا المنهج على بعض الأبعاد..

أهمها وأولها: صناعة رجال الدين والعلماء صناعة يدوية، وهو مافعلوه مع أبى هريرة الذى روى واحد فقط عنه ٣٥٧٤ حديثاً، ذكر منها البخارى ٤٤٦ حديثاً.. ولأن أبا هريرة من صناعة معاوية وأعوانه فقد حشد الأحاديث حشداً تؤيد معاوية وأنصاره، وهذه بعضها:

● روى ابن عساكر وابن عدى والخطيب البغدادى أن أبا هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله ائتمن على وحيه ثلاثة أنا وجبريل ومعاوية**».

وفى رواية أخرى له قال: «.. **الأمناء ثلاثة جبريل ومعاوية وأنا**».

● وروى الخطيب عنه أن النبى ﷺ ناول معاوية سهماً فقال: «**خذ هذا السهم حتى تلقانى به فى الجنة**».

● وروى الأعمش أن أبا هريرة لما قدم العراق مع معاوية حين تولى الخلافة جاء إلى مسجد الكوفة، فلما رأى كثرة من استقبله من الناس جثا على ركبتيه ثم ضرب صلعته مراراً وقال: «يا أهل العراق تزعمون أنى أكذب على الله ورسوله وأحرق نفسى بالنار؟ والله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لكل نبى حرماً وأن حرمى بالمدينة مابين عير إلى ثور فمن أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين وأشهد الله أن علياً أحدث فيها..**»!!

هذه بعض الروايات التى نطق بها لسان أبى هريرة عن النبى ﷺ، ونحن هنا لانقلل من شأن أبى هريرة أو نطعن فى دينه أو نرفض كلماته بلا حجة.

فأبو هريرة كان أقل الصحابة رفقة وصحبة للنبى ﷺ، فقد صحب النبى ﷺ عاماً وتسعة أشهر فقط، حيث إنه أسلم بعد غزوة خيبر ولا يعقل أبداً أن يروى رجل هذا الكم من الأحاديث رافق النبى ﷺ هذه المدة فقط فى حين أن الزبير بن العوام الذى لم يفارق النبى ﷺ منذ أسلم لم يرو عنه شيئاً يُذكر، ولما سئل فى ذلك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من كذب علىّ فليتبوأ مقعداً من النار**».

الغريب أن السيدة عائشة لما رأت أن أبا هريرة يروى عن النبى ﷺ مالم يقله وجهت حديثها إلى أبى هريرة حيث قالت له: «إنك لتحدث حديثاً ما سمعته من النبى ﷺ».

فقال لها: «شغلك عنه المرآة والمكحلة..».

وهذا رد ينقصه حسن الرد ووافر الأدب إذا اعتبرنا أن فيه بعضاً من الأدب.. ولعله لم يكن يجرؤ على هذا الرد سوى أنه استند إلى قوة بنى أمية وكبيرهم معاوية، فقد امتد العمر بأبى هريرة حتى أدرك الخلافة الأموية وتحالف مع الأمويين، وفى فترة الخلاف بين على ومعاوية تمكن معاوية من الاستيلاء على الحجاز وسلط على أهل الحجاز بشر بن أرطأة وقام هذا الوالى بتعيين أبى هريرة والياً على المدينة.. وحين تولى مروان بن الحكم المدينة فى خلافة معاوية كان أبو هريرة رفيقاً له حتى أنه كان ينوب عنه فى ولاية المدينة إذا غاب، وازدادت أمواله من عطايا الأمويين حتى لقد بنوا له قصراً فى العقيق.. وزوجوه من بسرة بنت غزوان أخت الأمير عتبة بن غزوان.

لأجل ذلك كله خرج أبو هريرة ليعمل فى خدمة الأمويين وينشر لهم الأحاديث التى يخذل بها أنصار على ويطعن فيها عليه ويشيد بفضل معاوية وآله، وكانت هذه الأحاديث تمتاز بأنها مادة للقصص والدعاية الأموية.

السلطان هنا بكل سطوته وجبروته وعنفوانه يتدخل ليصنع رجلاً يضعه فى مقدمة الصفوف يستغل منه صحبة للنبى واستعداداً نفسياً عند الرجل ليعوض فقراً عاشه.. بغنى فى ظل سلطان أعطى للجميع الإيحاء من أول يوم أنه يفعل كل شيء ليحافظ على مُلكه.

ولا أعرف كيف غاب عن معاوية أن أبا هريرة لم يكن هو الرجل الذى يعتمد عليه ليغب كل حجة مناوئة. فقد بدأ أبو هريرة فى الرواية عن النبى ﷺ فى خلافة عمر، فهدده عمر قائلاً: «لتتركن الحديث عن رسول الله أو لألحقنك بأرض دوس»، وهى بلاد أبى هريرة التى منها جاء، وأبو هريرة نفسه تحدث بكلمات عندما نعقلها نشتم منها رائحة غريبة حيث قال: «لو كنت أحدث زمان عمر مثلما أحدثكم لضربنى بمخفقته». وقال: «إنى أحدثكم بأحاديث لو حدثت بها زمن عمر لضربنى بالدرة». والذى يهيل التراب على معظم مارواه أبو هريرة أن كبار الصحابة المقربين للنبى ﷺ كانوا أقل الناس رواية عنه، مثل أبى بكر والزبير وأبى

عبيدة بن الجراح والعباس بن عبدالمطلب.. بل إن بعضهم لم يرو شيئاً مثل سعيد بن زيد ابن عمرو وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة حسب حديث النبى فيمن بشرهم بالجنة.

كل ذلك فى منطق السلطان لاشىء.. لايقدم ولا يؤخر ولا يبلغ فى ميزان الأشياء ذات الشأن شيئاً.

لم يكن ذلك فقط مافعله الأمويون، فصناعة رجل الدين لاتكفى، وعليه كان ضرب رجال الدين والتقليل من شأنهم والتنكيل بهم، هذا بالطبع إذا كانوا معارضين لايرون مايراه الحاكم.. فكل عالم دين مكانته عظيمة مادام يتفق مع السلطان.. وإن أبى فالسوط سيد الموقف والموت سلطانه.. الأمثلة كثيرة لاتحصى ولا تعد ولا يجملها كتاب.

● فهذا سعيد بن المسيب الذى عاش فى المدينة زمن الأمويين واشتهر فى نشأته المبكرة بالعلم واعترف ذوو الفضل من الصحابة والتابعين ومن وليهم بما شرف به قدره وأعلى مكانته.

تلفت سعيد ليجد أن العصر الذى يعيشه عصر منافع واستغلال، فالأمراء والولاة لايسيرون على سنن الخلفاء الراشدين وقد بذلوا جهوداً مضنية فى تدعيم المُلك باجتذاب الأنصار وإغراء النفوس بالمال والمنصب والنفوذ.. ولما رأوا التفاف الناس حول سعيد حاولوا اجتذابه إليهم.. فأرسل عبدالملك يخطب ابنة سعيد لولى عهده الوليد فيكسب بذلك محبة فى القلوب ويتخذ من سعيد العالم دعامة تجذب نحوه الأنصار والأتباع.. لكن سعيد يرفض ذلك ويستهوله لأنه يرفض أن يكون مطية لظالم - هكذا قال - أو خديعة لشعب مرهق ذليل.. ثم يعجل بزفاف ابنته إلى طالب علم فقير لايملك غير قوت يومه.. فالرجل يرفض مصاهرة الخليفة ويقبل مصاهرة طالب العلم الفقير.

ولما اشتد النزاع بين الأمويين والزبيريين حاول كل منهم جذبه لكنه رفض الجميع لأن الخلافة انحرفت عن نهجها الذى عرفه أيام عمر وعلى.

وهذا جابر بن الأسود عامل عبدالله بن الزبير على المدينة يأمره بالبيعة فيمتنع فيضربه ستين سوطاً فما تراجع عن موقفه، بل يرى ذلك هيناً فى سبيل الله.

وهذا عامل عبدالملك على المدينة يأمره بالبيعة للوليد بن عبدالملك فيمتنع فيهدده بضرب عنقه فما يتراجع لحظة عن موضعه.

ويقول عمرو بن عاصم: لما استخلف الوليد بن عبدالملك قدم المدينة فدخل المسجد ورأى شيخاً قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: سعيد بن المسيب، فلما جلس أرسل إليه، فأتاه الرسول فقال: أجب أمير المؤمنين. فقال سعيد: لعله أرسلك إلى غيرى. فأتاه الرسول فأخبره فغضب الوليد غضباً شديداً وهم به فقال له جلساؤه: يا أمير المؤمنين فقيه المدينة وشيخ قريش لم يطق أباك من قبلك واغض عنه، ثم مازالوا به حتى تراجع!!

حدث لسعيد ماحدث.. وفعلوا به ما فعلوا.. لكنه أبداً لم ينم فى فراش سلطان ولا تغطى بغطائه.

● وسعيد آخر لكنه سعيد بن جبير، وقف يوماً أمام الحجاج الثقفى وهو من هو فى قوته وعنفوانه، وكان سعيد مناصراً لعبدالرحمن بن الأشعث وخاذلاً للحجاج.. ولما جاء سعيد الحجاج جرت المحاكمة على النحو التالى:

الحجاج: ما اسمك..؟

سعيد: أسمى سعيد بن جبير.

الحجاج: بل شقى بل كسير.

سعيد: أبى كان أعلم باسمى منك!!

الحجاج: لقد شقيت وشقى أبوك.

سعيد: الغيب إنما يعلمه غيرك.

الحجاج: لأبدلنك ناراً تتلظى.

سعيد: لو علمت أن ذلك لك ما اتخذت إلهاً غيرك.

ولما عجز الحجاج عن أخذ غريمه جره بالحديث إلى طريق آخر لعله يوقع به:

الحجاج: ما قولك فى محمد؟

سعيد: نبى الرحمة وإمام الهدى بعثه الله رحمة للعالمين.

الحجاج: وما رأيك فى على أهو فى الجنة أم فى النار؟

سعيد: لو دخلتها وعرفت من فيها لعرفت أهلها.

الحجاج: وما رأيك فى الخلفاء؟

سعيد: لست عليهم بوكيل.

ولما يعجز الحجاج عن الإيقاع به يصرخ فيه:

الحجاج: أتريد أن أعفو عنك؟

سعيد: إن كان العفو فمن الله.. وأما أنت فلا تملك عفواً عن إنسان.

الحجاج: اختر أى قتلة تريد أن أقتلك بها.

سعيد: بل اختر ياعدو الله لنفسك، فوالله ماتقتلنى اليوم قتلة إلا قتلتك فى الآخرة بمثلها.

يساق سعيد إلى المذبحة وهو يردد دعاءه على الحجاج: «اللهم لاتسلط الحجاج على أحد بعدى».

هل يُطلب منا هنا تعليق.. وعلى أى شىء نعلق؟.. هذا الحدث أورده من كتبوه بكثير من الحواشى والتفاصيل ووصف الموقف ووصف نبرات الصوت وتردد الحجاج وإقدام سعيد وغضب الحجاج وهدوء سعيد وغلظة الحجاج ورقة سعيد.

وهذا كله فى قاموسنا لا معنى له، فالكلمات كما جاءت متعاقبة متوالية لايفصلها ولا حتى أنفاسهما تعطيك الدليل القاطع على قوة رجل الدين عندما يقف أمام سطوة السلطان وغشمه عندما يعلم أن لاشىء بعد الله حتى يخافه ولا شىء قبل الله حتى يخشاه، فسعيد هذا كان يستطيع بكلمة واحدة أن يخلع عن نفسه الموت لكنه صان نفسه وعلمه ورفض ذهب السلطان وعانق سيفه قائلاً مرحباً بمن يقربنا إلى الله.

● كانت لأبى حنيفة صولة وجولة مع بنى أمية.. كان الحكم الأموى قد طغى شره واستشرى خطره، فالظلم ساد والقهر أصبح هو الحاكم بأمره.. وقامت الثورات تريد أن

تبدد ليل الظلم إلى نور العدل. كان أبو حنيفة فى مقدمة الثوار الذين لايملكون من أمرهم شيئاً، وإذا به وهو فى غضبه وضيقه هذا يأتيه رسول يزيد بن هبيرة والى العراق يدعوه إلى أن يلى القضاء مع فريق من رجالات الفقه والتشريع.. وأدرك الإمام منذ الوهلة الأولى أن الخليفة وواليه يريد أن يتخذ من أبى حنيفة مطية للشر ومركباً يعبرون به مزالق الخطر.. فهم عندما يعتلون منصة القضاء ينظر الناس إليهم كمؤيدين لحكم الأمويين الباغى المعتدى على أعراض الناس وحياتهم، ورد أبو حنيفة ساعتها بقوله:

ـ «والله لو أراد ابن هبيرة أن أعد له أبواب مدينة واسط لم أدخل فى ذلك، فكيف وهو يريد أن يكتب بضرب عنق رجل مؤمن وأختم له أنا على ذلك، والله لا أدخل فى ذلك أبداً».

هل كان أبو حنيفة يجهل ماسوف يحدث له؟! بالطبع لا.. هل كان يجهل أغوار السلطان وماتخرجه عندما يغضب؟ بالطبع لا.. وبالفعل غضب الوالى لرفض أبى حنيفة فسجنه أسبوعين عساه أن يعود عما فى رأسه، ولما أصر أمر بضربه بالسياط فكان يجلد كل يوم عشرة أسواط حتى تخطى المائة وأشرف على الهلاك وهو مازال فى ثباته.

فتح السلطان أبواب قصره أمام رجل الدين ففر هارباً..!!

●●●

ومن الأمويين إلى العباسيين خط السلطان واحد.. وحبر الكتابة واحد، أسود لا بارقة أمل فى أن يتبدل لونه، وكما فعل الأمويون فعل العباسيون.

فهؤلاء صنعوا أبا هريرة وأولئك صنعوا عبدالله بن عباس، فبعد أن أطاح بنو العباس بالدولة الأموية ذهبوا يبحثون لهم عن سند شرعى، لم يتعبهم البحث كثيراً فسرعان ماوجدوه، إنه هو جدهم عبدالله بن عباس.. وقبل الحديث عن الراوية نتحدث عما رواه..

● روى عن ابن عباس انه قال أن أمه كانت حاملاً فيه وقد أمرها النبى ﷺ أن تأتى به إليه إذا ولدت.. وجاءت الأم بابنها عبدالله فأعطاه النبى ﷺ الاسم وباركه وقال أنه سيكون أب الخلفاء حتى يكون منهم السفاح وحتى يكون منهم المهدى ويكون منهم من يصلى بعيسى عليه السلام.

● وروى أبو جعفر المنصور أنه قال حدثنى أبى عن جدى عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال للعباس: **«إذا سكن بنوك السواد وكان شعبهم أهل خراسان لم يزل الأمر فيهم حتى يدفعوه إلى عيسى ابن مريم».**

● وحديث آخر رواه ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال: **«الخلافة فى ولد عمى وصنو أبى حتى يسلموها إلى المسيح».**

● وحديث آخر يقول أن النبى ﷺ دعا للعباس ثلاثاً وقال: **«اللهم انصر العباس وولد العباس. ثم قال: ياعم أما شعرت أن المهدى من ولدك سيكون موفقاً راضياً مرضياً».**

● وفى أول الخلفاء العباسيين الملقب بالسفاح جاء حديث لابن عباس يقول: «يخرج رجل من أهل بيتى عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتن يقال له السفاح فيكون إعطاؤه المال حثياً».

أحاديث شتى وقصص منثورة عند أقدام الخلفاء. الغريب أن عبدالله بن عباس هذا لم يدرك النبى ﷺ إلا وهو دون الحُلُم، وقد قضى طفولته فى مكة فى حين كان النبى ﷺ يومئذ بالمدينة!!

لكن رغبة السلطان التى تهيىء له أن بمقدوره أن يقول للشىء كن فيكون، رفعت من شأن ابن عباس لتجعله راوية الحديث الأول عن النبى ﷺ وقالوا على لسانه كثيراً من الأحاديث التى تروج لهم وتعضد مُلكهم.

الأغرب من ذلك أن نجد أحاديث منسوبة لأبى هريرة تبشر بالعباسيين وتؤكد مُلكهم.

منها حديث لأبى هريرة أن النبى ﷺ قال للعباس: **«فيكم النبوة والمملكة»**.. وحديث آخر بنفس المنطق.. حيث قال النبى ﷺ للعباس: **«إن الله فتح بى هذا الأمر وبذريتك يختمه».**

ماذا ننتظر بعد ذلك.. وماذا يمكن لنا أن نقول.. وهل لنا أن نسأل مجرد سؤال عما يحدث بالضبط بتاريخنا وإسلامنا وأسلافنا.. وماذا يريد السلطان أن يفعل وبأى قوة وضع الله شهوة الحكم فى الناس حتى يعصفوا من أجلها بكل شىء.. كل شىء.

العباسيون كأسلافهم أيضاً انتهوا من الخطوة الأولى وهى اصطناع عالم الدين الذى يبشر بهم.. وذهبوا بعد ذلك إلى الخطوة الثانية، رفع من يؤيدهم من رجال الدين والحط بمن يعارضهم، وهؤلاء كانوا كثيرين.

● ونبدأ مرة ثانية من أبى حنيفة الذى عمل بكل قواه أن تنجح ثورة العباسيين على الأمويين، وما أن نجحت واستتب لها الأمر حتى أعادت البطش بطشين والعسف عسفين، ووقف أبو حنيفة ليرد عن الناس ما ساهم فى الإتيان به وأفتى بأن الوقوف أمام شر العباسيين جهاد فى سبيل الله.

وهال الخليفة المنصور أن يجد أبا حنيفة يقف فى وجهه، لم يكن يجهل أبا حنيفة ولا صلابته فى الحق. وجمع المنصور رجال الدين وقال المنصور: ألم يقل الرسول ﷺ: «المؤمنون عند شروطهم».. وأهل الموصل قد اشترطوا ألا يخرجوا علىّ، فإن فعلوا حلت دماؤهم بإقرارهم الصحيح؟!

أحد الحاضرين: يدك يا أمير المؤمنين مبسوطة عليهم وقولك مقبول فيهم، فإن عفوت فأنت أهل العفو، وإن عاقبت ففيما يستحقون.

وساعتها رفع أبو حنيفة صوته ليقول فى ثبات:

أبو حنيفة: إنهم اشترطوا لك ما لايملكونه وشرطت عليهم ما ليس لك، لأن دم المسلم لايحل وشروط الله أحق ماتوفى به.

غضب المنصور وصرف مَنْ عنده وأبقى أبا حنيفة ليصرخ فيه:

المنصور: لقد أحرجتنا أمام الناس فانصرف إلى بلادك ولا تُفتِ بما هو شين على إمامك.

ساعتها خرج أبو حنيفة غير عابىء به ولا خائفاً من ثورته.. ولا متوجساً من سطوته.. كان أبو حنيفة قد وضع أساساً يسير عليه، هو محاربة الطاغية الظالم.. فالطاغية الظالم فى منطق الإسلام طاغية يجب أن يُحَارب سواء أكان أموياً أم عباسياً.

وخطا المنصور مارسمته أقدام الأمويين من قبل وعرض القضاء على أبى حنيفة

فرفض.. وأقسم المنصور.. وأصر الإمام وقال لا أصلح للقضاء.. وساعتها تدخل وزير أبى جعفر ليقول. ألا ترى أمير المؤمنين يحلف».. فرد الإمام ثابتاً: «أمير المؤمنين أقدر على كفارة إيمانه منى».. وانتهت به كلماته إلى السجن مرة أخرى.. ودعاه المنصور بعد أيام ليحدثه..

المنصور: أترغب عما نحن فيه؟!

الإمام: أصلح الله أمير المؤمنين، لا أصلح للقضاء.

المنصور: كذبت.

الإمام: لقد حكم عليّ أمير المؤمنين أنى لا أصلح للقضاء لأنه ينسبنى إلى الكذب، فإن كنت كذاباً فلا أصلح، وإن كنت صادقاً فقد أخبرت أمير المؤمنين بعدم صلاحيتى للقضاء.

مرة أخرى تنتهى الكلمات بالإمام إلى السجن ويجلد فيه مائة وثلاثين جلدة نزلت بلا رحمة على جسد الشيخ الواهن.

ولما صرخ عبدالرحمن بن على بن عباس عم الخليفة فى ابن أخيه أن يطلق سراح الرجل، فأطلق سراحه وأرسل له ثلاثين ألف درهم.. رفضها الإمام، فقيل له: لو تصدقت بها. فقال ساخراً: «ومن يضمن لى أنها جُمعت من طريق الحلال؟!».

العظمة لاتأتى للخاملين ولا للكسالى لتتوج رؤوسهم ولكنها تعانق أصحاب المبدأ وتعضد أصحاب المواقف العظيمة. وأبو حنيفة رجل الدين الفقيه كان منهم.. كان فى موقفه من الخليفة رجل السلطان يؤكد أن العقيدة أقوى من قوة السلطان إذا ماتجبر وأن كلمة من إمام صدق أو شيخ عف أو عالم زهد تستطيع أن توقع بكل سيوف السلطان حتى لو كانت السيوف خرجت من بين سطور كتب الأساطير القديمة أو حتى تلك التى كان يمسك بها آلهة الإغريق.

سقط تحت عسف العباسيين من رجال الدين الكثيرون، منهم الإمام مالك الذى وقف بجانب الإمام أبى حنيفة وأفتى بما أفتى به ليواجها به ظلم العباسيين وعسفهم.

وكذلك سقط الإمام أحمد بن حنبل تحت سياط العباسيين، وبدأت القضية برأى أرسل

به المأمون يأمر فيه الفقهاء باعتناق عقيدة تقول أن القرآن مخلوق، ويهدد من يرى غير ذلك وكان ذلك فى شهر ربيع الأول عام ٢١٨ هجرية.. وتوالت الأوامر بتتبع العلماء وتهديدهم، فخضعوا للأوامر وكان منهم ابن سعد وأبو مسلم ويزيد بن هارون ويحيى بن معين وأبو خثيمة وغيره وقد أخلت سُلطة السلطان سبيلهم وأمرت باستحضار آخرين منهم ابن حنبل ليجبر على القول بخلق القرآن لكنه أبى ودخل السجن يتجرع فيه العذاب.. وبعد خروجه تظل آثار تعذيبه باقية على جسده وعندما يموت.. يموت بآثار التعذيب هذه.

تلك كانت البدايات الأولى التى استمرت على أساسها ويضوء منها علاقة السلطان برجل الدين.. فالسلطان دائماً وأبداً لايرغب أن يسمع من رجل الدين إلا مايحب سماعه.. يقربه ويسدى له العطايا، فإذا ما سمع فى كلماته كلمة شاذة واحدة أبعده وصادر منه كل عطية وأقصى كل نعم الحياة عنه.. الجميع سار على نفس المنهاج لسبب واحد، أن السلطان هو السلطان.

●●●

فعندما بنى أحمد بن طولون مسجده فى مصر أقام فيه بئراً كبيرة للغاية حتى يتوضأ منها الناس للصلاة، وسارت الأمور كما يرغب أحمد لكن خرج أحد العلماء وقال أن الوضوء من بئر مسجد أحمد بن طولون لا يصح وعليه فالصلاة باطلة حيث إنه لا صلاة بلا وضوء.. لم يعلق أحمد وإنما أمر كبير جنده أن يصحب هذا العالم ليلاً إلى البئر.. ولما وصل الرجل إلى البئر وجد أحمد عنده فارتعدت أوصاله وأدرك أن فى الأمر شيئاً. أشار أحمد إليه أن يشرب من البئر.. فأقبل الرجل مسرعاً بعد أن رأى الشرر يتطاير من عينيه وأخذ بكفه شربة ماء وشرب. وسأله أحمد: «ماذا تقول فى هذا الماء؟»، فأجاب الرجل مسرعاً: «الله، إنه أحلى من ماء الجنة».. وأشاع العالم أن ماء بئر مسجد أحمد يصح منه الوضوء والشرب منه يشفى الأوجاع. هكذا جاءت الرواية فى كتب التاريخ، لكن السطور أخفت خلفها سطوراً نستطيع أن نعرف من خلالها كيف ساق كبير الشرطة هذا العالم إلى بئر المسجد.. كيف أمسك به وبأى ألفاظ حدثه وتكلم معه، ثم كيف مرت اللحظات التى جمعت هذا العالم بأحمد بن طولون بساحة المسجد أمام البئر.. ماهى الطريقة التى تحدث بها أحمد.. وهل كان يمسك فى يده سيفاً.. كل ذلك يمكن لنا أن نتحدث به ولا يراجعنا فيه

أحد.. فلابد أن القهر الذى تعرض له عالم الدين كان قهراً شديداً مدمراً حتى يحول الماء الراكد الدنس الذى لايصح به الوضوء إلى ماء - على حد تعبيره - أحلى من ماء الجنة!!

يقولون أن أحمد بن طولون هذا كان يمثل استثناء واضحاً بين أبناء جنسه، فالعهد بجنود الأتراك أنهم كانوا لايفيئون إلى خُلُق فاضل أو يعتصمون بدين قديم، فهم يربون تربية رياضية تقوم على الشجاعة والفروسية وتركن إلى أساليب الاحتيال والدهاء. ومن يصل منهم إلى مكان القيادة فى القصر يوجه اهتمامه إلى المكيدة والائتمار وينظر إلى الخليفة العباسى كدمية صماء يحركها أنى أراد، فإذا عنّ له أن يضع الأمر فى نصابه أو يتمسك ببعض حقوقه فى التولية والعزل والإدارة والحكم مهدت له الدسائس السود لتجعله بين عشية وضحاها فى غياهب السجون ثم يختار أمير ضئيل من بنى العباس ليصير دمية أخرى يتلاعب بها الأتراك كما يشاءون.. انفرد أحمد عنهم بثقافته الدينية، فدرس القرآن والحديث وتأثر بروح الإسلام السديد.. هذا الانفراد لم يرحمه من الوقوع فى مأزق أن يكون حاكماً وسلطاناً وغاشماً أيضاً يتصرف مع عالم دين بالكيفية التى يحفظ بها مُلكه وحُكمه وما عنده.. حتى لو سار بقدميه على أى شىء..

ولا يجب أن نقذف السلطان وحده بكل حجارة النقد والسوء، فما لنا نزهد فى الحديث عن عالم دين ربما يكون هو المقصر.. وما ضر عالم الدين هذا لو كان وقف أمام أحمد ثابت الجنان.. ليقول له أن ماء البئر راكد لايصلح للوضوء ولو ضربوه ولو جلدوه ولو سجنوه، قد يكون الرجل ضعيفاً فلم يتحمل نظرات الشر فى عيونهم تخرج تشوى جلده بسياط غليظة الوقع.. وقد يكون الرجل مراوغاً فألقى بالكلمات لتفعل مفعولها وتعود إليه يصل بها إلى مايرغب ويريد.. قد يكون ولم لا!!

فإذا كان هناك من رجال السلطان من يعدون الفراش لينام فيه رجال الدين، فإن هناك من رجال الدين من يسعون سعياً حثيثاً إلى فراش السُلطة ينعمون بساعات فيه، فقد تطول الساعات إلى أيام وسنين وقد يكون ذلك هو غاية المنتهى.

●●●

بعد أن مات الملك الأشرف موسى بن العادل سلطان دمشق تولى الحكم ملكها الصالح إسماعيل وكان يعيش بأرض الشام وقتها العز عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام، وهو من هو فى علمه. أيام ودَب الخلاف بين الصالح إسماعيل ونجم الدين أيوب، فخاف إسماعيل على مُلكه فصالح الفرنجة من الصليبيين على أن ينقذوه من ملك مصر ويسلم إليهم صيدا والشفيف وغيرهما من بلاد المسلمين، ولم يلبث الصليبيون أن دخلوا دمشق بمقتضى المعاهدة وأخذوا يبحثون عن السلاح يشترونه ويعدون أنفسهم لمحاربة المسلمين.. استعظم العز ذلك وأصدر فتوى بتحريم بيع السلاح وندد بالصالح إسماعيل في كل مكان يذهب إليه واعتلى منبره ليعلن من فوقه سخطه الشديد وغضبه الأشد على الوالى.. وهنا كان لشهوة السلطان أن تتدخل فأصدر الوالى أمراً بالعزل والحبس.. وزادت الثورة استفحالاً على الوالى فأطلق سراح العز على أن يغادر دمشق، فلا راحة للوالى فى أرض تجمعه بالعز.. وخرج العز قاصداً مصر، وهنا دخل فى نفس الوالى إذا سكن العز أرض مصر نشر خيانة إسماعيل وخروجه على المسلمين فأرسل له من يصالحه على العودة إلى منصبه بشرط أن يستكين للسلطان ويقبّل يده..

سمع العز كلمات الرجل وكان لابد له أن يرد:

العز: والله لا أقبل أن يقبِّل الصالح يدى فضلاً على تقبيلى يديه.. يابنى ارجع إلى صاحبك فهو فى واد وأنا فى واد.

دخل الرجل مصر وأنزله نجم الدين أيوب منزلة كريمة.. لكن فى داخل الرجل يجلس عالم كبير وفقيه يتقى الله.. مر يوماً على نجم الدين أيوب فى يوم عيد وقد أخذ الرجل زينته وخرج على قومه والجنود مصطفون بين يديه والأمراء يقبلون الأرض تحت أقدامه والرايات تخفق والخيول تصهل والدنيا تجتمع لتشهد، فالتفت الشيخ إلى السلطان فى أبهته الأخاذة وتيهه المتعاظم وصاح به:

العز: يا أيوب ما حجتك عند الله إذا قال لك ألم أبونك مُلك مصر ثم تبيح الخمور؟!

أيوب: هل حصل ذلك؟!

العز: نعم، حانة فلان وحانة فلان.

أيوب: هذا من زمان أبى وما صنعت شيئاً.

العز: أأنت من الذين يقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة؟!..

وأغلقت الحانات، وبعدها يعلق العز على ماحدث بقوله:

العز: «لقد رأيته فى تلك العظمة فأردت أن أهينه لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه، ولقد استحضرت هيبة الله تعالى إذ أخاطبه، فصار السلطان عندى أقل من القط، ولو كانت بنفسى لديه حاجة من حاجات الدنيا لرأيته الدنيا كلها».

هذا رجل يدرك مهمته بدقة شديدة.. فلا هو يعطى لمن طرده خضوعاً حتى يعود ولا يعطى لمن استقبله وأنزله منزلاً كريماً طاعة عمياء اعترافاً منه بالفضل والجميل..

فى كل موقف نجد سلطاناً وعالم دين نضع أيدينا على قلوبنا.. نطمع أن يستطيع رجل الدين أن يلبس رجل السلطان حلته.. ويستبد الدمع بأعيننا عندما نرى عالم الدين يتعثر فى عباءة السلطان حتى لو كانت على مقاسه بالضبط، فالتعثر نفسى والمصيبة روحية!!

●●●

عصر واحد جمع بين بطل فى قامة الظاهر بيبرس وعالم فقيه فى قامة العلامة محيى الدين النووى، كان الرجل ذا هيبة وجلال وقد انتقلت به الحياة فى جميع العواصم الإسلامية لينهل من حياض الثقافة فى كل مركز من مراكزها النائية ورجع إلى دمشق يجر وراءه فقهاً وعلماً وورعاً.. سار الرجل فى طريق العلم والتقوى والتدريس.. وسار الظاهر بيبرس فى طريق الجهاد، اشتد فى جمع الضرائب والمكوس من الناس ليستعين بها على الجهاد حتى وصل به الشطط إلى ضروب من العنت والإرهاق، وبنظرة شاملة من الشيخ محيى وجد أن كثيراً من التجار يجردون من أموالهم ويسلبهم الجباة فى غلظة كل أموالهم، وإذا احتج أحد سكتت الكلمات وعلت أصوات السياط.

أخذ الرجل يكتب للظاهر بيبرس يلفته إلى مايحدث ويوصيه بالعدالة والحق فيما يأخذ ويدع من الأموال ويشرح له ماشهده بنفسه من مآسٍ قاسية تنفطر لها الأكباد.

زاد الرجل على ذلك حيث أغلظ له فى القول وبالغ فى التهديد والوعيد وطار الخطاب

إلى الظاهر بيبرس.. لتجيء لحظة المواجهة بين السلطان ورجل الدين.. وكما تكررت هذه اللحظة وأصبحت من طقوس حياة العلماء ورجال السلطة..

كان الرد سريعاً من بيبرس فكتب إلى الرجل يشد عليه فى القول ويشير بالوعيد والقهر لكل من يتدخل فيما ليس يعنيه، ثم هو لا يقتصر على الشيخ وأتباعه من العلماء بل يتهم الرعية بالبخل والشغب..

وجاء الرد سريعاً من محيى الدين فى كلمات سريعة ونافذة:

محيى الدين: «أما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا وتهديد طائفة العلماء فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه، وأى حيلة لضعفاء المسلمين فى الناصحين نصيحة للسلطان ولهم ولا علم لهم به وكيف يؤاخذون به لو كان فيه مايلام عليه، وأما أنا فى نفسى فلا يضيرنى التهديد ولا أكثر منه ولا يمنعنى ذلك من نصيحة السلطان فإنى أعتقد أن ذلك واجب علىّ وعلى غيرى وماترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى.. فإنما هذه الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار.. وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول الحق حيثما كنا وألا نخشى فى الله لومة لائم..».

مضت الحادثة بين أخذ ورد.. حتى استعد الظاهر بيبرس لمقاتلة بعض أعدائه فطلب من العلماء الفتوى بجواز جمع المال من الرعية للعون فى الحرب.. أفتى العلماء وامتنع محيى الدين عن الفتوى.. وأعلن ذلك فى إصرار غريب.. ولأن المواجهة لابد أن تحدث فقد اجتمع الظاهر بيبرس ومحيى الدين فى جمع من الناس.. وهذا بعض مما حدث:

بيبرس: لماذا لاتجيز أن تُجمع الأموال من المسلمين لننفقها فى الجهاد كما أفتى زملاؤك من الفقهاء؟!

محيى الدين: كلنا يعلم أن لديك ألف مملوك، كل مملوك له حياصه من ذهب، وعندك مائتا جارية لكل جارية نصيب من الحلى، فإذا أنفقت ذلك كله وبقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلاً من الحوائض وبقيت الجوارى بثيابهن دون الحلى أفتيتك بأخذ مال الرعية.

بيبرس: (وقد عدم الجواب) اخرج من بلدى فأنت لايجب أن تساكننى فيها.. (ثم يتدارك) ولماذا تخرج؟! أذنت لك بالمقام!!

محيى الدين: ومن أدراك أنى سأقبل المقام لديك، لابد من الرحيل.

لو حلمنا برجل دين فلن يكون أفضل من هذا الرجل، فلا أكثر من رجل عندما تستدعى الأحداث كلمة الحق أن يقول كلمة الحق.. وهاهو الرجل يقولها.. يتعجب الناس من المجابهة الرادعة بين سيف السلطان وعمامة الشيخ ويؤكدون لأنفسهم أن الأمور مازال فيها شيء من الخير مادامت الأرض تحمل من الرجال مثل هذا الرجل..

●●●

كثيرة هى الأيام التى تمر بلا جديد.. تظل حبلى بالأحداث، وعندما تقع الأحداث نجد الأيام كانت عقيمة أو حملها ـ على الأقل ـ كان كاذباً، رغم ذلك لم تبخل الأيام أن تضيف إلى كتاب «رجل السُلطة ورجل الدين» صفحات كثيرة حوت أصواتاً تعارض وأصواتاً تؤيد . رجال دين يستمعون للنصح. ورجال سُلطة يرفسون ـ والتعبير صحيح ـ يرفسون رجال الدين بقوة..

تمر الأيام تحمل كلمات لابن دقيق العيد فى وجه الملك المنصور حسام الدين لاجين سلطان مصر سنة ٧٩٧، قال له:

ـ «والله إن الأمر لعظيم وإن الخطب لجسيم ولا أرى مع ذلك أمناً ولا قراراً ولا راحة، فاتق الله الذى يراك حين تقوم وأقصر أملك عليه، فالمحروم من أمله غير محروم وما أنا وأنتم أيها النفر إلا كما قال حبيب العجمى وقد قال له قائل: ليتنا لم نُخلق. فقال: إذا وقعتم فاحتالوا».

أيام أخرى حملت مواجهة بين ابن تيمية وقازان ملك التتار الذى دحره المصريون فى عين جالوت لكنه فى عام ٦٩٩هـ تأهب لاحتلال الأراضى الشامية تمهيداً للعودة إلى مهاجمة مصر، جمع الجنود وسار كالسيل لايذر شيئاً أتى عليه إلا دمره، وفزع الناس حتى سلم بعض أهل الشام مرغمين. كان قازان التترى يتظاهر بالإسلام فصحب معه المؤذن والقاضى والإمام.. فتحت دمشق أبوابها للقائه فعز على ابن تيمية أن يرى هذا الطاغية يعبث بأرض الإسلام.. ووقف له حيث مال قازان إلى المداهنة وبدأ بتقديم الطعام إلى وفد أتاه فأكلوا وامتنع الشيخ ابن تيمية، فسأله السلطان:

قازان: لماذا لا تأكل أيها الشيخ؟!

ابن تيميه: كيف أكل من طعامكم وقد طهيتموه من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ولا ملك لأحد منكم فيه؟!

قازان: ولكنى مسلم أيها الشيخ!!

ابن تيميه: لقد سلطت ملك الكرج الصليبى على المسلمين ودفعت له بالسلاح والجند ليقاتل بنى الإسلام، فأين كان دينك حينذاك؟!

قازان: أنا مسلم ومعى مؤذن وقاض وإمام.

ابن تيميه: وماذا تفعل بإسلامك وقد كان أبوك وجدك كافرين ولم يفعلا مافعلت، لقد عاهدا فوفيا وأنت عاهدت فغدرت.

لم يجد قازان بدأ من التوقف عن الكلام وطلب من ابن تيميه أن يدعو له.

ابن تيميه: «اللهم إن كان عبدك هذا إنما يقاتل لتكون كلمتك هى العليا وليكون الدين كله لك فانصره وأيده وملكه العباد والبلاد، وإن كان قام رياء وسمعة طلباً للدنيا ولتكون كلمته هى العليا وليذل الإسلام وأهله فاخذله ودمره واقطع دابره».

خرج ابن تيميه يقول له أصحابه: كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك، والله لا نصحبك بعد هذا.

قد يكون كلامهم فيه شيء من الصحة.. فهو كاد أن يهلكهم، لكن مرحباً بهلاك مثل هذا تقف فيه كلمة الله تهدم حصون من اعتصموا بالباطل والزور والزيف.. وكذبوا على أنفسهم قبل أن يكذبوا على الله.

أسماء كثيرة بعد ذلك تتوالى وتتعاقب.. يقف علماء الأزهر فى مقدمة الصفوف يواجهون السلطان ويسمعونه ما لا يحب ولا يرغب..

● فهذا الشيخ سليمان المنصورى من علماء الأزهر.. أرسل السلطان العثمانى سنة ١١٤٨ أمراً خاصاً بإلغاء بعض الأوقاف الخيرية مطالباً بوجوب نقلها إلى دائرة الوالى ليضيفها إلى مايرسل إلى الآستانة من الأموال، وانعقد مجلس الديوان فقرأ القاضى العثمانى منشور الخلافة، ثم قال:

ـ أمر السلطان لايخالف وتجب طاعته بنص الشرع الشريف.

لحظتها وقف الشيخ سليمان ليقول:

ـ ياشيخ الإسلام هذه المرتبات كانت من فعل نائب السلطان وفعل النائب كفعل السلطان، وهذا شيء جرت به العادة في مدة الملوك المتقدمين وتداوله الناس ورتبوه على خيرات ومساجد وأسبلة فلا يجوز إبطال ذلك وإن بطل بطلت الخيرات وتعطلت الشعائر المرصود لها ذلك، فلا يجوز لأحد أن يبطله وإن أمر ولى الأمر بإبطاله لايسلم له ويخالف أمره لأن ذلك مخالفة للشرع ولا يسلم الإمام في فعل يخالف الشرع الكريم.

● الشيخ العروسي مثل آخر، فقد اجتمع مجلس الديوان ليقر مايطلبه الوالي العثماني من اقتراح الاستعانة بجنود من الترك يحاربون المماليك من الصعيد فصاح الشيخ العروسي منكراً ما يأخذه هؤلاء الأغراب من الأموال حين يقدمون.

فكظم الباشا المتحدث غيظه وقال هذا رأى السلطان، وأخذ يقرأ في منشور باللغة التركية.. صرخ فيه الشيخ العروسي وقال:

ـ أخبرونا عن حاصل الكلام فإننا لانعرف التركية.

وعندما يعلم مضمون الكلام عن طريق المترجم بأن الدولة التركية تريد أن تستنزف أموال المصريين مدعية أنها تتهيأ بها لحرب المماليك فيتهكم العروسي غير عابيء ويقول:

ـ إننى لا أعبأ لأن يكون الحاكم من العثمانيين أو من المماليك إنما أبحث عن مصالح الناس وأموال المسلمين.

ويصرخ العروسي في الناس قائلاً: «اخرجوا إليهم للحرب ساعة فإنا تَغلبوا أو تُغلبوا وسنستريح من الجميع»!!

كثرة الأسماء ترغمنا على أن نردد ونكرر ونقول أن الأسماء مازالت كثيرة.. وهاهو العصر الحديث يظلنا بظلاله ومساحات قيظه لنقابل فيه الشيخ عبدالرحمن الجبرتي المؤرخ الأزهري الذي يقف لمحمد على مؤسس مصر الحديثة ويكتب عنه بما يجعل الجميع يختلفون كيف مات، فمن قائل يقول أن الجبرتي حُكم عليه بالإعدام ونفذ فيه الحكم عن طريق الاغتيال في طريق موحش بهيم بتحريض من محمد على وتنفيذ من سليمان أغا

السلحدار، وهناك من قال أن الاغتيال وجه إلى خليل الجبرتى ابن المؤرخ ففجع الرجل فى ولده وكف بصره حتى لحق بولده بعد أيام.

المهم أن الرجل مات ووقفت يد السلطان خلفه لأنه قال له فى وجهه كلمة كره السلطان أن يسمعها.

ومن المواقف الطريفة التى جمعت رجل السُلطة بعالم الدين ماحدث بين الشيخ حسن الطويل العالم الأزهرى ورياض باشا.. فقد دخل رياض باشا على الشيخ الطويل وهو يدرس لطلابه بدار العلوم فما غير الرجل موقفه أو بدل جلسته، وحين هم الزائر بالخروج قال له الأستاذ: «لماذا لا أكون وزيراً معكم ياباشا؟».. فدهش الزائر وقال: أية وزارة تريد؟! فقال: وزارة المالية لأستبيح من أموالها ما تستبيحون».

الشيخ الطويل نفسه طلبوا منه أن يرتدى ملابس خاصة ليقابل بها الخديو توفيق، وحان الموعد المرتقب فجاء بملابسه المعتادة ومعه منديل يضم الملابس الرسمية فقدمها للخديو قائلاً فى بساطة متناهية: «إن كنت تريد الجبة والقفطان فهاهما إذن، وإن كنت تريد حسن الطويل فهأنذا حسن الطويل». ثم قال الشيخ لجلسائه: «كيف أتجمل لتوفيق بلباس لا أتجمل به لربى فى الصلاة؟!».

●●●

طال بنا الطواف، خرجنا من مئات الصفحات لندخل إلى مئات الصفحات.. كلمات كثيرة استوقفتنا.. مواقف أكثر رسمت ملامح الصورة التى تجمع بين رجل السُلطة ورجل الدين، أو على الأقل الملامح التى يجب أن تكون عليها الصورة.. عكس ذلك كله مافى عقول رجال السُلطة من تصور.. تصور واحد لايرضون عنه بديلاً.. يجب أن يقولوا فيسمعوا كلمة الطاعة.. وإذا رغب رجل الدين أن ينام فهاهو فراشهم فيه متسع لكل ضيف جديد.. تصور رجل الدين مختلف تماماً.. ولهذا وقع الصدام.. ولأن الصورة مازالت ناقصة.. فكان لابد أن نتحدث عن مقصدنا الأساسى من كل هذه الكلمات.. فإلى العصر الحديث نمضى ومع شيخنا الجليل الشيخ الشعراوى تعالوا نقف بعض اللحظات..

●●●

فى عام ١٩٨٩ احتدت المواجهة بين الحكومة وبين الجماعات الإرهابية التى خرجت لتعيث فى الأرض فساداً، بذلت الدولة قصارى جهدها للقضاء على هذه الجماعات وتقويض أعمالها التخريبية التى كانت تقصد بالدرجة الأولى زعزعة أمن واستقرار هذا الوطن بهدف الاستيلاء على الحكم.. هذه كانت الصورة التى رسمتها الحكومة ووجد الناس أنها تقترب من المنطق، فصدقوا ذلك وكونوا رأياً عاماً مضاداً لهذه الحركات واكتسبت الحكومة تعاطف الناس خاصة ورجال الشرطة يتساقطون يوماً بعد يوم برصاص الإرهاب الغادر، والذى عزز هذا الموقف العام أن رصاصات الإرهاب التى كانت تقصد رجالات الدولة كانت تطيح فى طريقها بالأبرياء من أبناء الشعب من الأطفال والنساء..

لكن على مايبدو وقتها أن الحكومة لم تصل إلى أهدافها كاملة ففكرت أن تستعين بهم.. نعم هم.. علماء الدين، وجمعت ساحة الجامع الأزهر ثلاثة من كبار العلماء الشيخ محمد الغزالى والشيخ محمد الطيب النجار والشيخ الشعراوى.

تحدث الشيخ الغزالى وقذف هؤلاء المخربين أنهم لايعرفون الفرق بين الفرض والنافلة ثم يسارعون بالإفتاء فى الحلال والحرام.

وأضاف الشيخ النجار أن ذلك جديد على الإسلام، فالإسلام ليس دين العنف ولكنه دين التسامح والعفو.

أما الشيخ الشعراوى فكان له شأن آخر.. فدور الشيخ كان أن يلقى بيان الأزهر الذى يدين هذه الجماعات.. لكن قبل البيان ألقى الشيخ كلمة قدم بها بيانه، من أهم ماجاء فيها كلمات كانت غريبة عن سياق الموقف والكلام.. الكلمات كانت:

- «واعلموا جيداً أنى - وأخى هذا - لسنا من رجال السُلطة فأنا الوحيد فى مصر الذى رد قرارات جمهورية ولم يستمع لها فى تاريخها كله ملكية كانت أم جمهورية فلا يستطيع أحد أن يتهمنا أبداً بأننا علماء سُلطة..».

الشيخ قال ذلك فى غمرة انفعال وحدة كلمات وغزارة دموع.. والسؤال الذى منه نبدأ أو إليه ننتهى.. ما الذى دفع الشيخ لأن يقول كلمته تلك؟! قال أنه ليس رجل سُلطة، ثم عزز

ذلك بقرائن منها أنه الوحيد الذى رد قرارات جمهورية ولم يستمع لها فى العهد الملكى أو العهد الجمهورى، ونحن نعرف أن الشيخ رد قرارين فى العهد الجمهورى:

الأول: قرار تعيينه عضواً مؤسساً بجامعة الشعوب الإسلامية والعربية.

والثانى: قرار باختياره عضواً بمجلس الشورى فى بدء إنشائه

هذا فى العهد الجمهورى، لكن ماهى القرارات التى ردها فى العهد الملكى؟ لا أحد يعرفها، ولا الشيخ يتحدث عنها وكأن الحديث عنها عورة!! لا يصح الحديث عنها.

اعتمد الشيخ أيضاً على التحدى ودفع الرد قبل أن يسمع السؤال أو الاتهام عندما قال: «لايستطيع أحد أن يتهمنا أبداً بأننا علماء سُلطة..»، هو الشيخ وحده يجرنا إلى إدخاله الساحة الواسعة التى يقف فيها رجل الدين مع رجل السُّلطة يدفع بعضهما بعضاً..

والشيخ بدفعنا إلى هذه الساحة يجعلنا نناقش تلك العلاقة من خلاله نتحدث معه وعنه..

فقد مرت فى حياة الشيخ الشعراوى ظلال كثيرة لكثير من السلاطين والملوك والرؤساء ورجال السياسة..

● فالشيخ أثناء دراسته وقف على محطة القطار فى بنها لكى يحيى الملك فؤاد بقصيدة عصماء، وكان الشيخ يقف بين زملائه الطلبة.. تكرر الموقف نفسه عندما اصطف مع بقية زملائه مرة أخرى ليحيى الملك فاروق وهو على رصيف محطة القطار فى الإسكندرية.. وفى المرتين قال الشيخ شعراً مجّد فيه الملكين.. وكان الشعر من نظمه وليس لأحد آخر..

ليس من العقل بالطبع أن نسارع فنقول أن الشيخ من لحظتها وقر فى نفسه أن يكون رجلاً للسلطان يمدحه.. يستقبله بالأشعار.. ويودعه بالأغانى، لكن ماحدث - وحق الكلمات يعطينا ذلك - أن الشيخ دخلت منظومته الفكرية أن الحاكم يجب أن يعامله الناس بشكل معين يسلمون عليه بأدب ويتحدثون معه بشىء من الوقار.. ويقفون أمامه بكثير من الاحترام.

● شغل النحاس مساحة كبيرة للغاية من اهتمام وفكر الشعراوى، فالشعراوى وهو رجل الدين كان يقبل يد النحاس وهو رجل السياسة، وكان يعتقد فى قدراته الروحية وأنه رجل من أهل الله، كان يدافع عن الرجل مهما فعل ويلتمس له الأعذار بل أكثر من ذلك كان يفلسف له المبررات.. بل نظم الشعر أيضاً فى استقباله، فقد أشاعوا - والحديث للشيخ الشعراوى - **«أن النحاس باشا فى الإسكندرية وانطلقت شائعة تقول أنه مات، وعندما عوفى من المرض ونهض قال الوفديون أنهم لابد أن يحتفلوا به عند وصوله إلى القاهرة وأن يقيموا له المهرجانات وأن يستقبلوه استقبالاً حاشداً عند دخوله إلى مجلس الوزراء.. وجاءنى فؤاد سراج الدين باشا وكان وقتها وزيراً للداخلية وقال لى: ياشعراوى نريد أن تكون فى استقبال النحاس باشا عند دخوله إلى مجلس الوزراء وتلقى كلمة.. واتفقنا على الترتيبات التى سنقوم بها وهى أن أقف فى الفراندة المواجهة لمدخل مجلس الوزراء فى انتظار النحاس، وفعلاً وقفت فى الفراندة وجاء النحاس باشا ونزل من السيارة ووجدنى أمامه وقلت ماجاء على لسانى لحظتها:**

بسم الله نحرس هذا الرجاء والحمد لله على نعمة هذا الشفاء

والله أكبر لطف حين قدر وأزاح الغمام عن البدر فاسفر

فباسم الله والحمد لله والله أكبر»

● أما عن جمال عبدالناصر، فحكاية الشيخ معه يشكلها الغموض ويأكل على أطرافها كثير من الشك فيما يقوله الشيخ عنها.. فالشيخ يعلن موقفه الغاضب من عبدالناصر وذلك لأسباب كثيرة..

كان السبب الأول هو انحراف الثورة عن طريقها، فقد كان الشيخ يظن أن الثورة بعد أن تستقر أمورها سيرفعون النحاس باشا إلى الحكم، لكنهم لم يفعلوا ذلك وآثروا أنفسهم وهم من هم بدون خبرة، وأبعدوا الرجال الكبار.. غضب الشيخ عليهم، ويقال أنه وزملاءه فى السعودية قرأوا الفاتحة عند الكعبة ودعوا بأن تنتهى الثورة.. والشيخ الشعراوى لم ينكر هذه الحادثة، ولما ذكرت أمامه ظل يحكى عن تحقيق النيابة معه أربعين يوماً وخروجه بعد أن رأى وكيل النيابة صورته مع عبدالناصر عندما كان عبدالناصر فى السعودية..

السبب الثانى هو كفر النظام الثورى وارتماؤه فى أحضان الشيوعية كما كان يقول الشيخ الشعراوى، وكما أثبت ذلك فى اعترافه بأنه سجد ركعتين لله شكراً وحمداً على هزيمة يونيو التى جاءت على أيدى الشيوعيين.

غضب الشيخ الشعراوى كذلك من عبدالناصر لما أوقعه بالأزهر وما أحدثه فيه، لدرجة أن الأزهر يعجز عن القيام بدوره، وذلك بفضل قانون إصلاح الأزهر الذى أصدره عبدالناصر عام ١٩٦١.. وقد يكون هذا الموقف الغاضب من مواقف الشيخ العملاقة، لكن كل كرامة تضيع لهذا الموقف عندما نعرف أن الشيخ الشعراوى لم يعلن أياً من مواقفه هذه أيام عبدالناصر.. لا نطق ولا استطاع أن يواجه.. والمرة التى قبضوا عليه فيها مع إخوانه المشايخ بعد عودته من السعودية ووجهت لهم تهمة معاداة الثورة التى لايرضون عنها استشفع بصورة له مع عبدالناصر.. حتى يخرج.. وخرج!!

● يأتى السادات لتبدأ القصة الكاملة التى نعيشها هنا على صفحات هذا الكتاب.. وقبل أن ننتقل إلى زوايا الصورة وملامحها نثبت فقط أن فى قصة السادات مع الشيخ الشعراوى يتأكد لنا أن الحاكم حتى لو كان يحمل صفة «الرئيس المؤمن» لاتصلح معه النيات الحسنة ولا طيبة الرجال.

● عندما مات الرئيس السادات دخلت مصر مرحلة الهدوء فى كل شىء، ورغم أن الهدوء مطلوب.. لكنه هدوء قتل كثيراً من روح الإبداع والإضافة، فترة هى بلا حركة.. فالسلام لايصنع تاريخاً.. الحرب وحدها هى التى تشكل تاريخ الأمم.. ليس ذلك نقداً للفترة بقدر ماهو تقييم وتوصيف لها.. الفترة التى تلت حكم الرئيس السادات والتى تحضرنا إلى الآن أعطت الشيخ الشعراوى فرصة كبيرة من الناحية الإعلامية تليفزيون وراديو وصحف وشرائط فيديو وشرائط كاسيت.. فى تلك الفترة أصبح الشيخ الشعراوى هو السيد بلا منازع فى أمر الدعوة.. فهو إمام العصر بلا منازع على حد تعبير أحد تلاميذ الشيخ.. كلمته مرفوعة وليس مرفوعاً عليها.. يقول فيسمع الناس.. ويفتى فيقول الناس قال الشيخ الشعراوى.. فى تلك الفترة خرجت الكتب التى يتحدث فيها الشعراوى عن كل شىء، ومنها السياسة.. وقتها أعلن الشيخ الشعراوى رأيه فيما سبق من أحداث ورجال، وصال وجال يقيِّم التجارب السابقة ويعطى لكل رجل درجة.. يقول رأيه المعارض ومواقفه الحازمة.. لكنها مواقف بأثر رجعى.. صنعت كلمات الشيخ الشعراوى منه بطلاً

تصدى للجميع.. أقحم نفسه فى كل الأحداث والمعارك ووضع نفسه أمام جميع الملوك والزعماء.. بعد ذلك يقول أنه ليس رجل سلطان.. لانهدف من البحث فى حياة الشيخ أن نثبت أنه كان رجل سلطان، فذلك لايفيدنا فى شيء.. نهدف فقط إلى وضع النقاط فوق الحروف من خلال حياة رجل فى قامة الشيخ الشعراوى تصادف وجوده فى حياة رئيس كانت حياته صاخبة قلقة، وهو الرئيس السادات، يمكن بعدها أن نتعرف على ملامح الصورة، نرسمها بشكل جديد ينظر إليها من بقى ليعرف من خلالها.. هل هو رجل سُلطة برتبة رجل دين.. أم أنه رجل دين ينصح فقط رجل السُلطة بالحق؟.. ذلك وحده هو المطلوب من رجل الدين، فقد سئل الإمام مالك:

ـ لماذا تدخل على السلاطين وهم يجورون ويظلمون؟

فقال الإمام مالك:

ـ رحمك الله وأين التكلم بالحق؟!

لقطة أخرى شديدة التأثير والعمق أدخلنا الشيخ الشعراوى فيها، حيث قال ذات مرة أنه أثناء وجوده فى السعودية كان يقوم بدور المتحدث الرسمى.. وكان بمثابة لسان حال المصريين.. ولسان الحال هذا كان يقوم بالاستقبال الرسمى للضيوف المصريين الذين كانوا يحلون على السعودية، استقبل الرئيس عبدالناصر فى بداية الثورة، واستقبل كذلك عبدالحكيم عامر.. وآخرون لقوا الترحيب من كلمات الشيخ وأمنياته. هذا الدور يضيف إلى قناعات الشيخ الفكرية قناعة جديدة.. ربما تكون قناعة غير أصيلة لكنها على أية حال تحفر فى تكوينه نفقاً.. يقول أن الشيخ كان يستقبل البعض وفى نفسه شيء منهم، لكنه كان يضمر ذلك ويظهر كلمات الود والترحيب.. فالمتحدث الرسمى لايستطيع أن يخرج عن الخط المرسوم له..

حدث ذلك عندما ذهب عبد الناصر إلى السعودية حيث رفض الشيخ الشعراوى أن يستقبله لكن بعد نصيحة من أحد أصدقائه استقبله.. لكن نعصف بحقوق الشيخ الشعراوى ونقول أنه.. وأنه.. فالرجل قال أنه ليس رجل سُلطة.. ونحن نعلق كلماته.. ونمضى فى رحلة معه..

قد تكون الرحلة مضنية لكن هكذا البحث عن الحقيقة.. وما أعظم أن نبحث عن الحقيقة.. والحقيقة وحدها..

٢

ملامح حياة

الشعراوى والسادات

«لابد أن الرئيس السادات فكر كثيراً وأعاد التفكير أكثر من مرة عندما رغب فى إعادة العلاقات مع السعودية.. مرت أمام رأسه صور السياسيين والدبلوماسيين.. لكن السادات زهد فى ذلك كله وأقبلت صورة الشيخ الشعراوى أمامه ووقفت لا تريد أن تبرح مكانها.. وجد الرئيس السادات ساعتها أن خير من يقوم بالمهمة هو ذلك الشيخ.. وقد كان».

«أنا كنت أحب السادات لجرأته وأعماله الكبيرة التى لم يكن غيره يستطيع القيام بها».

جملة عادية للغاية عبر بها الشيخ الشعراوى عن سبب حبه للرئيس السادات وعلة قربه منه.. صحيح أن الشيخ الشعراوى قال هذه الكلمات بعد موت السادات بأكثر من خمسة عشر عاماً.. لكنها جاءت لترسم كيف كانت العلاقة بين الرجلين.. تلك العلاقة التى بدأت عادية للغاية.. وفى نهايتها تحولت لعلاقة بين رجل سُلطة يختار رجل دين ليشغل منصباً فى دولته.

والعلاقة نُسجت كالتالى:

يقول الشيخ الشعراوى: **«التقيت بأنور السادات لأول مرة وهو فى الظل، كان وقتها نائباً للرئيس عبدالناصر، والسادات كما نعرف مرت عليه عهود مرة يكون فيها فى الشمس المتوهجة ومرة يكون فى الظل الظليل، وأنا عرفته وهو فى الظل الظليل، قابلته فى بيت صديقه وصديقى الدكتور محمود جامع أطال الله حياته، والدكتور جامع طبيب أمراض جلدية وكان عضواً لامعاً من الإخوان المسلمين، وربما كان هذا هو السبب فى الالتقاء الأول بين الدكتور جامع وأنور السادات.. ومحمود جامع يتميز بأنه إنسان وفى جداً لمعارفه وأصدقائه، وعندما كان السادات فى أشد أزماته مع الحكم كان هو قريباً من السادات، وكان حضور السادات لزيارة الدكتور جامع يعنى أنه قد أصبح فى الظل أى خارج دائرة الحكم والسُلطة والجاه والأضواء. كان السادات فى زيارة للدكتور جامع وكان معه وجيه أباظة صديق الدكتور جامع وكنا نلتقى نحن الثلاثة أحياناً فى زيارة الدكتور جامع..**

كان أولاد الدكتور جامع وهم صغار يضحكون ويلعبون حول السادات

ويركبون على كتفه وكان الولد خالد يشير بإصبعه إلى زبيبة الصلاة فى جبهة السادات ويساله: إيه دى؟..

وكان السادات يضحك.. وكنا نضحك أيضاً على لعب العيال..!! لم يكن السادات يتحدث كثيراً عندما رأيته أول مرة فى بيت الدكتور جامع.. كان يستمع فقط. ولا أذكر أننى التقيت به بعد ذلك إلى أن أصبح رئيساً للجمهورية، وحتى بعد أن أصبح رئيساً للجمهورية لم أكن ألتقى به..».

الكلمات فيها كثير من الود، فالشيخ الشعراوى يتحدث عن السادات كأنه يتحدث عن صديق. سيناريو اللقاء الأول بين الرجلين يقول ذلك بالفعل، فهذا اللقاء الرباعى الذى جمع بين الدكتور جامع والشيخ الشعراوى ووجيه أباظة والرئيس السادات كان لقاءً عائلياً.. أحاديثه أحاديث خاصة يتخللها عادة كثير من الهزل والسخرية من الأوضاع الحياتية التى يعيشون فيها.. أحاديث لم تكن تغلب عليها السياسة بدليل أن الشيخ الشعراوى أدخل أبناء الدكتور جامع إلى سيناريو أحداث جلساتهم بما فى ذلك من ضحكات بريئة تعلو تعليقاً على زبيبة السادات الشهيرة التى كانت سبباً فى خروج العديد من النكت، حيث قالوا أنها كانت من ديكور السادات الشخصى، فالعباءة والمسبحة وزبيبة الصلاة كانت من بين أدواته!! يقول أحدهم أن السادات خرج مرة للقاء الجماهير لكنه عاد مسرعاً إلى البيت يقول لجيهان: نسيت الزبيبة.. هى فين؟!.. والسخرية مفهومة بالطبع، ويبدو أن زبيبة الصلاة كانت محل سؤال حتى من الأطفال..!!

كان هذا هو اللقاء الأول بين الرئيس السادات والشيخ الشعراوى، تحدث الشيخ من خلاله عن سمات السادات وما لاحظه عليه.. فالسادات رجل لعب دوراً فى تاريخ مصر، لكنه كان كموج البحر مرة يعلو ومرة يهبط، مرة يسطع كمثل الشمس المتوهجة ومرة يكون فى الظل، وهو حديث يصور السادات رجلاً مسلوب الإرادة أو دمية يضعها عبدالناصر حيث شاء وأينما أراد.. ويرفعه كذلك من أى مكان شاء ويضعه حيثما أراد.. قد يقصد الشيخ الشعراوى أن السادات رجل أقدار لكنه فى النهاية قابله وهو فى الظل وليس الظل فقط ولكن الظل الظليل..!!

شىء آخر أكد عليه الشيخ الشعراوى هو أن السادات كان يستمع كثيراً ولايتحدث بل

ينصت للآخرين وهى سمة يزين بها الشيخ الشعراوى شخصية السادات، فالشخصيات التى تسمع أكثر مما تتكلم عادة شخصيات عميقة تلعب دوراً هاماً فى تاريخ أمتها.. هذا ما اختزنته كلمات الشيخ ولا نبالغ فى ذلك على الإطلاق، فالأحداث وشت بذلك وبأكثر منه.

كما قال الشيخ الشعراوى فهو لم يلتق مطلقاً بالرئيس السادات بعد هذا اللقاء حتى أصبح رئيساً للجمهورية ولم يلتق به بعد توليه منصبه إلى أن أصبح وزيراً، لكن الشيخ الشعراوى كُلف بمهمة فى أول عهد السادات.. وقبل الحديث عنها نسمع الشيخ الشعراوى وهو يتحدث عن هذه المهمة، قال: «**كانت العلاقات مقطوعة بين مصر والسعودية بسبب الخلاف الذى كان قائماً بين عبدالناصر والسعودية، وكانت البعثة التعليمية الأزهرية التى تعمل فى السعودية والتى كنت أتولى رئاستها قد سُحبت عند الخلاف وقطع العلاقات.. ومع تولى السادات للرئاسة أراد أن يعمل على تنقية الأجواء مع السعودية وإزالة الجفوة بين البلدين الشقيقين تمهيداً لإعادة العلاقات الطبيعية بينهما..**

ويسأل السادات: فين الشعراوى؟

فقالوا له: فى الجزائر.. إنه يتولى رئاسة البعثة الأزهرية التى ذهبت إلى هناك للقيام بمهمة التعريب الذى اتجهت إليه الجزائر بعد الاستقلال ليعود لها لسانها العربى الذى توارى فى ظل الاستعمار الفرنسى حتى أصبحت الفرنسية هى لغة الكلام..

فقال السادات: هاتوه.. هاتوا الشعراوى من الجزائر وقولوا له يطلع على السعودية ويمهد لعودة البعثة التعليمية الأزهرية كخطوة أولى فى تنقية الأجواء وإزالة الجفوة وإعادة العلاقات بين البلدين الشقيقين..».

ذهب الشيخ الشعراوى إلى السعودية على رأس البعثة التعليمية، وبفضل جهوده عادت العلاقات بين مصر والسعودية.. لايشغلنا هنا سبب الخلاف الذى دب بين مصر والسعودية، ولكن تشغلنا بداية تفكير السادات فيمن يكون واسطة الخير بين البلدين.

والسؤال: لماذا فكر السادات فى الشيخ الشعراوى بالذات..؟

فالسادات كان يعرف الشيخ الشعراوى جيداً وإن كان لقاء واحد فقط هو الذى جمع بينهما ويعلم عنه الكثير من القدرات التى يمكن من خلالها أن يعتمد على الرجل.

لابد أن الرئيس السادات فكر كثيراً وأعاد التفكير أكثر من مرة عندما رغب فى إعادة العلاقات مع السعودية مرت أمام رأسه صور السياسيين والدبلوماسيين والذين من مهمتهم التفاوض والصلح وإعادة العلاقات.. هذا عملهم.. بل صميم عملهم.. لكن السادات زهد فى ذلك كله وأقبلت صورة الشيخ الشعراوى أمامه ووقفت لاتريد أن تبرح مكانها.. وجد الرئيس السادات ساعتها أن خير من يقوم بالمهمة هو ذلك الشيخ.. وقد كان.

وتلك كانت نقطة البداية.. فالسادات لم يفكر فى الشيخ الشعراوى تاركاً كل من حوله إلا لأنه يعلم مدى تأثير الدين وأثره الذى يمكن أن يحدثه فى العلاقات مع دولة مثل السعودية

وكان هذا هو أول استغلال للدين ممثلاً فى شخص الشيخ الشعراوى من قبل الرئيس السادات.. لم تكن ذاكرة الرئيس السادات تحمل للشيخ الشعراوى سوى لقاء واحد ولكن على مايبدو أن هذا اللقاء كان يكفى.

على الضفة الأخرى كان يقف الشيخ الشعراوى.. تفكيره كان مختلفاً تمام الاختلاف، فالرجل كان يقوم فى الجزائر بمهمة وطنية إسلامية يخدم بها دينه حيث يعيد للغة العربية مكانتها فى بلد سحب عليه الاستعمار غطاء الفرنسة وحاول أن يحكمه.. وبينما هو منغمس فى تلك المهمة إذ تأتيه الأخبار بأنه كُلف بمهمة أخرى لاتقل أهمية عن مهمته التى يقوم بها فى الجزائر.

فالمهمة فى السعودية كانت التقريب بين الإخوة وعقد الصلح الذى يحرص عليه ويعزز من مكانة الدين الذى يمثله الشيخ الشعراوى..

فيم كان يفكر الرئيس السادات ساعتها..؟

هذا ما لم يهتم به الشيخ الشعراوى ولم يحرص على معرفته.. فقط اهتم بأن هذه مهمة يخدم بها دينه وإسلامه.. وعندما وطئت أقدام الشيخ الشعراوى أرض السعودية كانت الأقدار بذلك تخط السطر الأول فى الصفحة الأولى من الكتاب الكبير الذى عنوانه «الشعراوى والسادات»..

لم يلتق الشيخ الشعراوى بالسادات وجهاً لوجه خلال تلك الفترة، لكن عندما جاءت الوزارة تطلب يد الشيخ.. قابل الشيخ الشعراوى السادات وذلك عندما كان يحلف اليمين الدستورية.

يقول الشيخ: **«جاءنى سائق ممدوح سالم بسيارته وأخذنى للقصر وحلفت اليمين.. كانت اليمين مكتوبة فى ورقة وأقسمت بما كتب فيها ثم أضفت كلمة فى نهاية القسم من عندى وهى (إن شاء الله)، وقد قلتها وأنا أطوى الورقة فى جيبى، فضحك السادات وأدركت أنه سعد بسماع هذه الكلمة عملاً بالآية الكريمة: ﴿ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾، لكنهم حذفوا كلمة (إن شاء الله) فى الإذاعة وفى التليفزيون».**

وهذا سطر آخر يضاف إلى سطور كتابهما معاً..

لانحمل الكلمات فوق طاقتها.. ولا نطلب من الكلمات أن تعطينا أكثر من معانيها، فالشيخ الشعراوى أضاف كلمة «إن شاء الله» إلى اليمين الدستورية بعقلية رجل الدين الذى يقدم المشيئة دائماً لا عن عادة اعتادها ولكن نزولاً على معنى قرآنى جليل حملته آية عظيمة، فلا شىء يتم إلا بمشيئة الله وعليه فيجب تقديم المشيئة.

ضحك السادات ساعتها على كلمة الشيخ الشعراوى تلك، ويرجع الشيخ ذلك إلى أنه ربما ضحك سعادة من ذكاء الشيخ.. لكن ـ والله أعلم ـ فالشيخ فهم المسألة خطأ، فالسادات ضحك بمنطق رجل السُلطة الذى دانت له السُلطة وله أن يفعل مايريد، لايقدم المشيئة مادام فى ظنه أن مشيئته وحده هى التى تُسيِّر الأمور فى إطار دولته، يؤكد هذا الكلام أن الشيخ كان يحلف اليمين فى ١٩٧٦ وكان وقتها السادات بدأ يكتسب شرعية حكمه من بطولته هو وليس من زعامة عبدالناصر، هذا إذن صدام خفى وقع فى أول يوم فى وزارة الشيخ الشعراوى فى حكم السادات لم يلتفت إليه أحد.. لكن نحن هنا نرصد فقط.

توالت لقاءات الشيخ بالسادات بحكم كونه وزيراً فى عهده.. زادت المناقشات والرسائل والكلمات المتبادلة.

من بين تلك اللقاءات.. لقاء الشيخ بالرئيس فى ميت أبو الكوم، يقول الشيخ عنه:

«التقيت بالسادات فى ميت أبو الكوم مرة أو مرتين وأنا وزير والسادات كان رئيس دولة، وكان رجلاً ثورياً كل هذا صحيح ولكنه كان يعطينى الانطباع وهو فى ميت أبو الكوم بأنه كان يتمنى فى نفسه أن يكون من أعيان الريف الكبار، فهو يرتدى ملابس الريف ويتكلم لغة الريف وله طبيعة أهل الريف عندما يتحدث مع الأهالى، وكل هذه الأمور تعطى له شخصية أخرى..».

يدخلنا هذا اللقاء بين الرجلين إلى كتابة صفحة جديدة للغاية نزاوج فيها بين الشيخ الشعراوى والسادات.. يقف فيها الشيخ الشعراوى أمام مرآة السادات لنرى قربهما الداخلى ومدى تشابه الملامح الداخلية بينهما، فربما نخرج بشىء. ربما..

■ ملمح (١):

سبع سنوات وبضعة شهور فصلت الصرختين.. فقد علت صرخة الشيخ الشعراوى تستقبل الحياة فى ١٥ أبريل ١٩١١، ثم مرة ثانية علت صرخة الرئيس السادات تستقبل الحياة فى ٢٥ ديسمبر ١٩١٨.. أيهما كانت صرخته أعلى وأقوى . لايعنينا ذلك فى شىء. فحتى لو عرفنا أن صرخة أحدهما كانت أعلى من الآخر فإن ذلك لن يضع أيدينا على أية دلالة تربط بينهما.. وهذا الفاصل الزمنى (٧سنوات) بينهما لم يترك أثراً يذكر فى حياة الكبير (الشعراوى) على حساب الصغير (السادات)، لكن الملمح الذى يجمع بين الرجلين فى مسألة المولد والطفولة هو القرية التى ولد بها كل منهما.. السادات فى ميت أبو الكوم.. والشيخ الشعراوى فى دقادوس.

لعبت القرية فى تكوين كل منهما دوراً كبيراً حيث ارتبطا بها بصورة كبيرة، يقول السادات فى كتابه «البحث عن الذات»: **«كل شىء فى القرية كان فى الحقيقة مصدر سعادة لى لاتماثلها سعادة أخرى عندما تخرج لتشترى الجزر لا من بائع الجزر بل من الأرض نفسها، عندما أضع بصلة فى محمى الفرن وهم يخبزون العيش ثم أعود آخر النهار فأخرج البصلة وآكلها، وحينما كنت ألعب مع أقرانى فى ليالى القرية أو نسهر على المصطبة نحن والطبيعة من حولنا والسماء فوقنا لافاصل بيننا، وشروق الشمس عندما كنت أسير مع عشرات الصبية والفتية والرجال أصحب الدواب والبهائم فى موكب خروج الفلاحين للعمل وسط**

خضرة لايحدها البصر، وبسطة الأرض التى تبدو كأن لا أرض بعدها.. كل شىء كان يسعدنى فى ميت أبو الكوم قريتى الوادعة القابعة فى أحضان دلتا النيل..».

الشىء نفسه حدث ولعبت القرية دوراً كبيراً فى حياة الشيخ الشعراوى، فالرجل ارتبط بها ارتباطاً مادياً.. رغب به ألا يبرح المكان وألا يغادر دقادوس، يقول عنها: **«دقادوس التى لم أكن أطيق البعاد عنها هى القرية التى فيها ولدت وعشت طفولتى وصباى وشطراً من شبابى، ولم أكن أريد أن أبتعد عن بلدتى الصغيرة، عن دقادوس الجميلة، عن الأرض التى أحببتها.. المزارع والحقول، عن حدائق الليمون والعنب، عن النيل والرياح والجزر التى تغمرها مياه الفيضان..».**

القرية إذن ربطت بين الرجلين وتركت أثراً وعلامة داخلية فى وجدان كل منهما، فالقرية أى قرية فى مصر تحفر فى أبنائها نوعاً من الارتباط بالأرض ومعرفة قيمتها.. ولقرب أهل القرية من الزرع والقلع فإنهم يكونون أكثر اعتماداً على الله.. فالبذرة توضع فى الأرض ثم ينتظرها الفلاح بعد ذلك.. نتحدث هنا عن النقطة الأولى فى التكوين.. لكن تطور هذا الأثر ونموه على شكل آخر ليس مسئولية القرية بالطبع..

■ ملمح (٢):

فى طفولة كل من الرجلين شىء متشابه، فالشيخ الشعراوى مثلاً حرص على أن تكون فى سطور تاريخه نبوءة يشير إليها عندما يرغب فى تأكيد أنه رجل صنعته الأقدار ويذكر الناس نبوءة خال والده بأنه رأى ليلة ولد الشعراوى كتكوتاً يخطب على المنبر وأن هذا الكتكوت هو الشيخ الذى وهبوه للأزهر لتتحقق النبوءة.. لم تكن هناك نبوءة فى حياة الطفل السادات، ولكن كانت هناك إرهاصات اعتمد عليها الرجل وذكرها وأكد عليها وأعادها المرة بعد الأخرى.. يقول السادات فى كتابه «البحث عن الذات» صفحة ١٣: **«وهكذا أدركت من فوق سطح الفرن فى دارنا بالقرية أن هناك خطأ ما فى حياتنا وقبل أن أرى الإنجليز وأنا مازلت داخل قريتى تعلمت أن أكره المعتدين الذين قتلوا وجلدوا أهلنا»**.. هنا يتحدث الطفل السادات عن دور مجهول ادخرته له

الأيام يكشفه بكلمات لا ينطق بها طفل.. ولكنه منطق البطولة الذى كان يتحدث به الرجل دائماً حتى وهو طفل..!!

وفى صفحة ٢٢ من الكتاب يقول السادات أيضا: **«ومن بين هذه الإرهاصات التى كانت فى الحقيقة مجموعة انفعالات وتفاعلات مع الأحداث بقى لى شىء واحد هو حبى لكمال أتاتورك، فمن أتاتورك استهوتنى البدلة العسكرية، وهو لم يستطع أن يفعل شيئاً ويحقق ثورته إلا بالقوات المسلحة»**.

هذه وغيرها الكثير من الإرهاصات التى زين بها الرئيس السادات كتابه وكلماته الدائمة عن الدور التاريخى الذى جعلته الأقدار رجله وأعدته ليقوم به.. كل منهما رجل أقدار.. الأحداث قالت ذلك، ودورهما فى تاريخ مصر يؤكد ذلك، لكنهما تطوعا بكل شىء منذ البداية وتحدثا عن النبوءات والإرهاصات التى تشى بأنهما منذ البداية وعوامل الدفع تأخذهما فى طريقها لتنزلهما منزلاً يليق بهما.. نصدق ما قالاه لأنهما فعلا، ونتحفظ عليه لأنهما قالاه بعد أن فعلا وليس قبلاً..!!

■ ملمح (٣):

تجرنا الأحاديث عن الرجلين بعد النبوءات والإرهاصات إلى حديث آخر جمعهما معاً ولكن كل بطريقته.. فالسادات فى طفولته كان يسمع قصص الأبطال الشعبيين والمجاهدين فى قطار القضية الوطنية، يقول السادات عن زهران بطل دنشواى: **«لعل مما ترك أثراً عميقاً موال زهران بطل دنشواى وأنا أستمع إليه من أمى وقد اعتليت سطح الفرن الدافىء وإلى جانبى الأرانب وإخوتى الصغار وقد استغرقوا جميعاً فى النوم، أما أنا فكنت بين اليقظة والنوم.. كان هذا الموال يستهوينى كل مرة استمع إليه، فدنشواى قرية لاتبعد عن قريتنا بأكثر من خمسة كيلومترات، والموال يحكى كيف أن عساكر الإنجليز عندما شاهدوا أبراج الحمام فى دنشواى أطلقوا عليها الرصاص.. وطاشت طلقة احرقت جرناً من أجران القمح، وتجمع الفلاحون فاطلق عليهم الرصاص احد عساكر الإنجليز وجرى.. جرى الفلاحون وراءه وأمسكوا به وحصلت معركة مات فيها العسكرى الإنجليزى، وفى الحال قبضوا على الأهالى وشكلت محكمة عسكرية فى القرية وعلقت**

المشانق قبل صدور الأحكام التى قضت بجلد عدد من الفلاحين وشنق عدد آخر، وكان زهران بطل المعركة التى قامت مع الإنجليز وكان أول من حكموا بشنقه، ويحكى الموال عن شجاعة زهران وصموده فى المعركة وكيف أنه تقدم من المشنقة مرفوع الرأس فخوراً مزهواً بنفسه لأنه استطاع أن يتصدى للمعتدين وأن يقتل أحدهم».. لعبت هذه القصة وأمثالها برأس السادات وأثرت فى نفسه تأثيراً كبيراً حتى أن الرجل أطلق العنان لخياله وتمثل حياة زهران فى حياته كلها وعاش بطولته فى صحوه ومنامه، وكم تمنى أن يكون مثل زهران ولو للحظات قليلة..

عندما ننتقل إلى الشيخ الشعراوى نجد أنه فى الوقت الذى كان يستمع فيه الرئيس السادات لقصص البطولات الشعبية من فم جدته فإن الشيخ الشعراوى كان يقرأ كتاب دلائل الخيرات ويحفظ مافيه ويعيد تسميعه مرة أخرى، ولا شك أن الأثر الذى لعبته القصص الشعبية فى حياة السادات لعبه دلائل الخيرات فى حياة الشعراوى، فالرجل صوفى فى حياته، وفى آخر كتبه أسرف فى الحديث عن لقاءاته مع أهل البيت.. وذلك فى منامه بالطبع.

قد يقول البعض أن كلاً منهما كان فى طريق، فالأول يسمع حكايات شعبية والثانى يقرأ كتاباً من كتب الصوفية، ورغم أن الطريقين مختلفان لكن المنهج واحد وطريقة الحديث واحدة، فبعد النبوءات والإرهاصات يأتى دور الإعداد والصقل والقراءة أو السماع، فكل ذلك من متطلبات الدور الذى لعبه كل منهما فى حياتنا، ولا عجب فالسادات ركز على القصص الشعبية البطولية وخاصة قصة زهران لأنه أصبح رئيساً للجمهورية، والشيخ الشعراوى ركز على دلائل الخيرات وجلسات الذكر وموالد المشايخ وذلك ببساطة لأنه أصبح داعية وإماماً بل وإمام الدعاة.

■ ملمح (٤):

لعب الأب فى حياة كل من الرجلين دوراً خطيراً نشعر بوجوده وتأثيره..

يقول السادات: **«أذكر أنه فى سنة ١٩٣٢ مر غاندى بمصر فى طريقه إلى إنجلترا وامتلأت الصحف والمجلات المصرية باخباره وتاريخه وكفاحه فأخذت به واستولت صورته على وجدانى، فما كان منى إلا أن قلدته، خلعت ملابسى**

وغطيت نصفى الأسفل بإزار وصنعت مغزلاً واعتكفت فوق سطح بيتنا بالقاهرة عدة أيام إلى أن تمكن والدى من إقناعى بالعدول عما أنا فيه فلن يفيدنى ما أفعله أو يفيد مصر فى شىء بل على العكس كان من المؤكد أن يصيبنى بمرض صدرى وكان الوقت شتاء قارس البرودة».

أكد السادات كذلك على احترامه وتقديسه لوالده حيث قال فى معرض اعتراضه على تقبيل الإخوان المسلمين ليد المرشد العام الشيخ حسن البنا وقتها.. قال: «**لم يكن يعجبنى منظر الإخوان وهم يقبلون يد المرشد العام فأنا لا أميل بطبعى إلى هذا النوع من العلاقة بين الناس فكلنا بشر وكلنا سواء ولو أننى كنت أقبّل يد أبى إلى أن مات وبعد ولايتى كرئيس للجمهورية..».**

الأب لعب دوراً خطيراً فى حياة السادات ولعب دوراً أكبر فى حياة الشيخ الشعراوى.. الشيخ قال أنه أخذ من والده ٩٠٪ من ثقافته وهو الرجل الأمى الذى لم يكن يقرأ ولا يكتب، استمع لنصائحه دائماً هو الذى ردد على مسامعه أنه مادام عامل سياسى فيجب أن يتحمل نتائج عمله ونشاطه..

وفى الوقت الذى لم يعط الشيخ الشعراوى دوراً لأمه يقول السادات أن جدته ـ وهى امرأة ـ لعبت دوراً خطيراً فى حياته.. يقول السادات: «**كنت دائماً أستعيد قول جدتى: (لا شىء يساوى أنك ابن الأرض، فالأرض هى الخلود لأن الله أودعها كل سره).. كم كنت أحب هذه السيدة، كانت شخصية فى غاية القوة بالإضافة إلى الحكمة، حكمة الفطرة والتجربة والحياة، وطوال فترة نشأتى فى القرية كانت هى رأس العائلة، فقد كان والدى يعمل مع الجيش فى السودان وكانت هى ترعانا وتخرج وراء الأنفار كأى رجل تتعهد الفدانين والنصف التى اقتناها والدى».**

■ ملمح (٥):

الفقر والغنى من آيات الله فى كونه يعرف بهما معدن الناس.. أيهما يرضى وأيهما يتفلسف بفقره.. ويجعل منه حكاية يبنى على أساسها المعجزات..

يقول السادات فى بحثه عن ذاته صفحة ١٦: «**فى مرحلة التعليم الثانوى كنت**

أعيش تحت خط الفقر، فقد كان والدى بدخله المحدود يعول أسرة مكونة من ثلاثة عشر ولداً وبنتاً، ولذلك فرغم أننا كنا نعيش فى القاهرة كان بمنزلنا فرن نخبز فيه العيش إذ أن شراء الخبز من السوق كما يفعل أهل المدينة كان أمراً لا طاقة لنا به وكان مصروف يدى مليمين فى اليوم، وبهذا المبلغ الضئيل كنت أشترى كوباً من الشاى باللبن وأشربه وأنا أحس أنى أسعد إنسان فى العالم، فى حين كنت أرى زملائى من حولى يشترون أفخر أنواع الشوكولاتة والحلوى من كانتين المدرسة، وكان لدى الواحد منهم أكثر من حُلّة فاخرة يختار من بينها مايروق له، فهو دائماً أنيق متجدد أما أنا فكانت عندى حُلّة واحدة أكل عليها الدهر وشرب ولكنى لا أملك تغييرها أو حتى تجديدها.. وحين أتذكر هذه الأشياء الآن لا أذكر أنها يوماً جعلتنى أحس أننى أقل من زملائى فى شىء بل فى تلك السن المبكرة لم تكن على الإطلاق مدعاة إلى أن أقارن بينى وبينهم..».

الرجل عانى من الفقر فى طفولته وفى شبابه مرت عليه أيام وليال لم يكن يجد فيها شيئاً ينفقه.. لم تنصلح أحواله وتستقر أموره المالية إلا بعد قيام الثورة ووصلت إلى قمتها بعد توليه الرئاسة بالطبع.

الشيخ الشعراوى أيضاً استولى عليه الفقر منذ صغره، بل قضى الرجل أكثر من ثلاثين عاماً يعانى فيها من عدم استقرار مادى.. خاصة بعد أن تزوج وهو مازال صغيراً، مرت ليال كثيرة كان الشيخ الشعراوى يظل فيها مؤرقاً.. ولم يستقر الشيخ الشعراوى إلا بعد سفره للسعودية حوالى عام ١٩٥٠.

المهم فى المسألة كلها أن الفقر عند كل منهما مثّل نقطة انطلاق أساسية عند الرئيس السادات حيث أغرق البلد فى الغنى كما كان يقول ويمسك العامة فى الشوارع بكلمة قالها السادات ويرددها الناس دائماً أن السادات قال: **«الذى لايصبح غنياً فى عهدى.. لن يصبح غنياً أبداً».**

حاول أن يقضى على الفقر لأن الفقر عض الرجل بأنيابه ونهش فيه.. صحيح أن السادات قال أن فقره لم يترك أى عقدة نفسية عنده ونصدقه لأن الرجل اقترب من الأغنياء بشكل خرافى وأصبح منهم.. العقدة إذن لم تكن كراهية الأغنياء بقدر ماكانت رغبة التطلع إليهم والانضمام إلى صفوفهم.

الشيخ الشعراوى على العكس من ذلك تماماً لم يتحدث عن الأغنياء ولا قارن بينه وبينهم ولا أصر على الحديث عنهم.. هذا بالطبع لم يمنعه إطلاقاً من الجلوس معهم والركوب فى سياراتهم وتقبل الهدايا منهم.. لم يتفاخر الرجل بذلك ولم يذكره أو يتحدث عنه.. لكن لم يمنع صمت الرجل أن يوجه إليه اتهام بأنه ساند أصحاب شركات توظيف الأموال وأنكروا علاقته الشخصية بهم وركوبه سياراتهم الخاصة.

الرجلان إذن جمع بينهما الفقر.. ولم يفرق بينهما الغنى!!

■ ملمح (٦):

القرية مرة أخرى.. لكن هذه المرة القرية فى ثوب مختلف..

فبعد أن مضى كل من الرجلين فى طريقه، أحدهما عاد إلى القرية ليأخذ منها زاداً واستمراراً وامتداداً..

السادات قال: **«فى المدينة أفضلهم فى نظرهم أغناهم مالاً وأكثرهم حسباً ونسباً، أما نحن فى القرية فلا نعير هذه الأشياء أى اهتمام.. الرجل الذى على خُلق عندنا قيمة عليا فى ذاته رغم ماقد يكون عليه من فقر مدقع.. وفى القرية عندنا شىء اسمه العيب، ونحن ننتمى بعضنا إلى البعض بالتآخى والتعاون والحب»!!**

وقال: **«مجموعة القيم التى نشأت عليها فى القرية ولم أجد مثلها فى المدينة، سند لى فى تلك المرحلة المبكرة من حياتى فقد عمقت إحساسى بالتفوق الداخلى».**

وقال: **«لم يكن أمامى من ملجأ سوى قيم القرية تحفظ علىّ نفسى كما فعلت دائماً».**

هذه وغيرها من الأقوال، لدرجة أن السادات فى أواخر أيامه تحدث عن أخلاق القرية وكبير العائلة.. كان السادات لحظتها وكأنه يحاول أن يجعل من مصر قرية كبيرة..!!

الشعراوى والقرية كان لهما شأن آخر، فالرجل عندما يفسر القرآن وهو قمة مايقوم

به الشيخ الشعراوى الآن يُدخل أمثال الفلاحين ويتمثل حياتهم، يقارن دائماً بين أهل المدينة وأهل القرية وينتصر دائماً لأهل القرية من أهل المدينة.. الرجل نعم لايرغب فى تحويل مصر إلى قرية، لكن خُطى السادات تمثلها الشعراوى وأعجب كثيراً بكلمات أخلاقيات القرية وكبير العائلة.

■ ملمح (٧):

اتفق السادات والشيخ الشعراوى فى رأيهما فى كثير من الشخصيات واختلفا كذلك فى كثير منها، ومن بين من اتفقا عليه.. الشيخ حسن البنا.

قال عنه السادات: **«كان الشيخ حسن البنا ممتازاً فى اختيار موضوعاته وفهمه للدين وشرحه وإلقائه.. من كل النواحى فعلاً كان الرجل مؤهلاً للزعامة الدينية، هذا إلى جانب أنه كان مصرياً صميماً بكل ماتحمله هذه الكلمة من دماثة خُلق وسماحة وبساطة فى معاملة الناس».**

ويبدو أن الشيخ حسن البنا كان بالفعل من الناحية الإنسانية شخصية عالية جداً بصرف النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا على الدور الذى قام به فى تاريخ مصر والذى لم ينته باغتياله بل استمر إلى تلك اللحظة التى نعيشها الآن.

الشيخ الشعراوى وقف من الشيخ حسن البنا موقف المؤيد فى البداية وانضم لجماعة الإخوان المسلمين، بل وكتب أول بيان للجماعة بالقاهرة عام ١٩٣٨، ولما انفصل الشيخ عن الجماعة ظل يحمل التقدير للشيخ ويشهد له بكفاءته فى مجال الدعوة الإسلامية، بل عدهِ الشيخ الشعراوى من بين الشخصيات التى أثرت ولعبت دوراً كبيراً فى حياة الشيخ الشعراوى الفكرية.. وإلى الآن يكرر الشيخ الشعراوى إعجابه الشديد للغاية بالشيخ حسن البنا.

ومن الشخصيات التى اختلف حولها السادات والشيخ الشعراوى.. كان مصطفى النحاس.. الشيخ الشعراوى كان يتحدث عن الرجل دائماً بكلمته «الرجل الطيب».. يتغنى بمآثره ويذهب به إلى مراق بعيدة تصعد به إلى عالم الروحانيات شديد التأثير.. لم يلتفت الشيخ الشعراوى إلى صعود الإنجليز بمصطفى النحاس ولا إلى إبقاء النحاس على الأحكام العرفية بعد توليه الحكم وغفر له كل شىء.

انفصل عن الإخوان لأن الشيخ حسن البنا غضب منه لأنه مدح النحاس.. ولعن ثورة يوليو شعراً لأنها لم تعط الحكم للنحاس..

السادات كان له رأى آخر.. يقول: **«كان ذلك فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢، تاريخ لا ينساه جيلنا، ففى ذلك اليوم سقط النحاس فى نظرنا، إذ كيف يقبل أن يفرضه المستعمر على البلد بقوة السلاح؟!».**

لم يتوقف الأمر على ذلك فقط بل حاول السادات قتل النحاس.. يقول السادات:

«وكان المهم أن نتخلص ممن كانوا يساندون الإنجليز فى ذلك الوقت، وكان على رأس هؤلاء فى نظرنا مصطفى النحاس باشا رئيس حزب الوفد الذى سقط فى نظرنا منذ أن فرضه الإنجليز بقوة السلاح فى ٤ فبراير ١٩٤٢، فلا شىء يعادل خيبة الأمل التى يصاب بها الشباب فى زعيم كان يوماً مثلهم الأعلى.. ومازلت أذكر كيف كنا ونحن طلبة نخرج إلى الشارع مرتين كل يوم ننتظر ذهاب النحاس إلى بيت الأمة وعودته منه لنراه ونهتف ونصفق له.. كان بطلاً أسطورياً ورمزاً فريداً للوطنية والفداء والعطاء، أما بعد ٤ فبراير فقد فَقَدَ كل شىء وأصبح فى نظرنا خائناً لمصر ولشعبها يحتم علينا واجبنا الوطنى أن نزيله من طريقنا، ولذلك قررنا التخلص منه..».

رجل اتفقا عليه..

ورجل مجّده الشعراوى وحاول السادات قتله..

■ ملمح (٨):

لكل منهما كان هناك تاريخ نضالى طويل..

تاريخ السادات النضالى يعرفه الناس منذ البداية، دخل السجن مرة عام ١٩٤٢ بتهمة التجسس لصالح الألمان.. ثم مرة أخرى عام ١٩٤٦ بتهمة التورط فى قضية أمين عثمان، صنعت الصحف من السادات بطلاً أسطورياً بعد مقتل أمين عثمان، وكان الناس يعرفونه لدرجة أنه بعد قيام الثورة كان الوحيد من أعضاء مجلس قيادة الثورة الذى يعرفه الناس.. كان هو السادات لتاريخه.

لم يكن السـجن وحـده هو البطولة فى تاريخ السـادات ولكن الرجل هرب مِن السـجن وقضى فترة من عمره يتخفى فى زى العمال والشغيلة ويغير اسمه.. هذا ثابت لشخص السـادات ولتاريخه.. وإذا كان السـادات سبق السجن عنده مسألة التخفى والهروب من البـوليس، فإن تـاريخ الشـيخ الشـعـراوى النضـالى كـان عكس ذلك تمامـاً، حـيث بدأ بالتـخفى فى البـداية أثناء المظاهـرات فى الزقازيـق ضـد الإنجليـز، فكان يتـخـفى فى زى بائع عيش ويركب دراجة ويدخل إلى زملائه.. وحاول البـوليس أن يلقى القبض عليه لكنه كان يفشل حتى أرغموا الشعراوى بأن يسلم نفسه حين قبضوا على أبيه لجدع أنفه وقد كان..

ودخل الشعراوى الحبس وليس السجن، فقد كان الشهر الذى قضاه الشعراوى قيد التحقيق، ولذا لم يعتبر سجناً بالمعنى المعروف، وإن كان الشيخ يقول على هذا الشهر كثيراً..

■ ملمح (٩):

عندما وقعت هزيمة ١٩٦٧ كان الرئيس السادات فى بؤرة الأحداث قريباً من القيادة، رد الفعل كان عنيفاً للغاية، يعبر عنه السادات بقوله: **«لم أكن أعرف ماذا أفعل بنفسى، كنت معتاداً على أن أخرج للمشى أربعة كيلو مترات يومياً، ولكن بعد ٥ يونيو كنت أسير وحسب، لم أكن أدرى كم من الزمن أسير.. عشرة كيلو مترات أو أكثر أو أقل لا أعرف فقد استولى علىّ ذهول غريب لم أعد أستطيع معه أن أتبين الزمن أو المسافات أو حتى المكان نفسه فى بعض الأحيان».**

الهزيمة زلزلت نفس الرجل كما زلزلت نفوس الجميع، وفى حادث الهزيمة هذا يختلف رد فعل السادات عن رد فعل الشيخ الشعراوى، فالشيخ الشعراوى قال وبكل بساطة وبمنتهى الهدوء أنه عندما تلقى نبأ الهزيمة فى ٦٧ وكان وقتها فى الجزائر سجد لله وصلى ركعتين شكر لأن الله أنزل الهزيمة بالشيوعيين الذين لو انتصرنا بهم على اليهود لنُسِبَ النصر لهم وليس لله.

المهم، هذا الاختلاف جاء لطبيعة الرجلين، فالسادات رجل السياسة رجفته جاءت من الهزيمة، فليس لرجل سياسى وعسكرى أن يُهزم حتى لو جاءته الهزيمة بكل القيم

والأخلاق فهو يرفضها بشدة.. لكن رجل الدين يكون له رأى آخر وهو ماعبر عنه الشيخ الشعراوى بالضبط.. وإن كان وحده من رجال الدين وعلمائه الذى قال ذلك.

■ ملمح (١٠):

«عبدالناصر..»..

الاسم لرجل سكت الجميع فى حياته، ولما مات تحدث الجميع أيضاً ومازالوا إلى الآن يتحدثون.. منهم السادات والشعراوى.

الشيخ الشعراوى الآن يتحدث عن اختلافاته مع عبدالناصر ورفضه لسياساته التى كانت فى وقتها خاطئة. لم نسمع أن الشيخ جاهر بالرفض أو ناقش مناقشة جادة رفض فيها حكماً لعبد الناصر حتى عندما صدر قانون الأزهر فى ١٩٦١ لم نجد غير اعتراضات لفظية تضمها جلسات الشيخ الخاصة وأحاديثه الخاصة مع أصحابه..

السادات فعل نفس الشيء.. فقد كان مطيعاً للغاية فى حياة عبدالناصر، ولم يكن ظاهراً فى الصورة، لن نلتفت بالطبع لما كتبه السادات بعد ذلك.. بعد موت عبدالناصر.. وهو كلام يوحى بأن السادات هو الذى كان يحكم مصر لكن من وراء ستار.. فهو الرجل الأول لكن فى الخفاء، ووجد ماذكره السادات عن عبدالناصر صدى عند عامة الشعب فخرجوا يعلقون على كلام السادات هذا بسخرية لاذعة من أهمها نكتة زبيبة الصلاة التى كانت فى جبهة السادات، حيث أرجعوا سببها أن السادات كان كلما أراد أن يتحدث ضربه عبدالناصر على جبهته وقال له: اسكت أنت!!

والغريب أن السادات كان يتكلم عن عبدالناصر بطريقة غريبة.. من أقواله مثلاً:

«أحياناً كنا نختلف وتحدث بيننا جفوة قد تستمر شهرين أو أكثر، يرجع السبب فيها ربما إلى اختلافنا فى الرأى أو إلى دس بعض من لهم تاثير عليه ممن حوله، فقد كان عبدالناصر يؤمن بالتقارير ويميل بطبعه إلى الإصغاء للقيل والقال، ولكن أياً كان الأمر فلم يحدث مرة واحدة أن وضعت نفسى موضع الدفاع، فليس من طبعى أن أفعل هذا بالنسبة لعبدالناصر أو لغيره من الناس، طبعاً كانت تنتهى الجفوة بيننا مهما طالت عندما يتصل بى تليفونياً

ويسأل أين كنت طوال هذه الأيام ولماذا لم أتصل به.. وكنت أجيب بأنه كان مشغولاً ولذلك فضلت أن أتركه لمشغولياته ثم نلتقى وكان شيئاً لم يكن..».

السادات كان يتحدث عن عبدالناصر حديثاً عادياً للغاية لكنه كان فى أثناء هذا الحديث يغمز ويلمز فى الرجل بلا حياء.. عاش السادات يتحدث وحتى مات لم يتغير أسلوبه فى الحديث عن عبدالناصر..

لكن الشيخ الشعراوى فى أيامه الماضية خرج ليعلن أن عبدالناصر كان على حق فى قانون تطوير الأزهر، وهو يعترف بذلك نزولاً على رؤيا رآها.. ذهب الرجل لقبر عبدالناصر وقرأ له الفاتحة وكأن الموضوع انتهى بذلك.

●●●

كأى رجلين فى حياتنا هذه يمكن أن نتتبع حياتهما ونخرج بوجوه كثيرة للتشابه والاختلاف بينهما.. لكن الرجلين عندنا كانا هما السادات والشيخ الشعراوى، قد نكون ذكرنا بعضها ويبقى البعض الآخر وهو الأكثر بالطبع..

فهناك جانب لانستطيع أن نغفله فى شخصية الرجلين بأى حال من الأحوال، ولنسجل أولاً هذين الموقفين اللذين سجلهما أنيس منصور فى كتابه «الدين والديناميت»، يقول أنيس: **«قلت للرئيس السادات: يقال أنك أفلحت فى إقناع الرئيس عبدالناصر بأنه لاخطر لك ولا خوف منك على عبدالناصر، ولذلك طال وجودك إلى جواره فاستراح جمال عبدالناصر إليك تماماً، ثم أنك ذهبت إلى أبعد من إقناعه بأنك رجل مريض إلى أن أوصيت عبدالناصر على أولادك لأنك سوف تموت قبله فلم يعد لديه خوف أو قلق، وهكذا طال عمرك السياسى.. فضحك الرئيس السادات ولم يعلق بشىء».**

وموقف آخر يحكيه أنيس.. يقول: **«وسألت الرئيس السادات مايقال أنك فى جنازة عبدالناصر تظاهرت بأزمة قلبية وكذلك فعل السيد على صبرى، ولم تكن هناك أزمة إنما كانت لديك معلومات مؤكدة من أن محاولة لاغتيالك دبرت أثناء الجنازة.. فضحك الرئيس السادات قائلاً: ياباى، إن أحداً لايصدق أحداً.. أعوذ بالله.. ولم يثبت الواقعة ولم ينفها».**

اتضح إذن ما نقصد إليه وما نعنيه، فالسادات حمل بين عينيه قدراً لا بأس به من المكر.. فالرجل يستطيع أن يقنع الآخر بما يريده حتى ولو كان خطأ وتجد الآخر فى بساطة شديدة يتقبل مايقوله.. ليس ذلك فقط مافعله السادات وليس هذا فقط مايدلنا على قدرة الرجل على المكر.. فالرجل طوال حياته يلعب على هذا الخط ويؤكده، وما حرب أكتوبر ببعيدة عن خيال الناس ولاعن ذاكرتهم وكيف خدع السادات فيها اليهود.. انعكس هذا الأسلوب بالطبع على فترة رئاسته ومن بين ماكان فيها اختياره لرجاله وطريقة استغنائه عنهم.

الشيخ الشعراوى يحمل كذلك قدراً كبيراً من المكر وإن كان لايحق لنا أن نقول أنه يحمل نفس القدر من الخداع، فالشيخ الشعراوى لم يكن فى يوم من الأيام مخادعاً.. لكنه يحرص فى كل لقاءاته وأحاديثه أن يحكى عن مواقف كان له دور فيها ولولاه ماحدثت ولا وقعت، يعتمد فيها الشيخ على حلاوة حديثه وبلاغة كلماته وعذوبة منطقه.. المشكلة أن حكايات الشيخ الشعراوى هذه والتى تؤكد تلك الصفة فيه عادة لاتكون قصصاً محبوكة درامياً وهو مايؤدى بها إلى النسيان السريع لأنها لاتملك أى قدر من التأثير ولا الإضافة. فالحكايات تروى بأكثر من طريقة وفى أكثر من مكان.

وقد يرجع المكر فى شخصية كل من الرجلين إلى نشأتهما الريفية واختلاطهما بالفلاحين.. فالفلاح على أرض مصر به مسحة من المكر يستطيع أن يتغلب بها على من يرغب فى السطو على حقه.. هى مسحة صغيرة نعم تصقل بالتجربة والتعليم وهو ماحدث مع الرجلين الشعراوى والسادات، فقد زادتهما التجربة مسوحاً كثيرة من المكر بدت فى حياتهما.

ونحن لم نمسك بخيوط التقارب بين الرجلين إلا لأننا ندرك أن التقارب بينهما يلعب دوراً كبيراً للغاية فى توضيح صورة رجل السُلطة الذى يقف مع رجل الدين وأى وضع يأخذان؟!

والاختلاف يلعب نفس الدور ولكن بشكل مختلف..

فقد يؤكد الاختلاف بريق ديكور زيف العلاقات التى بها يخدع الناس ويساعد أحياناً إلى كشفه. وهو مانسعى إلى تأكيده من جمع الرجلين فى خصم واحد.

٣

حديث الشيخ عن الرئيس

« الرئيس السادات لم يتحدث كثيراً عن الشعراوى ولم يطنب فى ذكر مآثره ولم يثن عليه بما فيه وما ليس فيه، ولذلك أسباب كثيرة، فالسادات كان يعرف الرجال ويقدرهم بمقدار مايستطيع هؤلاء أن يقدموه له.. ويفعلوه من أجل مصلحة الدولة التى هى فى النهاية مصلحة الرئيس.. »

كلمة يقولها كثير من الناس لأصدقائهم وزملائهم: «إيه رأيك فيّ؟!».

هكذا تقال الكلمة بعامية الناس ومنطقهم ويمكن أن نقول سذاجتهم، وذلك لسبب بسيط أن من يطلب رأى الناس فيه لايهدف من وراء ذلك معرفة سلبياته أو مساوىء شخصيته، يهدف فقط لمعرفة إيجابياته وسمات شخصيته.. ورغم أن هذا هو المطلوب لكن نسمع الناس يقولون: «مارأيك دون أن تجامل».. أو تقول: «اعتبر نفسك تقول وكأنك لست معى»!! وعادة مايتحدث الناس عن رأيهم فى الآخرين بشىء من المجاملة والمحاباة، فالناس لاترغب فى أن يخسروا بعضهم البعض.. ثم إن قليلاً من النفاق لن يضر الناس ولن يهدم الحياة..

الشيخ الشعراوى قال رأيه كثيراً فى السادات فى حياته وبعد موته، والرئيس السادات قال كذلك رأيه فى الشيخ الشعراوى.. ونبدأ بما هو أقل..

فالرئيس السادات لم يتحدث كثيراً عن الشعراوى ولم يطنب فى ذكر مآثره ولم يثنِ عليه بما فيه وما ليس فيه، ولذلك أسباب كثيرة، فالسادات كان يعرف الرجال ويقدرهم بمقدار مايستطيع هؤلاء أن يقدموه له.. ويفعلوه من أجل مصلحة الدولة التى هى فى النهاية مصلحة الرئيس..

السادات قال أن الشعراوى هو الوحيد القادر على تصفية جو العلاقات مع السعودية بعد أن ساءت، وبالفعل جاء الشعراوى من الجزائر متوجهاً إلى السعودية ليعيد العلاقات.. وعادت.. وبهذا صدق نظر السادات فى الشعراوى وتكوّن رأيه فيه أنه رجل يمكن الاعتماد عليه.. ويكفى أنه رجل دين يمتلك القدرة على اختراق جميع الحجب الإنسانية فيصل إلى أعماق الناس ويحقق مايريد من خلالهم.

غير كلمات من قبيل الثناء والرضا بما يفعل لن نجد حديثاً خاصاً قاله الرئيس السادات فى حق الشيخ الشعراوى.

الوجه الآخر من الصورة يحمل تفاصيل أكثر وكلمات أغزر، فالشيخ الشعراوى تحدث ومازال يتحدث عن الرئيس السادات، وتعالوا نسمع لحديث الشيخ عن الرئيس من خلال زوايا محددة..

● الزاوية الأولى:

يقول الشيخ:

«السادات كان رئيس دولة وكان رجلاً ثورياً، كل هذا صحيح ولكنه كان يعطينى الانطباع وهو فى ميت أبو الكوم بأنه كان يتمنى فى نفسه أن يكون من أعيان الريف الكبار فهو يرتدى ملابس الريف ويتكلم لغة الريف وله طبيعة أهل الريف عندما يتحدث مع الأهالى.. وكل هذه تعطى له شخصية أخرى».

الشيخ الشعراوى ينسج من خلال كلماته تلك وبألفاظه هذه بالذات ما حرص الرئيس السادات طوال فترة حكمه أن يؤكده للناس.. فهو منهم وإليهم.. واحد من أبناء الشعب الذين جاءوا من الأقاليم إلى القاهرة العاصمة ليعمل فيها.. ليس من شأنه أن عمله تصادف وكان رئيس جمهورية.. فهو حتى ولو كان رئيساً للجمهورية لكنه مازال يرتبط بأرضه وببلده وبقريته.. ولذا كان دائم التردد على قريته.. وكان ينقل الإعلام تواجد الرئيس فى قريته بين أهله وناسه ليقول للناس جميعاً أنه منهم وهذه قريته وهذه مواطن ذكرياته التى تشهد على آلامه ومعاناته وفقره وجهاده حتى وصل إلى ماهو فيه الآن.

وإذا كان هذا مايقصده السادات.. فالشيخ الشعراوى حاول أن يضيف إلى صورة الرئيس بعض الظلال التى يستخرجها من كلمات الرجل عن نفسه وتصرفاته.. فهاهو يؤكد أن تصرفات وسلوك الرئيس فى قريته ميت أبو الكوم إنما أوحت له أن هذا الرجل يرغب فى أن يكون أحد أعيان الريف لكن الظروف لم تمكنه من ذلك.. الظروف مكنته فقط أن يكون رئيس جمهورية، وأظن أن هذا يكفى.

● الزاوية الثانية:

يقول الشيخ:

«كنا فى كفر الربيع بتاع الحسانية، كان السادات وعثمان أحمد عثمان

وانا، وأثناء مرورنا على الطريق لاحظ السادات أن هناك قعدة جميلة على شاطىء النهر وكان صاحبها رجلاً اسمه سعيد أبو حسين، فالسادات قال لعثمان: «ياعثمان عايز تعمل لى قعدة جميلة زى دى».. وكلام السادات هذا جعلنى آخذ فكرة فى ذلك اليوم عنه وهو أنه رجل ليس فيه غل أو حقود على ذى نعمة أو ثراء بدليل انه بيقول: «اعمل لى قعدة جميلة زى دى».

وهذا فهم جيد للغاية لما يقوله الشيخ فى حق الرئيس السادات، فللمرة الثانية يؤكد الشيخ الشعراوى ماسبق وقاله الرئيس السادات عن نفسه ساعة أن كان يتحدث عن فقره وحاجته وشدة عوزه وتواجده بين زملاء أغنياء فى المدرسة يلبسون أفخر الثياب ويأكلون الواناً وأشكالاً من الطعام.. المال لايغادر جيوبهم.. والسيارات تأتى إلى باب المدرسة، وهو الطفل المسكين لايكاد يحصل على مايقيم ظهره ويطعم فمه.. لكنه مع كل ذلك لم يكن يشعر بأى حقد أو غل ناحية زملائه هؤلاء.

الشعراوى مرة أخرى يعود ليؤكد على ماقاله السادات من زاوية أخرى حيث إنه عندما رأى قعدة جميلة قال أنه يرغب فى قعدة مثلها تماماً.. من كلمة السادات هذه خرج الشعراوى بنتيجة هامة مفادها أن الرجل لايحمل غلاً ولا حقداً.

ورغم أن الشعراوى قال ذلك ليس رغبة فى شىء أو سعياً وراء هدف لكن كلماته التى قالها لاتحمل منطقاً ولا حتى يصدقها عقل يفكر..

إذاً ماذا كان ينتظر الشعراوى؟ هل كان ينتظر مثلاً أن يستولى السادات على القعدة حتى يقول أن الرجل فى قلبه غل أو حقد؟!!

● الزاوية الثالثة:

يقول الشعراوى:

«حين يوجد رئيس ثورى حكم بدون أن يحكمه شعبه فهو يتهيب من كل همسة ثم تأتى إليه معلومات ليست فى بالنا نحن، فاى همسة لابد أن يتحسب منها، لأنه يعرف أن بقاءه فى الحكم هو استبقاء للحياة بالنسبة له.. ومن هنا فهو يضرب بشدة كل من يهدد بقاءه فى الحكم، وهذا مافعله كل حاكم ثورى فهو يحافظ على حكمه محافظته على حياته».

الشيخ الشعراوى قال هذا الكلام رداً على سؤال يقول: **«مارأى الشيخ فى قرارات سبتمبر التى انتهت بالسادات إلى هذا المصير المفجع؟!».**

وقرارات سبتمبر هذه أودت باعتقال ١٥٣٦ مواطناً مصرياً كانوا من رموز الحركة الوطنية فى مصر.. من مختلف الفئات والأعمال والاتجاهات الفكرية.

أمسك السادات بهم جميعاً وألقى بهم فى السجن حتى يتم الصلح مع إسرائيل.

ومع أننا على يقين أن الشيخ الشعراوى لايرضى مطلقاً عن هذا الخسف والعسف والصدام والسجن، لكن راح ـ وعلى طريقته ـ يفلسف المسألة ويبحث عن مبررات للرئيس.. وهذا ماقاله.

فالسادات لأنه كان ثورياً.. والحاكم الثورى من طبيعته خاصة إذا لم يحكمه شعبه أنه يتهيب ويخاف ويتشكك فى الناس جميعاً وهو مايجعله يحافظ على حكمه محافظته على حياته.. لايتخلى عن ذلك مطلقاً ولا يفرط فيه، ولذا لايعجب الشيخ الشعراوى من أن يضرب الحاكم الثورى هذا بشدة على يد كل من يهدد بقاءه فى الحكم، لم يعلق الشعراوى على سجن الناس وتعذيبهم ولكنه راح ينظر لما يفعله الحاكم الثورى وكأنه يلتمس للسادات الأعذار فيما فعله.

● الزاوية الرابعة:

يقول الشعراوى:

«السادات كان امتداداً للحكم الثورى الصحيح ولكنه حاول أن يخرج من الثورية الشرسة إلى الثورية الهادئة الناعمة.. ووفقه الله فى أن يزيل عن الناس أشياء أتعبتهم جداً فى عهد عبدالناصر من ناحية تهجم رجاله على الأعراض وعدم أمانتهم فى الحراسات التى فرضوها على الناس وأسباب الحراسة.. فالسادات أمن الناس على حياتهم وأمن الناس على أعراضهم وأمن الناس على نشاطاتهم بحيث لاتتعرض لها الدولة مادامت حقوق الدولة مرعية، هذه أشياء لا أحد ينكرها.. ونأتى بعد ذلك للسياسة العامة ونحن نعرف كيف كان السادات يستقبل الأحداث.. كان السادات يتصرف أحياناً فى مواجهة

بعض الأحداث حسبما قاله شوقي: «ربما تقتضيك الشجاعة أن تجبن ساعة».. وأحياناً كان يستنيم للأحداث وهذه اخذها من عهد عبدالناصر».

● الزاوية الخامسة:

يقول الشعراوى:

«أذكر أننى عندما تكلمت مع شعراوى جمعة ووجيه أباظة - رحمهما الله - بعد وفاة عبدالناصر وسألتهما: لماذا عدلتم عن اختيار زكريا محيى الدين للرياسة واخترتم السادات؟ قالا: إن زكريا يصعب التغلب عليه فهو ناب، أما السادات فنستطيع فى أى وقت أن نتخلص منه.. وقال شعراوى جمعة: وإن شئت أن نأتى لك به إلى هنا مقبوضاً عليه فسوف نفعل..

وقد رددت عليهما يوماً بأنهما ومن معهما فى تفكيرهما مخطئون من الناحية الدينية والسياسية..

وكان تقديرى يومها أن الرجل الذى استطاع أن يعيش مع جمال عبدالناصر عشرين سنة ولم يمكن منه جمال عبدالناصر وهو الذى كان فاتح جب لكل واحد للوقت الذى يسقط فيه فلا يظهر له أثر.. هذا الرجل ليس سهلاً فهو كما يقال عندنا فى الفلاحين أحدق من جمال عبدالناصر.. ثم جاءت الأيام فأثبتت ذلك..»

وهذا مطب آخر أوقع السادات فيه الشيخ الشعراوى وهو عالم الدين الذى من المفروض ألا يتورط بهذا الشكل فى الحكم على الشخصيات التاريخية..

فالناس فى مصر عندما يتحدث الكُتّاب والمفكرون والصحفيون عن جمال عبدالناصر أو السادات قد يصدقون وقد يكذبون.. الناس ترفض أو تقبل لسبب أن النظرة للكُتّاب أو الصحفيين خاصة يشوبها بعض الشك والتشكك أحياناً.. لكن رجل الدين رأيه سيكون مصدق إلى حد بعيد.

والمطب الذى نقصده هنا والذى وقع فيه الشيخ الشعراوى أنه لايوجد أحد يمدح عبدالناصر إلا ويهاجم السادات، وفى نفس الوقت من يمدح السادات يهاجم عبدالناصر

وبضراوة.. والمتتبع لأحاديث الشيخ الشعراوى ومواقفه لن يستطيع أن يحدد بشكل قاطع أسباب كراهية الشعراوى لعبدالناصر، هناك فقط أسباب هلامية وكلام مرسل نستطيع بصعوبة أن نحدد منه بعض النقاط الغامضة أيضاً.

وسواء أحب الرجل عبدالناصر أو حتى كرهه فهذا لايهمنا، خاصة أن الشيخ فى أواخر أيامه عاد ليغفر لعبدالناصر أخطاءه ويصفح عنه بل يقوم بقراءة الفاتحة عند قبره.

السادات - وهذا واضح - جذب نقطة الشعراوى بقوة إلى محيط دائرته وأصبح كل كلام الشعراوى عن السادات فى صف الرجل وليس ضده وحتى لو اعترف الشعراوى ببعض الأخطاء التى وقع فيها السادات فإنما يعترف بذلك ثم يبحث له عن مبررات.. وعادة ماتكون مبررات مكشوفة، والملاحظ أن الشعراوى عندما وقف على أنقاض شخصية عبدالناصر الذى كان فاتحاً جباً لكل واحد للوقت الذى يسقطه فيه فلا يظهر له أثر.. وقف ليعدد مآثر السادات حيث إنه رجل يملك قدرات خارقة استطاع من خلالها أن يحتفظ بنفسه ويبقى بجانب عبدالناصر مع كل الشر الذى كان يكنه عبدالناصر للناس..!!!

● الزاوية السادسة:

يقول الشعراوى:

«السادات مات شهيداً والذين فرحوا فى قتله اغبياء.. لماذا؟!

لأن السادات بإقراره كانت له احداث قبل الثورة دخل فيها فى شىء نسميه - جرائم سياسية - فما الذى يمنع أن يكون الله قد قدر فى حسناته وأراد ان يذهب بها سيئاته فقُتل ليأخذ اصل الشهادة فتمحو سيئات ماتقدم.. السادات مات على غير فراشه، مات بإطلاق الرصاص عليه وكان للحادث ردود فعل واسعة.. فالذين أحبوه قالوا عنه الكثير والذين لم يحبوه قالوا عنه الكثير، أيضاً، لكن الشماتة فى الموت بهذه الطريقة التى سمعنا عنها من بعض البلاد العربية لايمكن أن تكون من أخلاق المسلمين».

لون آخر من الألوان التى يجيدها الشيخ الشعراوى فى فلسفة الأمور على وجه يطمس ملامحها ويغير تفاصيلها ويحيلها لشىء مختلف تماماً.. فموت السادات كان نهاية

لأحداث درامية شديدة الأسى.. أورثت مصر كلها حزناً قاتلاً.. السادات لم يمت مصادفة ولكنه مات مع سبق الإصرار والترصد، والخطة كانت معدة.. و ٦ أكتوبر بالتحديد كان مقصوداً حتى يجهض معنى مافعله السادات، وكلما جاءوا ليحتفلوا بيوم النصر اقتحمتهم ذكرى الرئيس القتيل.. مافعله السادات مع طبقات الشعب واتجاهاته كان مقدمة طبيعية لأن يحدث له ماحدث..

الشعراوى لم يضع كل ذلك فى اعتباره.. لم يتحدث عنه ولم يلتفت إليه مجرد التفات.. وقال أن الرجل مات شهيداً.. ومن فرح فى قتله كان غبياً.. لماذا يامولانا؟ لأن قتل السادات أو موته بهذهالطريقة كان بمثابة التفكير عن ذنوبه التى ارتكبها قبل الثورة والتى أقر بها السادات.

هكذا وبكل بساطة يامولانا الشيخ.. موت مقابل غفران الذنوب!!

مايضحك فى الأمر أكثر أن السادات ـ ولأنه كان رئيساً مؤمناً ـ كان يعتقد أنه سيموت مقتولاً.. لماذا ياسيادة الرئيس؟ لأنه من قَتَل يُقتل ولو بعد حين، والسادات كان يقول أنه على الأقل شارك ولو بالتخطيط فى قتل أمين عثمان، وهى القضية الشهيرة التى عرف الناس السادات من خلالها قبل الثورة.. للمرة ـ لا أعرف رقمها بالضبط ـ يتوافق ماذهب إليه السادات ومايذهب إليه الشيخ الشعراوى..!! هل هذه مصادفة؟! يجوز.. من يعلم!!

●●●

وبعد الكلام.. هل بقى شىء نقوله. بالطبع بقيت أشياء كثيرة..

فالسادات استطاع حتى وهو ميت أن يجعل الشيخ الشعراوى فى فلكه، فلا يتحدث عنه إلا بما قاله السادات عن نفسه لاينقص بل ربما يزيد.. كلمات مدح دائمة.. ولو جاءت كلمة مدح واحدة فتقدم الكلمة بمزيد من الاعتذار والأسف.. هذا أورث الشيخ الجليل شخصية مهتزة بعض الشىء فى حكمه على الأشخاص والأشياء..

على مايبدو أن السادات كان يمتلك تأثيراً سحرياً على الشيخ.. وهذا ماجعلنا نسمع من الشيخ فى أواخر أيامه مثل هذا الكلام عن الرئيس المرحوم.. الراحل.

٤

الـــــوزر قــبل الوزارة

«الغريب في الموضوع أن الشيخ الشعراوى مــرة يقــول أنه اعــتــذر عن المنصب فى البـداية وألح فى ذلك وأصر فى رفضه.. ومرة يقـول أنه قبل المنصب وسأل الله أن يعينه على ما كلفه به..»!!

عندما يصل الحاكم إلى السُلطة يختلف ترتيب أولوياته اختلافاً كبيراً، فقد كان الوصول إلى السُلطة هو همه الأول.. والآن وقد وصل أصبح همه كيف يحافظ على هذه السُلطة.. لانستطيع ولايحق لنا أن نستثنى من ذلك أحداً حتى ولو كان ملكاً، فالكل مهما كانت أخلاقياتهم أو قيمهم فهم لايرغبون فى التخلى عن الحكم أو بالمعنى الصحيح المُلك، خاصة إذا كنا نتحدث عن مجتمعات لايترك فيها الحكام مكانهم إلا بالموت وإن لم يكن موتاً فليكن اغتيالاً.. هذه حقيقة لايستطيع أن ينكرها أو يتنكر لها أحد.

الرئيس السادات كان من بين هؤلاء.. بل كان أشدهم حرصاً على استمراره فى حكم مصر.. لم يجد السادات حرجاً فى تقريب الرجال ثم إقصائهم.. تغيير الوزارات.. إخراج بعض الأعضاء من مجلس الشعب بعد إسقاط عضويتهم، بل فعل السادات أكثر من ذلك، وربما يكون ذلك هو الأول من نوعه فى تاريخ مصر حيث نادى السادات بإسقاط الجنسية المصرية عن بعض الصحفيين الذين كانوا يهاجمون مصر وهم فى الخارج، فهؤلاء لايحق لهم بأى وجه من الوجوه أن يحملوا اسم مصر وهم لايحملون لها إلا السوء.. هكذا قال..!!!

السادات كان حاكماً.. وهو مثل أى حاكم يحرص على مكانه ويذلل له كل شىء.. ولا ينزل عن حكمه إلا بعد نزع شديد من بين أضلعه.. الشيخ الشعراوى نفسه عندما تحدث عن الآية الكريمة التى تقول: **﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء...﴾**..

فكلمة «تنزع» ـ والكلام للشيخ الشعراوى ـ دلالة أن لا أحد يكون حاكماً ويترك المُلك بقناعة داخلية ولكن لابد أن يأتى من ينزعه منه وينزله عن مُلكه، هكذا نقول ذلك لأن الشعراوى وتعيينه وزيراً فى وزارة ممدوح سالم عام ١٩٧٦ كان من بين أهدافه أو مراميه البعيدة أن يحافظ السادات على استمراره وهذا حقه كحاكم على الأقل..

لكن كيف جاء الشعراوى إلى الوزارة..؟

فى عام ١٩٧٦ كان الشيخ الشعراوى فى مكة يعمل كأستاذ زائر بجامعة الملك عبدالعزيز . وكان قد وصل إلى رئيس قسم الدراسات العليا بالجامعة..

يوم الأحد..

٧ نوفمبر..

الشيخ الشعراوى يلقى محاضرة على طلبته.. تلقى الشيخ فى هذه اللحظات مكالمة تليفونية من سفير مصر فى السعودية وقتها وكان اسمه أحمد ثابت.. طلب السفير من الشيخ الشعراوى أن يحضر لمبنى السفارة فى جدة.. سأله الشيخ عن الأمر.. فقال له السفير أحمد ثابت أن الرياسة فى مصر تطلبه..

وبالفعل ذهب الشيخ الشعراوى إلى مبنى السفارة وجلس فى مكتب السفير ينتظر المكالمة..

وجاءه صوت ممدوح سالم عبر أسلاك التليفون ليقول للشيخ الشعراوى كلمات محددة وقليلة:

«فضيلة الشيخ الشعراوى أنت مطلوب للتعاون معنا فى وزارة الأوقاف».

يمكن أن نعتبر هذه الكلمات نهاية ما أراده ممدوح سالم.. ونبدأ بعد ذلك مع الشيخ الشعراوى الذى لابد أن له رد فعل على هذا الكلام.

وكما عودنا الشيخ الشعراوى ـ ولا قطع الله له عادة ـ تباينت ردود فعل الرجل كما ورد فى الكتب التى قصت حياته..

ففى كتاب «الشعراوى الذى لانعرفه» الذى أعده سعيد أبو العينين.. يقول الشيخ: **«قال لى ممدوح سالم أنهم اختارونى لوزارة الأوقاف فحاولت أن أعتذر عن عدم قبولى الوزارة شاكراً لهم تفضلهم باختيارى، وتكلمنا طويلاً..».**

وفى كتاب «الشيخ محمد متولى الشعراوى إمام عصره» إعداد أحمد حسين جوهر:

«كان رد الشيخ الشعراوى بالشكر ووعد بالحضور فوراً، وفى اليوم التالى وصل وزير الأوقاف الجديد على أول طائرة سعودية، ومن المطار توجه مباشرة إلى رئاسة مجلس الوزراء، وهناك استقبله ممدوح سالم وتمنى له التوفيق، وقال الشيخ الشعراوى: سألت الله أن يعيننى ويوفقنى..».

الغريب فى الموضوع أن الشيخ الشعراوى مرة يقول أنه اعتذر عن المنصب فى البداية وألح فى ذلك وأصر فى رفضه، ومرة يقول أنه قبل المنصب وسأل الله أن يعينه على ماكلفه به.. سنسير مع الشيخ لنرى أسباب رفضه.. ثم أسباب قبوله.. كانت هذه أسباب رفض الشيخ لمنصب الوزير فى البداية:

● **أولاً:** رأى الشيخ أنه كان غريباً عن مصر لمدة ٢٦ عاماً، فالشيخ الشعراوى كان قد غادر مصر مسافراً إلى السعودية فى عام ١٩٥٠ والعام هو ١٩٧٦.. وهذه السنوات الطويلة يقول المنطق أنها بمثابة العازل للشيخ عن أحداث الحياة اليومية فى مصر، حتى ولو كان الشيخ يقضى بعض الإجازات فى مصر أثناء سنوات سفره التى قضاها بين السعودية والجزائر فهذه الإجازات كان يقضيها الشيخ فى التقارب مع الأهل والأصحاب وجلسات الود.. فليس له عمل فى مصر.. فالإجازة إجازة.

ويحكم القدر أن تكون هذه الـ ٢٦ عاماً التى قضاها الشيخ الشعراوى خارج مصر سنوات صخب.. وعنف.. إثارة.. انقلبت فيها الدنيا رأساً على عقب.. أشعل عبدالناصر النار فى أركان الدنيا.. ولما مات لم يمض بلا ضجيج، وجاء السادات.. سياسات تغيرت.. وأحلام أصبحت باهتة.. وكلمات كانت فقط تصف مافات.. دنيا كاملة تغيرت.

ويكفى القول أن الشعراوى خرج من مصر عام ١٩٥٠ وهى مملكة يجلس على دكة الحكم فيها ملك.. وعاد إليها وهى جمهورية يقبض على زمام الحكم فيها رئيس.

● **ثانياً:** علل الشيخ عدم قبوله الأولى للوزارة بحجة أنه ليس له جَلَد على هذا العمل، هكذا قال الشيخ الشعراوى، وهو سبب وجيه لدرجة بعيدة، فالشيخ الشعراوى كان يجلس فوق خمسة وستين عاماً من العمر الذى امتلأ بالعمل والنشاط والسفر والدعوة الإسلامية، فالرجل كلت همته وتراخت عزيمته وتراجعت رغبته فى العمل الإدارى.. هذا بالإضافة إلى معرفة الشيخ الشعراوى بمهام الوزير من استقبالات وزيارات واجتماعات.. وهذه كلها

يزهد فيها الشيخ ولا يرحب بها، ولذلك أغلب الظن.. رفض المنصب أو على الأقل تردد فى قبول المنصب.

● **ثالثاً:** تردد الشيخ فى القبول عاد أيضاً للوضع الذى كانت عليه وزارة الأوقاف ومشيخة الأزهر، فالشيخ عندما تولى كانت الوزارة هى الأوقاف وشئون الأزهر، وهذه كلمات الشيخ: «**قلت له - يقصد ممدوح سالم - موضحاً الأسباب التى تجعلنى لا أقبل عملاً فى ظل ظروف وأوضاع تحول دون تحقيق ماهو مطلوب لإنجاز تلك المهمة السامية التى يتكلم عنها.. فهناك قانون الأزهر وهناك أشياء كثيرة فى حاجة لتصحيح**».. جعل الشيخ من كلامه هذا ذريعة للرفض أو على الأقل التردد فى قبول المنصب، هذا من وجهة نظره..

وإن كان الأولى به أن يقبل لو كان فى ذهنه ماقدمه من ظروف وأوضاع تحول دون استقرار العمل فى الأزهر والأوقاف، فما دام الرجل يعلم جيداً وجوه الخلل وألوانه فهو قادر على إصلاحها إذن.. لكن الرجل لأنه يعلم وجوه الخلل اعتذر، قد يكون له منطق معين فى ذلك.. يجوز!!

لكن كانت هناك أيضاً أسباب قبل بعدها الشيخ المنصب.. فقد قال الشيخ الشعراوى رداً على سؤال فى جريدة أخبار اليوم ١٨/١٠/١٩٨٠ وجهه له عبدالوهاب موسى:

● **«لماذا قبل الشيخ الوزارة؟».**

قال: «**... تسألنى لماذا وقع الاختيار علىّ لدخول الوزارة؟ فهذا أمر لا أعرفه لأن هذه المعرفة خاصة بمن اختار لا من وقع عليه الاختيار.. أما لماذا قبلت؟!، فهذه هى التى أُسأل عنها لأن إرادة القول صدرت منى وأنا صاحبها ومالكها فاجيب عليها..**

أنا قبلت لأنى وجدتنى وأنا غريب عن مصر منذ عام ١٩٥٠ فى محيط ليس فيه لى صلة بأحد من الحاكمين ولست فى بالهم، فحين افاجأ بانى استدعيت واخاطب فيها وانا بعيد فى البلد الذى أرتاح فيه وهى مكة المكرمة سألت نفسى: ما الذى جعلهم يفكرون فىّ..؟!

ما الذى جعلهم يقرأون دفاتر ويأتون بالإنسان البعيد عنهم ولا صلة له بواحد منهم ولا يعد لشيء ولا يستشرف لشيء وأصل للتقاعد حتى هنا فى مصر..؟ فإذا كانوا اختارونى فهذا دليل على أنهم يقرأون دفاتر ويختارون الناس، إذن لابد أنهم يريدون القيام بعمل طيب، فعرضت هذه المسائل على نفسى فوجدت أنى إن لم أقبل قد يقال أننا نطلب الناس الذين نتوسم فيهم الخير ولكنهم يرفضون الحضور من أجل المال فقد كنت أتقاضى هناك ألفين من الجنيهات شهرياً بينما مرتب الوزير ٢٥٠ جنيهاً ولكنى قررت التضحية».

● شيء آخر أورده الوزير الشيخ.. حيث قال والحديث له: **«سبحانك يارب حين تقدر شيئاً يطرق عليك بابك وكان هذا من الأسباب التى حملتنى على القبول حتى يعلم الناس أن ماكتب لك وما قضاه الله عليك سيجيئك ويلح على بابك وليس بأن تلح أنت على بابه.. إذا كان رزقاً فرزقك أعرف منك بمكانك..».**

الأسباب يتفلسف فيها الشيخ الشعراوى وذلك بعد خروجه من الوزارة بحوالى عامين كاملين فهو يجعل المسألة رزق ساقه الله إليه، ومادام رزقاً.. فرزق الإنسان أعرف منه بمكانه.

كان هذا موقف الشيخ الشعراوى الذى كله التردد بين الرفض والقبول، لكن ماذا كان موقف من حول الشيخ الشعراوى؟

هناك موقفان بارزان وضحا من خلال حديث الشيخ الشعراوى عن هذه المرحلة..

● **الأول:** موقف ابنه سامى الذى كان معه فى السعودية، حيث قال الشيخ لابنه:

ـ «ماذا ترى؟ مارأيك يابنى؟!».

فقال سامى:

ـ «صحيح أنك غريب عن مصر منذ ٢٦ سنة ومواقفك معروفة مع جمال عبدالناصر، فإذا ماجاء السادات وترك كل من يعرفه فى مصر واخذ يسأل عن رجل يعمل فى مكة فمن الجائز أنه يريد أن يعمل تغييراً وأن فى ذهنه شيئاً فتوكل على الله».

كان هذا الموقف يؤيد اتجاه الشيخ للقبول، ولا نستطيع بأى حال من الأحوال أن نعزل ابن مولانا عن وسط اجتماعى عاش فيه.. صحيح أن الأوضاع المالية كانت جيدة لدى الشيخ وأبنائه.. ولكن الوجاهة الاجتماعية التى يضفيها لقب وزير جذب لب الابن ولابد أن الابن وضع فى ذهنه أيضاً مايستطيع والده أن يفعله من خدمة لدين الله وإصلاح حال الأزهر وحل مشاكل الأوقاف.. ولكن أيضاً الإحساس بأن الأب وزير شىء آخر.. ففى ذلك كثير من القوة والنفوذ.. فمعنى أن يكون الشيخ وزيراً فهذا تتويج لجهوده وجهاده طوال حياته، وما أجمل أن يرى الابن أباه وهو يجلس على كرسى الوزارة..

أيّد أيضاً بعض المقربين من الشيخ قبوله الوزارة وقالوا له أن هذه تجربة يجب أن يخوضها الشيخ لعل فيها الخير لخدمة الوطن والرسالة..

● فريق آخر رفض تماماً أن يقبل الشيخ الوزارة وكان على رأسهم سيد جلال، صديق الشيخ الشعراوى الصدوق الذى عندما يتحدث عنه الشيخ الشعراوى الآن يقول «عم سيد جلال»..

وسيد جلال تحدث عنه الشيخ الشعراوى كثيراً.. وحديث الشيخ عنه مهم للغاية، فسيد جلال رجل من أسيوط جاء إلى القاهرة وهو يجر أحد المراكب الشراعية فى النيل بالحبال..

ورغم الفقر والحاجة والضعف خرج هذا الفتى حافى القدمين الذى يضيق بزحام القاهرة يشق طريقه إلى القمة.. وكانت البداية من محطة مصر حيث عمل كشيال.. وبدون مبالغات أو دخول فى مزايدات أو عدم تصديق لحديث الشيخ عن صديقه..

فسيد جلال قدر له أن يشق طريقه بقوة وأن يصبح فى سنوات قليلة من كبار المصدرين والمستوردين فى مصر وأن يلعب دوراً هائلاً فى الحياة السياسية وأن يكون نائباً فى برلمان سنة ١٩٤٥ وأن يرتبط اسمه بدائرة باب الشعرية على مدى سنوات عديدة قبل الثورة وبعد الثورة وأن يكون شيخ النواب وشيخ البرلمانيين..

يضيف الشيخ الشعراوى أن صديقه سيد جلال كان له دور كبير فى إلغاء قانون البغاء عام ١٩٤٧ .. وكان ذلك من مآثره البرلمانية، ولما حاول بعض النواب إعادة البغاء مرة

أخرى وقف له سيد جلال فى جلسة عاصفة فى البرلمان.. كانت حجة النائب أن إعادة البغاء سيجعله محصوراً فى دائرة محددة وأن البغايا سيتم الكشف عليهن صحياً على فترات متقاربة وهو مايحمى من الأمراض السرية وانتشارها وأن الشباب سيجد فى بيوت البغاء الرسمى مايبعده عن التعرض للنساء فى الشوارع..

يومها قال سيد جلال:

- «إن الذين يعتقدون أن إلغاء البغاء يؤدى إلى انتشار الأمراض السرية أكثرهم على خطأ وعندى الإحصائيات التى أعلنتها المؤتمرات الطبية العالمية والتى تثبت أن الأمراض السرية تنتشر أكثر فى الدول التى تعرف نظام البغاء وتقل فى التى حرمته..

والذين يقولون أن الشباب بكل غرائزه الجنسية لايعرف أين يذهب وماذا يفعل؟!

هؤلاء يتصورون أن الشباب عجل يجرى تسمينه وتكبيره علشان «ينط» وأن علينا أن نهيىء له بيتاً للدعارة.. ونساعده على الفساد.. وينسى هؤلاء أن مشكلة الشباب أكبر وأعمق.. الشباب يعانى من الفراغ ومهمتنا أن نهيىء له مجالات العمل.. ليعمل ويتزوج ويقيم أسرة، فالعمل سيعود عليه بالنفع وعلى الدولة بالفائدة..

إن مصر نسيت البغاء ولم تعد هذه المسالة فى أفكار أحد وإذا كان صاحب الاقتراح بإعادة البغاء مُصراً على اقتراحه فعليه أن يتبرع لنا بخمس سيدات من أسرته ليكن نواة لإحياء المشروع من جديد».

هذه الكلمات نوردها عن سيد جلال صديق الشيخ كى ندلل بها على مدى عمق شخصية هذا الرجل.. ومدى عمق تجربته فى الحياة، فقد وصل الرجل لكبير النواب وكبير البرلمانيين بعد رحلة كفاح غاية فى الروعة من شيال فى محطة مصر إلى رجل يجلس على كرسى البرلمان يحاول أن يصنع مستقبلاً مشرقاً لمصر.. يناقش فيما كان على خطأ.. والدليل مقاومته للبغاء.. يقف صلباً لايتنازل عن هدفه..

سيد جلال كان أعرف من الشيخ الشعراوى بألاعيب السياسة وحقارتها.. كان يدرك تماماً أن المناصب السياسية ستقود أصحابها ولو كانوا ملائكة إلى ما لايرغبون فيه.. هذا الرجل وقف على رأس الذين عارضوا تولى الشيخ الوزارة..

الشيخ يقول:

- «فريق يقول لا.. لا تقبل الوزارة، وهذا الفريق كان على رأسه الصديق الدكتور سيد جلال، وأخذ هذا الفريق يعدد لى المتاعب والصعاب التى سأواجهها والتى ستشغلنى عن أى عمل مفيد».

لم يسمع الشيخ الشعراوى كثيراً لهؤلاء الناس وقبل المنصب!! الآن وبعد أكثر من عشرين عاماً ونحن نتحدث عن تجربة الشيخ فى الوزارة نسأل:

هل كان من المفروض أن يقبل الشيخ الوزارة؟!

بداية ليس من حقنا أن نقول يجب على الشيخ أن يفعل ذلك أو لايفعل هذا..!! لسبب بسيط أن الشيخ يدرك تماماً ما يفعله ونتائجه ومايمكن أن يترتب عليه.. وهو من الطبيعى أنه لا ينتظر أحداً يقول له كان من المفروض ألا تقبل الوزارة ياشيخ، أو مثلاً خيراً ما فعلت قبولك الوزارة يامولانا..!!

كل هذا كلام ليس له محل من الإعراب مطلقاً..

وفى الوقت الذى يصادر منا هذا الحق.. فنحن نتمسك بحق مناقشتنا للقرار.. مناقشة حيادية للغاية.. ولا تأتى المناقشة إلا لأن الشيخ يحتل مكانة عالية وكان ينظر إليه بعين الإكبار ساعة تولى الوزارة وكان يقوم بجهود كبيرة فى الدعوة الإسلامية.

فهذا أحمد زين يكتب فى يوميات الأخبار مانصه: **«إننى أتمنى ألا يصرف منصب الوزارة الشيخ الشعراوى عن الدعوة وذلك أن مهمة الدعوة الإسلامية هامة فى هذه الفترة التى تتصادم فيها المدنيات وتتصارع الأفكار..».**

وكتب عبداللطيف فايد فى جريدة الجمهورية: **«لم يهتز وجدان لاختيار وزير من المشاهير فى الوزارة الجديدة وما سبقها بقدر ما اهتز لاختيار الشيخ**

الشعراوى.. ذلك لأن الشيخ الجليل على عهد الجماهير به هادياً إلى كلمة الحق بالبساطة التى تدخل القلوب مباشرة وقد عرفته مصر على مستوى جماهيرها منذ نحو ثلاث سنوات فقط.

لكن الشيخ الشعراوى دخل قلوب الناس من أول نظرة ومن أول حديث وهذا يترجم بصدق إخلاصه العميق المتفانى..».

الشيخ إذن ساعة أعلن قبوله للمنصب كان يلعب دوراً روحياً كبيراً للغاية، والأكبر من ذلك أن الرجل كان يُنتظر منه أن يقوم بدور كبير فى مجال الدعوة الإسلامية..

رؤيتى الشخصية والتى بنيت على أساس قراءة ماقاله الشيخ بعد ذلك عن فترة وزارته وماوصف به هذه الفترة.. كان من المفروض ألا يقبل الشيخ الشعراوى المنصب ولذلك أسباب كثيرة منها:

أولاً: ما قاله الشيخ بالفعل عن غيابه عن مصر أكثر من ربع قرن.. ربع قرن كفيل بأن يبعده عن مشاكل مصر وانفعالات مناخها الصاخب.. لم يكن الشيخ على دراية كاملة بما كان يعانى منه الناس فى مصر.. ومنهم الدعاة.. والمساجد.

ففى عهد السادات.. غلبته صفة المؤمن التى أضافها إلى اسمه وأصبحت ضرورة أن يرى الرئيس فى المساجد وهو يصلى ليس فى المساجد وحسب ولكن فى بيته أيضاً.. نجده يقرأ القرآن وهو على سجادة فى بيته.. وهو على سريره.. يفتتح خطابه السياسى بآية قرآنية ويختمه بآية أخرى..

صارت مصر فى طريق الدين الشكلى الذى يتظاهر به الحاكم حتى إذا ما أخطأ.. قال الناس فى الشوارع هذا الرجل لايخطىء، إنه رجل تقى وورع.. وليس من المعقول أن يقع فى الخطأ..

فى كتاب «حقيقة السادات» كتب عبدالله إمام أن السادات كان يدبر أن تنقل كل شاشات التليفزيون ووكالات الأنباء فى العالم صلاته يوم الجمعة، وكان الرجل عندما يأتى إلى المسجد ويجد أن كل التليفزيونات ووكالات الأنباء تزاحمت أمام المسجد، كان السادات يقول: «الناس دى عرفت منين إن أنا هنا؟»..!!، وعلامات التعجب من عند عبدالله إمام

بالطبع لأنه بنى كلامه من الأساس على فرضية أن السادات كان يجلب هؤلاء ثم يدّعى أنه لايعرف من أخبرهم بمكانه.

لن نتهم السادات بأنه كان يتظاهر بالتقى والورع والإيمان، لكن الرجل حتى لو كان مخلصاً، فإخلاصه يشوبه بعض الشك.. الشعراوى بكل تأكيد لم يكن يعرف أبعاد الموقف لابتعاده عن مصر فترة ليست بالهينة.

ثانياً: الشيخ الشعراوى رجل دعوة بالأساس يهتم بنشر الإسلام، بالبحث والدراسة، بتوضيح أمور الدين للناس.. ليس للرجل علاقة بالعمل الإدارى ومتاعبه.. ليس محنكاً فيه.. وليست له خبرة به.. الشيخ نفسه يؤكد ذلك أكثر من مرة.. ويقول أنه عندما تولى الوزارة جاءه موظف يقول له أن فلاناً هذا الذى رقيته كتب فيك مذكرة يوم أن كنت مديراً عاماً وتنتظر الترقية لدرجة وكيل وزارة..

وسأل الشيخ من جاءه: «**وماذا كتب فى مذكرته؟!**».

قال الرجل: «**كتب أن الشيخ الشعراوى برغم علمه وخلقه فإنه لايصلح وكيل وزارة لانقطاع الصلة بينه وبين شئون الإدارة**».

ويعلق الشيخ: «**إن الرجل قال الحق والصدق فيما كتبه فأنا فعلاً لا أجيد شئون الإدارة**»!!

انقطاع الصلة هذا الذى يعترف به الشيخ الشعراوى كان يجب أن ينزل عليه ولا يتكبر ويعاند وينسى تلك الصفة فيه، فليس لرجل يعترف بابتعاده عن شئون الإدارة أن يتولى منصب الوزارة..

المدهش أن الشيخ الشعراوى يدخلنا معه دائماً فى حيرة وفى تناقضات على الورق..

فمرة يقول الشيخ الشعراوى فى حواره مع صلاح منتصر رداً على سؤال عن مصير كاتب المذكرة السابقة فى الشيخ..

صلاح منتصر: «.. **وماذا فعلت فى كاتبها؟**».

الشيخ: «.. **رقيته إلى وكيل وزارة لأن الدور كان عليه ولأنه قال الحق والصدق فيما كتبه، فأنا فعلاً لا أجيد شئون الإدارة..».**

لكن في كتاب سعيد أبو العينين «الشعراوى الذى لانعرفه».. قال الشيخ الشعراوى: **«إنه فوجىء بزميل الموظف الذى أنصفه يدخل عليه ويعاتبه كيف وافق على ترقيته بهذه السرعة وهو لايعرف ماذا فعل هذا الموظف»..**

وسأله الشيخ: **«ماذا فعل؟!».**

قال زميل الموظف: **«لقد سبق له يافضيلة الشيخ أن كتب ضدك «مذكرة سرية» يقول فيها أنك لاتصلح وكيل وزارة، وقد كتب هذه المذكرة السرية ضدك عندما وصلت إلى درجة مدير عام، وجاء عليك الدور للترقية إلى درجة وكيل وزارة»..**
وقدم زميل الموظف للشيخ صورة من المذكرة السرية التى كتبت ضده ليؤكد صدق مايقول.

وفوجىء زميل الموظف بالشيخ يشكره ويقول له: **«إنه يعرف قصة هذه المذكرة السرية التى كتبها الموظف ضده وأنه قال فيها: إن الشيخ الشعراوى رغم علمه وخلقه إلا أنه لايصلح وكيل وزارة لانقطاع الصلة بينه وبين شئون الإدارة»..**
وسأل الشيخ زميل الموظف:

- «أليس هذا هو ماكتبه فى المذكرة السرية عنى؟».

قال زميل الموظف: **«نعم هذا بالضبط ما كتبه ضدك يافضيلة الشيخ».**

قال الشيخ: **«وهذا صحيح فأنا فعلاً لا أصلح وكيل وزارة لانقطاع الصلة بينى وبين شئون الإدارة».**

ويضيف الشيخ مبتسماً.

- «ولكنى قد أصلح كوزير..»!!

ما قاله الشيخ هذا كان فى أواخر أيامه.. المنطق تغير ففى الثمانينيات عندما كان بالقرب من الوزارة يعترف بأنه بالفعل لا يصلح للعمل الإدارى..

لكن فى التسعينيات يقول مازحاً ولكنه قد يصلح كوزير!!

ثالثاً: رجل الدين الشيخ الشعراوى.. وأقول الشيخ الشعراوى بالذات كان يجب أن يرفض هذه المهمة الوزارية، لأن الرجل فى ذلك الوقت كان يمثل نوار زهرة القدوة لعلماء الإسلام، فقد كان داعية له أسلوب متميز فى الدعوة.. جهوده العلمية واضحة للجميع.. الدعوة تطلبه وتتمناه.. ما له هو والحكم ومشاغله.. ماله هو وساحة السلطان يدخلها..

صحيح أن النبى ﷺ نهى المسلم عن طلب الحكم والإمارة.. وقال: **«إنا لانعطى هذا الأمر أحداً يطلبه..»**.. دنس السياسة ودناءتها تجعلنا نضيف لما كان يقوله النبى ﷺ أن عالم الدين يجب أن يرفض أن يتورط خاصة إذا اشتم فى الأمر شبهة جعل الدين مطية لأغراض دنيوية.. لكن..

وآه من لكن هذه عندما تعترض كلماتنا..

قبل الشيخ الشعراوى المنصب.. ودخل الوزارة مع ممدوح سالم..

وممدوح سالم واحد من خمسة رؤساء وزارة عملوا مع أنور السادات.. وهم:

● الدكتور محمود فوزى.. تولى الوزارة فى ٢٠ أكتوبر ١٩٧٠.

● الدكتور عزيز صدقى.. تولى الوزارة فى ١٧ يناير ١٩٧٢.

وعندما قامت الحرب تولى السادات بنفسه رئاسة الوزارة.. ثم جاء بعده:

● الدكتور عبدالعزيز حجازى.. وتولى الوزارة فى ٢٥ سبتمبر ١٩٧٤.

● وجاء ممدوح سالم ليتولى الوزارة فى ١٥ أبريل ١٩٧٥.. قام ممدوح سالم بتعديل وزارته ثلاث مرات، مرة فى مارس ١٩٧٦.. ثم فى أول نوفمبر من نفس العام.. وأخيراً فى فبراير ١٩٧٧، حتى خرج من الحكم بعد توقيع كامب ديفيد..

جاء الشيخ الشعراوى فى التعديل الثانى الذى تم فى نوفمبر ١٩٧٦.

كان الرئيس السادات يعتز بممدوح سالم اعتزازاً كبيراً يقرنه باعتراف صريح ويقول:

- «أنا ماعنديش حد يفهم فى السياسة زى ممدوح سالم»..

يظهر ممدوح سالم بصورة مسيطرة فى صورة الحكم فى مصر فى ١٤ مايو ١٩٧١..

تولى وزارة الداخلية وكان أحد أعمدة الحكم فى عهد السادات.. وأكد ممدوح سالم على شجاعة نادرة عندما تولى وزارة الداخلية فى تلك المرحلة الحرجة فى تاريخ حكم السادات لمصر..

وقبل أن نواصل حديثنا عن الرجل نثبت هنا ماقاله موسى صبرى فى كتابه «السادات الحقيقة والأسطورة»، صفحة ٧٨٦.. يقول:

«وكان ممدوح سالم يسعى إلى تدعيم وزارته بالعناصر الجديدة ذات السمعة الطيبة وهو الذى اختار الدكتور بطرس غالى لمنصب وزير الدولة للشئون الخارجية وعرض المنصب الوزارى على السيدة عزيزة حسين ولكنها اعتذرت عن عدم القبول، وهو الذى أدخل فى الوزارة الدكتور عبدالعزيز حسين وزيراً للزراعة وكان من أكفأ وزراء الزراعة ولكنه استقال عندما استقبل الرئيس السادات وفداً يابانياً جاء إلى مصر لمفاوضة وزارة الزراعة فى بعض المشروعات ولم يدع وزير الزراعة إلى هذا اللقاء الذى حضره المهندس عثمان أحمد عثمان.. وعبثاً حاول ممدوح سالم معه أن يعدل عن الاستقالة ولكنه أصر عليها».

لن نشكك فى كلمات موسى.. ولكن سنقدم حسن النية ونأخذ من جملته.. **«كان ممدوح سالم يسعى إلى تدعيم وزارته بالعناصر الجديدة ذات السمعة الطيبة»**.. نأخذ من هذه الجملة دليلاً على أن ممدوح سالم عندما وقع اختياره على الشيخ الشعراوى كان يختار رجلاً حسن السمعة طيب السيرة.. لاشك فى ذلك.. لكن هذا المنهج يحمل قدراً من السذاجة وسطحية القياس، ولا أدرى لماذا أغفل موسى صبرى اسم الشيخ الشعراوى من بين الوزراء.. حتى ولو كان كلامه كأمثلة فقط.. للذين اختارهم ممدوح سالم نزولاً على كفاءتهم وحسن سمعتهم وطيب سيرتهم..

ولست أدرى سبباً فى إغفال دور الشيخ الشعراوى الذى لعبه فى عهد السادات وعدم ذكره فى أى كتاب أو مقال عن عهد السادات..

ثم بعد ذلك لست أدرى إصرار الشيخ الشعراوى على السرد والإطناب والإضافة والزيادة فى كلامه عن دوره فى عهد الرئيس السادات..

ولأن السيد ممدوح سالم كان هو رئيس الوزراء فكان له نصيب من حديث الشيخ الشعراوى عن تجربة وزارته.. وهذه بعض ملامح الرجلين معاً..

يقول الشيخ:

ـ «ذهبت لمقابلة ممدوح سالم.. وقابلته وتحدثت معه طويلاً واتفقنا على المذكرة التى سأكتبها بخصوص إصلاح الأوضاع والعلاقة مابين الأزهر والأوقاف ومنصب شيخ الأزهر، ووعدنى ممدوح سالم بأنه سوف يؤيدنى فى كل ما أراه، وسوف يرفع المذكرة للرياسة ويعمل على الاستجابة لها.. وفى نهاية المقابلة قال لى ممدوح سالم: غداً إن شاء الله موعدك مع الرئيس من أجل حلف اليمين».

ويقول الشيخ:

ـ «كتبت المذكرة التى اتفقت بشأنها مع ممدوح سالم رئيس الوزراء وقدمتها له ورفعتها إلى الرئيس السادات وانتظرت وأخذت أعمل فى ظروف بالغة الصعوبة، وأخيراً قررت الاستقالة وقابلت ممدوح سالم وقلت له الاتفاق الذى جئت على أساسه لم يتحقق والمذكرة التى كتبتها لك ورفعتها أنت إلى الرياسة لم تلق استجابة حتى الآن وأنا أريد أن أستقيل.. وابتسم ممدوح سالم ـ رحمه الله ـ وقال: اصبر شوية ياشيخ شعراوى.. وعندما وجد منى إلحاحاً وتكراراً لمطلبى فى الاستقالة قال: فى العهود الثورية لايسمح للوزير بأن يستقيل.. فقلت: يعنى لازم يترفس؟ قال: اصبر شوية وسوف نحاول الكلام فى موضوع المذكرة التى كتبتها وسوف نتعاون معاً فى حل الصعوبات التى تواجهها..».

ويقول الشيخ:

ـ «وأذكر أننى أخذت كشف حسابى فى البنك والذى يوضح أن رصيدى أصبح ٣٢٥ جنيهاً وقدمته لممدوح سالم وقلت له أننى أصرف من لحم الحى وعندى التزامات ولم يعد عندى فلوس وأنا زهقت فاعتقونى لوجه الله

اعتقونى يرحمكم الله.. وابتسم ممدوح سالم يومها وقال كلمته المعتادة: اصبر ياشيخ شعراوى.. هانت.. أنت وأنا سنخرج معاً قريباً إن شاء الله».

حديث الشيخ الشعراوى عن رجل يظهره وكأنه مسلوب الإرادة.. ضعيف الشخصية.. يضع على لسانه كلمات من قبيل: **«اصبر ياشيخ شعراوى.. أنا وأنت هنطلع منها قريب»**..

لم يضف الشيخ الشعراوى جديداً إلى ملامح الرجل وإن كان أنقصه العديد من الملامح..

فقد كان ممدوح سالم موضع ثقة جمال عبدالناصر كرجل أمن سياسى، وطوال عمله كضابط مباحث.. ثم كرئيس لمباحث أمن الدولة فى الإسكندرية..

كان الرجل يتحلى بفضيلة الصمت والتحرك فى هدوء دون إعلان ودون استعراض لعضلاته.. كان يتولى بنفسه حماية الرئيس جمال عبدالناصر فى رحلاته الخارجية.. لهذا جاء به السادات ليظل بجانبه فترة طويلة للغاية من حكمه..

شىء واحد بقى لنا أن نبحث فيه.. والبحث يحمله سؤال: **«ماذا دار فى رأس الشيخ الشعراوى عندما قبل الوزارة؟!»**.

أعفانا الشيخ من عناء البحث وقراءة ما خلف السطور.. قال الشيخ فى هدوء يصف تصوره لأسلوب العمل فى وزارة الأوقاف وشئون الأزهر:

- «إننى بطبيعتى مشغول بالدعوة للإسلام وجهاز كوزارة الأوقاف والأزهر لاشك سيعيننى على توجيه جموع المسلمين، وأمنيتى أن أصنع رجال دعوة يعشقون عملهم ويعرضون الإسلام عرضاً مستنيراً، فإذا وفقت فالحمد لله»..

قال الشيخ مرة أخرى رداً على سؤال لأحمد زين فى الأخبار.. يحمل استفهاماً عما سيفعله الشيخ فى الوزارة:

- «إن الوزارة لن تشغلنى عن الدعوة الدينية وإنى مقتنع بانى أستطيع تنظيم العمل الروتينى فى الوزارة خلال أشهر والتفرغ للدعوة».

طيب للغاية شيخنا الجليل فى كلماته عن تصوره لمهمته فى العمل فى الوزارة.. سينظم العمل فى الوزارة خلال أشهر ثم يتفرغ للعمل فى مجال الدعوة الإسلامية.. له ماقال..

ولن يمنعنا هذا عن مواصلة الحديث..

●●●

شىء مهم للغاية يجب ألا نغفله، فالشيخ الشعراوى أكد وأقسم أنه صلى صلاة استخارة قبل قبول الوزارة.. يقول الشيخ:

- «قلت دعاء الاستخارة. قلت: اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من عظيم فضلك فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى وعاجله وآجله فاقدره لى ويسره لى ثم بارك لى فيه.. وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى وعاجله وآجله فاصرفه عنى واصرفنى عنه وأقدر لى الخير حيث كان ثم أرضنى به.. هذا هو دعاء الاستخارة.. وقد قلت هذا الدعاء بعد أن قمت بصلاة ركعتين ثم نمت»..

●●●

لقد استخار الله..

ولا خاب من استخار..!!

أليس كذلك..؟!

٥

الصدمة

أول يوم في الوزارة

« الناس يمكن أن يتفاءلوا.. لكن في الفترات القاسية من حياة الناس لايكون هناك إحساس سوى التشاؤم.. والناس تشاءمت.. فحتى لو كان الرجل من أهل الله والدعوة الإسلامية.. فهل تستطيع قطرة ماء طاهرة أن تقضى على دنس بحر كامل من المياه التى بدأت تتحول رائحتها ويتحول شكلها؟!! ».

الشيخ إذن صلى صلاة الاستخارة وبعدها ذهب ليؤدى القسم أمام الرئيس السادات.. وخرج الشيخ الشعراوى يحمل على كتفيه كلمة وزير.. وليس وزيراً للأوقاف فقط ولكنه وزير للأوقاف وشئون الأزهر..

بعد الخروج من مبنى الرئاسة كان من المفروض أن يتوجه الشيخ الشعراوى على الأقل فى اليوم الثانى إلى مبنى الوزارة، لكن الشيخ - حسب روايته - لم يذهب إلى الوزارة فى اليوم التالى لحلف اليمين وإنما بعد عشرة أيام وكان المهندس عبدالعظيم أبو العطا وزير الرى وقتها وقد جاءه فى بيته فى اليوم العاشر ليستفسر عن عدم ذهابه إلى الوزارة وقال له أنه موفد إليه بهذا الخصوص من قِبَل ممدوح سالم رئيس الوزراء.

فقال له الشيخ الشعراوى أنه أمضى هذه الأيام يفكر فى أحوال الوزارة وفى دراسة أوضاعها وأنه سيذهب إلى مكتبه فى اليوم التالى، وفى اليوم التالى دخل الوزير الجديد الشيخ الشعراوى إلى مكتبه بوزارة الأوقاف لأول مرة.

كان لتولى الشيخ الشعراوى الوزارة رد فعل عنيف للغاية.. ودعونا من حكاية أن الرجل لم يذهب إلى الوزارة إلا بعد عشرة أيام على حد روايته، فالشيخ الشعراوى مازال يبحث فى محطات حياته الماضية عن آيات التميز والتفرد التى لايحتاج إليها إطلاقاً.

الشيخ الشعراوى الآن ومن يسير على منهجه يتصورون حكاية تولية الوزارة وكأنها كانت قوة الإنقاذ لكل وجوه الفساد فى الوزارة.. قالوا عنه مثلاً:

● أن الشيخ الشعراوى رشحته كفاءته العلمية ومواهبه العقلية وسلوكه القويم الرشيد جريئاً فى الحق ولا يخشى فيه لومة لائم.. هذا عن أتباعه.

لكن ماذا قال الناس فى الشوارع؟ وماذا كان رد فعل المثقفين؟

الناس فى الشوارع فى تلك الفترة التى تولى فيها الشيخ الشعراوى الوزارة فقدوا اهتمامهم بأشياء كثيرة، شعروا أن الحكومة بدأت تسير فى اتجاه آخر ليس فيه مصلحة الناس بأى شكل من الأشكال..

ولما دخل الشيخ الشعراوى الوزارة لم يقل الناس - وهذا طبيعى - أن الشيخ الشعراوى سيغير أحوال الحكومة، ولكن لابد أنهم قالوا غداً يصبح الشيخ الشعراوى منهم.. واحد من بين أفراد الحكومة لن يغير فى الأمر كثيراً أو قليلاً..

الناس يمكن أن يتفاءلوا، لكن فى الفترات القاسية من حياة الناس لايكون هناك إحساس سوى التشاؤم.. والناس تشاءمت.. فحتى ولو كان الرجل من أهل الله والدعوة الإسلامية فهل تستطيع قطرة ماء طاهرة أن تقضى على دنس بحر كامل من المياه التى بدأت تتحول رائحتها ويتحول شكلها؟!

لم يحسب الناس أن مافعله الشيخ الشعراوى مثلاً يعتبر بطولة وتضحية وفداء رغم أنهم يعرفون أنه فارس من فرسان الدعوة، لكن على مايبدو أن الكلمات لاتصنع التاريخ ولا تخلق ولا حتى صفحة من صفحاته، الأفعال فقط هى التى تستطيع أن تفعل ذلك.. والشيخ الشعراوى ليس من رجال الأفعال ولكنه من رجال الكلمات، والناس لاتثق فى أصحاب الكلمات.. قد تستمع إليهم.. قد تنصت كثيراً.. يجلس الناس أمامهم ويتأملون ماقالوه.

ورغم أن الشيخ الشعراوى يدرك تماماً ذلك فهو أشار - ولا أستطيع فعل ذلك - إلى أنه ربما يكون من الأسباب التى أدت إلى وفاة الرئيس السادات..

يقول الشيخ الشعراوى:

- «قبل حادث الاغتيال بأسبوع كنت أقدم حديثاً فى التليفزيون أشرح فيه الآية التى تقول: ﴿تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير﴾.. وأذكر أننى قلت يومها لا أحد يملك أن يحكم من وراء ربنا ودون إرادة منه، إن كان عادلاً وخيراً فهو جزاء على طاعة عباده وإن كان مستبداً وغير عادل فهو تأديب لعباده، وقلت إتيان الملك خير ونزع الملك خير، فالله ذيّل الكلام بقوله ﴿بيدك الخير﴾ ومعنى ذلك أن إتيان الحكم خير

للحاكم أى مكنه من عمل شيء وخير للناس لأنه جعل الرئاسة والحكم لصالح الأمة، ونزع الحكم خير أيضاً، خير للحاكم لأنه أوقع سيف البغى من يده كحاكم وخير للناس لأنه تخفيف عن الناس من المتاعب والشر الذى يلقونه على يد هذا الحاكم.. وقلت أيضاً أن الحكم يبقى بالهيبة من الحاكم هيبة حراسه منه، فإذا أراد الله أن ينزع الحكم من حاكم فإنه ينزع المهابة من قلب حراسه فيوجهون له الرصاص بدلاً من أن يوجهوه إلى عدوه..

وبعد إذاعة البرنامج اتصل بى المهندس عثمان أحمد عثمان وقال يامولانا الرئيس شاف الحلقة وضحك كثيراً وقال: الشيخ الشعراوى بيعلم الناس إزاى يقتلوا رؤساءهم، قلت له أنا باشرح الآية.. وضحكنا.. وبعد أسبوع وقع حادث المنصة».

لا نستطيع أن نقول أن الشيخ قتل الرئيس ولكن كلماتنا مازالت تأتى فى إطار أن الشعراوى رجل كلمات فقط والناس فى الحكم لا تثق كثيراً فى رجال الكلمات..

لكن ماذا عن المثقفين؟!

المثقفون أصيبوا بما يشبه الصدمة.. بالفعل هذا ماحدث، كانت الصدمة عنيفة للغاية ولذلك أسبابه..

● فالشيخ الشعراوى رجل معروف عنه أنه عالم دين عميق فى فكره وأفكاره ويمتلك قدرة رهيبة على التفسير وتوضيح معانى آيات القرآن الكريم.. ماله إذن والسياسة والحكم. وهو ـ بالنسبة للمثقفين ـ إلى ذلك الحين لم يعرف عنه أحد عمله بالسياسة أو مشاركته الإيجابية فى أحداث الوطن.. الشيخ الشعراوى بعد ذلك سرد عن حياته ومواقفه الوطنية الكثير..

● الشيخ الشعراوى أيضاً لم يكن قد كوّن صورة كاملة عنه ولم يقدم نفسه للناس تعريفاً كاملاً، فالرجل قضى أكثر من ربع قرن خارج مصر.. وتكوين الصورة التى من خلالها يدرك الناس مدى قدرة ومقدرة الشخص لا تأتى إلا من خلال التواجد والحضور الفكرى والثقافى.. والشيخ الشعراوى لم يكن له حضور لا قوى ولا ضعيف فى الحياة الفكرية والثقافية المصرية.

● شيء آخر ومهم للغاية ذكره بعض المثقفين وهو ماوصفوه بأنه كان صدمة كبيرة للمثقفين حيث إن الشيخ الشعراوى كان رجلاً حاصلاً على شهادة أزهرية.. مع كل علمه وفقهه ومقدرته العلمية لكنها مجرد شهادة أزهرية عادية ـ كلية اللغة العربية ١٩٤١ ـ والحصول على إجازة التدريس عام ١٩٤٣.. هذا الذى هبط على الوزارة لم يكن مثلاً حاصلاً على الدكتوراه، ومن المفروض أنه سيقود جيشاً من العاملين فى الوزارة وكثير منهم حاصل على ماجستير ودكتوراه. وقد ثبت بالفعل أن الشخص الذى يحصل على دكتوراه تختلف نظرته بشكل كبير إلى الآخرين فالذى لايحصل على الدكتوراه يكون فى نظره شخص جاهل لايعرف شيئاً.. ونحن وإن كنا نتحفظ على هذا التعبير فحملة الدكتوراه من أهل الوزارة نظروا للشيخ القادم باندهاش.. دهشة ممزوجة بالسخرية حيث ماهذا الذى جاء كى يقودهم.. ماذا يحمل من شهادات؟!.. وكان هذا هو الأساس فى صدمة المثقفين عندما تولى الشيخ الوزارة.

فعمل الوزارة ليس سهلاً وليس عملاً يسيراً.. ويدلنا على عدم فهم الشيخ الشعراوى ما قاله وسبق أن ذكرناه أنه سوف ينظم العمل فى الوزارة فى بضعة أشهر ثم يتفرغ لشئون الدعوة الإسلامية.. وهو مالم يحدث مطلقاً.

●●●

نعود بعد ذلك إلى اليوم الأول فى وزارة الشيخ ونسجل أولاً نص ما أورده الشيخ الشعراوى عن اليوم الأول له فى الوزارة.. قال الشيخ:

ـ «كان يوماً حافلاً بالوقائع المثيرة، فقد اتخذت ثلاثة قرارات كان لكل منها حكاية ودلالة.. كان القرار الأول يتعلق بترقية موظف إلى درجة وكيل وزارة، وفوجئت بزميل للموظف يدخل علىّ ويعاتبنى كيف أوافق على ترقيته بهذه السرعة وأنا لا أعرف ماذا فعل هذا الموظف.. وعرفنى أن هذا الموظف سبق أن كتب ضدى مذكرة سرية يقول فيها أن الشيخ الشعراوى لايصلح وكيل وزارة وقد كتب هذه المذكرة السرية ضد الشيخ عندما وصل إلى درجة مدير عام».

قدم زميل الموظف صورة من المذكرة السرية للشيخ وفوجىء الرجل بالشيخ يشكره

ويقول له أنه يعرف قصة هذه المذكرة السرية التى كتبها الموظف ضده وأنه قال فيها أن الشيخ الشعراوى رغم علمه وخلقه إلا أنه لايصلح وكيل وزارة لانقطاع الصلة بينه وبين شئون الإدارة.

وسأل الشيخ الموظف: أليس هذا ماكتبه فى المذكرة السرية عنى؟ قال الرجل: نعم هذا بالضبط ما كتبه ضدك بافضيلة الشيخ.. وقال الشيخ: وهذا صحيح فأنا فعلاً لا أصلح وكيل وزارة لانقطاع الصلة بينى وبين شئون الإدارة.. وأضاف الشيخ مبتسماً: ولكنى قد أصلح كوزير.

●●●

وفى اليوم الأول أيضاً لعمل الشيخ فى الوزارة عرف قصة الموظف المغربى رئيس هيئة الأوقاف قبل أن يدخل إلى مكتبه ويباشر عمله كوزير.. عرف الشيخ أن الرجل مظلوم ومضطهد وأنه عانى كثيراً وأن قراراً ظالماً وجائراً قد صدر بإيقافه عن العمل ولذلك أصدر الشيخ الوزير قراراً بإعادته إلى عمله.. ومع ذلك لم يسلم الموظف المسكين من المتاعب والملاحقات من بعض الأجهزة الإدارية والرقابية نتيجة الشكاوى الكيدية!

وانتهى الأمر بتلك الأجهزة الرقابية بإقصائه عن العمل قبل أن يفصل فى القضية التى رفعها متظلماً وأرسلت هذه الأجهزة الأوراق إلى رئيس الجمهورية السادات للتصديق عليها.. أى للتصديق على إقصائه عن عمله..

وجاء للشيخ بعض الناس يطلبون منه أن يتشفع للموظف وقالوا للشيخ أن الرجل سيضيع وكلمة طيبة من الشيخ الوزير كفيلة برفع الظلم وإنقاذه..

وبالفعل كتب الشيخ الشعراوى للرئيس السادات.. قال له:

ـ «استشفع بى فلان ياسيادة الرئيس وقد أعلمته أن سيادة الرئيس لم يرفعنى لمرتبة المستشفعين ولكنى أطمع فى أن يجبر خاطرى معكم أن تقبل هذه الشفاعة وأن تكون هى الأولى والأخيرة.

وقرأ السادات الشفاعة وكتب بالقلم الأحمر: **«أنا لا أرد شفاعة الشيخ».**

هذا باختصار شديد ماقاله وقدمه مولانا الشيخ الشعراوى عن تجربة أول يوم فى الوزارة.. وأظن أن القول لم يعد يعوزنا لنؤكد أن الشيخ الشعراوى كلماته ليست قاطعة وليست ملزمة وليست حازمة، فهو لايتحدث عما حدث من واقع مذكرات أو يومياته ولكنه يعتمد على ذاكرته التى يؤكد الجميع أنها ذاكرة حديدية.. هل هى كذلك بالفعل؟.. الله أعلم.

ليس من المنطق أن نناقش الشيخ الشعراوى فيما حدث أول يوم فى الوزارة.. ذاك اليوم الذى جاء بعد عشرة أيام من دخول الرجل الوزارة وهو شيء غريب، حيث إن الوزارة فى البداية والنهاية حتى ولو كان وزيراً هى عمل حكومى، والوزير موظف حكومى وعدم ذهابه إلى الوزارة سيعرضه للمساءلة، ليست المساءلة القانونية بالطبع ولكن الصحافة كانت ستسأل رئيس الوزراء.. المهم كانت هناك عشرة أيام قضاها الشيخ كما يقول فى دراسة أحوال الوزارة ليعلم أين الخلل ويحاول أن يعثر على الحل..

بالطبع المسائل كانت ستسير طبيعية جداً لو درس الشيخ الشعراوى حال الوزارة وهو داخلها، فالمسألة لاتحتاج منه أن يمكث فى البيت ليضع يده على الخلل.. المهم هذا ماحدث..

وإن كان الشيخ الشعراوى يعتبر يومه الأول فى الوزارة يوماً مشحوناً بالأحداث فنحن نراه يوماً عادياً للغاية بل الفترة التى قضاها الشيخ كلها فى الوزارة لم تكن مثيرة، فالرجل للأسف الشديد كان موجهاً من الخارج وهذا ما لم يدركه الشيخ ربما حتى الآن..

والدليل أن الشيخ الشعراوى حتى وقتنا هذا يردد أنه فعل.. وفعل.. وفعل.. ومن ضمن ماقدمه وقاله:

- «إننى أعززت العلماء ووضعت التقاليد التى تجعل الشيخ الأزهرى يتبوأ المناصب الكبيرة فى وزارة الأوقاف ويأخذ حظه منها.. قبلى لم يكن هناك وكيل وزارة من المشايخ كلهم كانوا من الأفندية وكانوا يأتون بهم من خارج الوزارة ومن غير المشايخ ولكنى اخترت أول وكيل وزارة من المشايخ وتمسكت برأيى.. كان المشايخ يقفون عند درجة مدير عام ولايتعدونها فأنا عملت تقريراً قلت فيه

انني ساختار وكيل وزارة من المشايخ واخترت فعلاً الشيخ إبراهيم الدسوقى ليتولى وكيل الوزارة فكان نموذجاً طيباً شرفنى وصار بعد ذلك وزيراً للأوقاف.

وعملت أول بنك إسلامى فى مصر وهو بنك فيصل، ولا أنسى هنا أن أذكر بالتقدير موقف الدكتور حامد السايح وزير الاقتصاد والمالية حينذاك الذى وقف فى مجلس الشعب وقال هذه تجربة جديدة على الاقتصاد المصرى وأنا لا أعرفها ولكنى تنازلت عن حقى فيها لأخى الشيخ محمد متولى الشعراوى وزير الأوقاف وإننى أفوضه فى اتخاذ مايراه من قرارات بشأنها.. وقد نصرنى الله ونجحت التجربة»..

مرة ثانية عن مولانا الوزير وأعماله فى الوزارة نتحدث.. وبداية نقول:

الرحمة يامولانا الشيخ الوزير.. الرحمة بالفعل لأن ماتقوله يجعلنا لانصدق شيئاً.. أى شىء.

فأنت نفسك الذى قلت أن موظفاً كتب مذكرة سرية تقول أنك لاتصلح أن تكون وكيلاً للوزارة لأن الصلة بينك وبين العمل الإدارى مقطوعة وبناء على هذه المذكرة منعوا ترقيتك لوكيل وزارة.. ثم تأتى الآن لتقول أن المشايخ كان ممنوعاً عليهم أن يتولوا منصب وكيل وزارة فقط يصلون لدرجة مدير عام..

نصدق من إذن.. الشيخ الذى قال أنه مُنع من الترقية لمنصب وكيل الوزارة بفعل مذكرة سرية أم الشيخ الذى قال أنه مُنع لأن هناك قانوناً يمنع ذلك؟!.. على كل الأحوال ليقل الشيخ مايرغب فيه..

وإن كان لايحق له مطلقاً أن يقول أنه الذى عزز العلماء وبوأهم مناصب لم يكن ليتبوؤها من قبل.. صحيح أن الشيخ كان سبباً فقط.. سبب من الأسباب التى جعلت المشايخ يرفعون أصواتهم.. ويطالبون بالمناصب فمادام شيخاً.. وليس دكتوراً أو حاصلاً على درجة علمية أرقى منهم وصل إلى مرتبة وزير.. فيحق لأولئك المشايخ أن يصلوا هم أيضاً إلى مرتبة وكيل وزارة.. الشعراوى لم يفعل إذن.. ولكنه كان السبب.. وشتان بين الاثنين.

... أما عن تجربة البنك الإسلامى التى قدمها الشيخ فلا تعليق عليها ويكفينا قول شيخ الأزهر الدكتور سيد طنطاوى عن تجربة البنوك الإسلامية عندما قال أن البلد المسلم الذى يقول عن بنوك فيه أنها إسلامية إنما هو بلد متخلف.. ولا نحتج بشيخ الأزهر على الشيخ الشعراوى، فالله أعلم أن كلاً منهما تصرف فى هذا الموقف من منطلق أنه موظف فى الدولة..

الأول بدرجة وزير..

والثانى شيخ أزهر بدرجة رئيس وزراء..

سبب الاحتجاج فقط أن التجربة ليست ذهباً خالصاً اتفق عليها الجميع ومادامت التجربة اختلف عليها البعض فلا يصح للشيخ الوزير أن يفاخر بها حتى الآن خاصة أنه يفعل ذلك ويؤكد عليه .

٦

يوميات وزير

«ظهور السادات فى يوميات الشيخ الشعراوى كان عادة ظهوراً ظريفاً خفيفاً مغلفاً بالسخرية التى وضعها الشيخ على لسان الرئيس، هذا إضافة إلى سخرية الشيخ اللاذعة التى يعرفها عنه الجميع..».

الكبار يصنعون الأحداث.. ثم يأتى من يكتبها بعدهم.. وهذه سنة الحياة.. ليس كل الكبار بالطبع فهناك من يصنع الأحداث ويقوم بنفسه بتدوينها.. ولذلك أسباب كثيرة لايستطيع الإنسان منا أن يحصيها كلها أو أن يضع يده عليها بشكل دقيق..

فالسادات كتب مثلاً «البحث عن الذات»، وهذا الكتاب على وجه الخصوص يمثل حالة الكبار الذين يصنعون الأحداث ثم يكتبون عنها.. يكتبون بالتفاصيل التى لايعرفها أحد ولا ينتظر أحد حدوثها.. فالسادات تحدث عن طفولته ومعاناته التى اعتصرته فقراً، تحدث عن شبابه وتفكيره فى مصر فى الوطن الكبير، مغامراته من أجل مصر وتجربة سجنه وروحانيات الزنزانة ٥٤، اشتراكه فى حركة الضباط الأحرار والثورة.. كلام كثير عن حياته مع عبدالناصر، توليه الرئاسة، حرب أكتوبر.. مظاهرات الجوع، أو «انتفاضة الحرامية» كما كان يسميها، ثم زيارته لإسرائيل والسلام.

السادات كتب بنفسه - وهذا على الأرجح - وكأنه كان يقول للجميع أبعدوا عن حياتى فمادمت أمتلك القدرة على الكتابة فلماذا أستعين بآخر يكتب لى، يضع فى قصة حياتى بعض همساته واتجاهاته، يجلب ليوميات حياتى ألفاظه هو وكلمات قاموسه التى أفرزها مشوار حياته هو.. وليس مشوار حياتى أنا..

ويمكن أن نصدق ذلك خاصة والسادات عمل لفترة بالصحافة وكان يكتب مقالات كثيرة، وعلى حد روايته أن إحسان عبدالقدوس أخذه من يده وهو رئيس مجلس إدارة روزاليوسف وذهب به إلى دار الهلال ليعمل بها فروزاليوسف لاتتحملهما معاً.. وسبب عدم التحمل أنهما كاتبان كبيران!!

كتابة قصة الحياة بهذا الشكل تعطى لمن يريد الفرصة والمادة التى من خلالها يفهم الدوافع النفسية التى شكلت هذا الشخص وهو ماحدث بالضبط من محمد حسنين هيكل عندما كتب خريف الغضب وأخذ مما قاله السادات مادة للتفسير والتحليل والتنقيب فى

نفسية السادات.. الأمر ذاته فعله عبدالله إمام فى كتابه «حقيقة السادات» وهو فعل أكثر من هيكل حيث بحث عن حقيقة السادات من خلال سطور الكتاب كلها.. فعبد الله إمام من عنوان كتابه كان يهدف إلى كشف حقيقة السادات، ولذا قام فى كتابه باستعراض ما قاله السادات، فيقول ويقول السادات كذا.. ويضيف السادات كذا.. ويؤكد السادات على كذا..

الغريب - وإن لم يصبح هناك شىء غريب فى حياتنا - أن كتاباً فى الفترة الأخيرة ظهر ويحمل عنوان «التحليل النفسى للسادات».. وكان «البحث عن الذات» هو المصدر الرئيسى والأساسى للحديث وتحليل الرجل النفسى.

ليس معنى ذلك أن يمتنع الناس عن كتابة يوميات حياتهم بحجة أن مايكتبون يدخل فى مفرمة الكُتّاب والمؤلفين ويقيمون له مجزرة يحللون ويصوغون ويحذفون من أجل الخروج بتيمة معينة أو هدف خاص.

على العكس تماماً ولو تغاضينا عن هذه النقطة فإن كتابة يوميات الكبار مسألة مهمة للغاية حيث إنه يضيف المزيد من الحيوات لحياتنا نعرف من خلال مايكتبون تجاربهم.. ومافعلوه..

وإذا كان السادات قد كتب حياته وأفاض فيها وصور نفسه الصانع لكل شىء.. نقطة البداية هو ونقطة النهاية أيضاً.. فإن الشيخ الشعراوى لم يمسك قلماً ويكتب قصة حياته بنفسه ولم يخرج إلى الآن كتاب يحكى حياة الشيخ الشعراوى مكتوب بطريقة كتابة السير الذاتية.

نعم هناك كتب كثيرة وكثيرة للغاية تتكلم عن حياة الشيخ الشعراوى.. طفولته ويوميات هذه الطفولة.. دخوله الأزهر.. مواقفه الوطنية.. حكاية زواجه وتربيته لأبنائه.. تجربة سفره إلى السعودية والجزائر.. تجربته فى الوزارة.. فترة التفرغ التام للدعوة الإسلامية.. علاقته بأبيه وبأصدقائه..

كل ذلك وبإفاضة شديدة حتى أن الشيخ الشعراوى وصل لدرجة أنه الرجل الوحيد وأقول الوحيد عن يقين فى مصر الذى أصبحت كل صغيرة وكبيرة فى حياته معروفة..

نصدق الرجل أنه لايسعى مطلقاً لذلك ولا يهتم به ولا يرغب فيه، وربما يحزن، وربما يطلب كما فعل مؤخراً عندما نزل إلى الأسواق كتاب يحمل صورته ومكتوب عليه العنوان «الشيخ الشعراوى .. أنا من سلالة أهل البيت».. أرسل الشعراوى للصحف يعترض ويناشد الذين يكتبون باسمه وعلى لسانه عن حياته أن يتقوا الله فيه وألا ينسبوا له مالم يقله.

وكان هذا مؤشراً خطيراً ودلالة أخطر على أن حياة الشيخ الشعراوى يتم العبث بها وعلى أعلى المستويات.. وعندما تتصفح الكتب التى تحدثت عن الشيخ الشعراوى تقع فى موجات متتالية من الحزن.. الحزن على قيمة يشوبها بعض الزلل.. نعم. لكنها قيمة تبعثر حياتها هكذا على الطرقات ولا يوجد من يقول اتقوا الله فى الرجل..

نحزن أيضاً لأنه على الرغم من كثرة التفاصيل والحكايات عن حياته، فإن حياته غامضة باهتة مسلوبة الحياة يحكى وكأنه يتسلى أو على الأقل يحكى لأصدقائه عما يحدث فيمليه كتيبة الكتبة ويقولون أن هذه حياة الشيخ الشعراوى.

ولأننا نتحدث عن وزارة الشيخ الشعراوى.. تلك الفترة التى أضيف إلى اسم الرجل فيها لقب «وزير الأوقاف وشئون الأزهر».. فقد ركزنا مما كتب عن تلك الفترة.. بتعبير أكثر دقة تركز اهتمامنا حول ما قاله الشيخ الشعراوى عن فترة وزارته، عزلنا كل ما أضافه الآخرون وخرجنا بكلمات الشيخ لنقول أن هذه يوميات ننسبها له ولم لا وهو من قالها..

الكتب والحوارات الصحفية تؤكد ذلك فأسئلة وبعدها إجابات من الشيخ وسرد لموقف ثم تعقيب يبدأ ويقول الشيخ الشعراوى كذا..

فمادام الشيخ الشعراوى يقول كذا فهذه إذن كلمته. هذه هى شهادته.. ومادمنا لن ننسب إلى الرجل ما لم يقله أو نضع على لسانه شيئاً لم ينطق به فإن هذه هى يوميات الرجل..

وبعد قراءة اليوميات يبدأ كلامنا نحن أو بمعنى آخر تبدأ يومياتنا مع يوميات الشيخ الشعراوى..

١ ــ الدعوة والوزارة:

تمنى البعض أن أرفض المنصب وأكتفى بالعرش الذى لى فى قلوبهم لإدراكهم وعورة الميدان وصعوبة السير فى دروبه فإن النجاح فى ميدان الدعوة لايعنى بالضرورة النجاح فى الميدان الإدارى.. لكن البعض قال قد ينير الله تعالى لى الطريق فتكسبنى الدعوة وتكسبنى الوزارة ويظل لى عرشى الذى أحتله فى قلوبهم.

٢ ــ رجال الدعوة:

أتمنى أن أجعل رجال الأوقاف يعشقون الدعوة الإسلامية يلتزمون بالقيم الأخلاقية التى حددها لنا الخالق.

٣ ــ رجال الدعوة:

أستطيع بجهاز الوزارة الآن والذى لا أشك فى أنه سيعيننى على توجيه المسلمين الوجهة الصحيحة والسليمة، وسأعمل جهد الطاقة على أن يصنع الجهاز رجالاً يعشقون الدعوة الإسلامية ويعرضونها عرضاً مستنيراً واعياً، وأسأل الله عز وجل أن يعيننى على هذه المهمة لصالح الإسلام والمسلمين فى الداخل والخارج.

٤ ــ حديث البنك الإسلامى:

أنا أول واحد عمل بنك إسلامى فى البلاد العربية فى دبى ونجح وجينا نعمل التجربة فى مصر ولست أحمد الله على ابتلائى بالوزارة إلا لأنى استطعت أن أصنع البنك الإسلامى فى مصر وعشان ربنا يقول إن فيه تميز البنك الوحيد فى مصر الذى نشأ بقرار من غير وزير الاقتصاد وبتفويض من مجلس الشعب، وهذا التفويض يوافق عليه وزير الاقتصاد حامد السايح.

٥ ــ مقام شيخ الأزهر:

عندما توليت وزارة الأوقاف وشئون الأزهر كان الشيخ عبدالحليم محمود

رحمه الله هو شيخ الأزهر وكنت أحبه وأقدره وأجله لعلمه وخلقه وكنت لا أقبل ولا أسمح لنفسى أن يرسل لى بالقرارات التى يريد تنفيذها لكى أوقعها باعتبارى الوزير حسب ماتقوله اللائحة، كنت لا أقبل أن يرسل لى الشيخ الجليل عبدالحليم محمود شيخ الأزهر القرارات إلى مكتبى فى الوزارة لكى أوقعها له وقلت له يامولانا كل القرارات تبقى عندك وانا الذى أحضر إليك أوقعها، واتفقت معه على أن أذهب إليه فى يوم محدد كل أسبوع لأوقع له القرارات.

٦ ـ مرتب الوزير:

كان مرتبى كوزير للأوقاف وشئون الأزهر هو ٢٧٠ جنيهاً، وأكرر فقط مائتان وسبعون جنيهاً، وكنت أنفق مما جمعته من عملى فى السعودية على احتياجاتى فى الوزارة وكنت أجد نفسى فى مازق عندما يحضر وفد من الخارج وليس فيها فلوس وكان صديقى الحاج أحمد أبو شقرة يرفع عنى الحرج ويتحمل هو دعوة وفود الوزارة على الغداء أو العشاء.

وجاء اليوم الذى لم يعد يتبقى فيه من رصيدى فى البنك سوى ٣٢٥ جنيهاً، وكنت أنفقت كل ماجمعت خلال عملى فى السعودية.

٧ ـ صاحب العمارات..!!

فى اليوم الذى كنت أشكو فيه حالى لممدوح سالم وأقول له أننى أنفقت كل مدخراتى ولم يتبق سوى ٣٢٥ جنيهاً فى حسابى فى البنك، فى ذلك اليوم ركبت السيارة مع سائقى على شريف ليوصلنى إلى البيت وكنت قد تعودت أن أعطيه مرتبى ليتولى هو الصرف على احتياجاتى فى الوزارة وكان رحمه الله إنساناً طيباً جداً وكان يتعب كثيراً، وكثيراً ماكنت أصلى وراءه، كان يعرف أن مرتبى كوزير لايكفى وأننى أصرف من مدخراتى لكنه لم يكن يعرف أن مدخراتى قد نفدت ولم يبق منها سوى ٣٢٥ جنيهاً.

وفى ذلك اليوم أخذ السائق على شريف يلف بالسيارة ليشترى بعض

الاحتياجات واستغربت عندما سمعته وهو يشير بيده إلى إحدى العمارات ونحن فى الطريق ويقول العمارة دى بتاعتنا ياMولانا.. وفى شارع آخر وجدته يشير بيده إلى عمارة أخرى ويقول والعمارة دى يامولانا برضه بتاعتنا.. واندهشت لما يقوله وقلت له:

أنا يا ابنى زهقت من الوزارة وكل اللى كان معايا صرفته وحاسيب الوزارة علشان أشوف حالى وآكل عيش وأنت يا ابنى مادام ربنا كرمكم والعمارتين دول بتوعكم إيه اللى زنقك تشتغل سواق وتتعب نفسك ليل ونهار؟

فقال: لا موش بتاعتنا إحنا.. ما اقصدش كده.

قلت له: أنت من دقيقتين بتقول العمارة دى بتاعتنا والعمارة دى بتاعتنا!!

قال: قصدى بتاعتك يامولانا.

فاندهشت أكثر وقلت له:

يا ابنى أنا معنديش حاجة، الحكاية كلها ماشية على فيض الكريم.

فقال: يامولانا انت موش فاهمنى..

قلت: طيب.. من فضلك فهمنى يا أسطى على.

قال: أنت موش وزير الأوقاف؟

قلت: أيوه ياعلى أنا وزير الأوقاف وشئون الأزهر كمان.

قال: والعمارتين دول بتوع الأوقاف.. يبقوا بتوعنا يامولانا.. موش كده؟

قلت: كده يا أسطى على!

٨ ـ احنا حرامية:

كنت فى جلسة مع السادات وممدوح سالم وقلت لهما هل تظنون أن الشعب يصدق أو يقتنع بأن الوزير يأخذ ٢٧٠ جنيهاً فى الشهر.. ده انتم

جايبين لنا تهمة والناس فاكره إن الفلوس نازلة علينا زى الرز وإننا حرامية.. وضحك السادات رحمه الله يومها طويلاً وقال:

- الصيت ولا الغنى ياشيخ شعراوى!

٩ ـــ كرسى الوزير:

سألنى الرئيس السادات:

- هل صحيح ياشيخ شعراوى أنك لاتقعد على مكتبك فى الوزارة وأنك تتركه وتجلس بعيداً على كرسى إلى جانب الباب تستقبل زوارك وموظفى الوزارة وأصحاب الحاجات الذين يقصدونك كوزير للأوقاف؟

فقلت له:

- أيوه ياريس صحيح الكلام ده.. باقعد على كرسى خرزان جنب الباب..

فازدادت دهشة السادات وعاد يسألنى:

- وإذا كانت هناك ورقة تحتاج إلى توقيع من فضيلة الشيخ الشعراوى وزير الأوقاف وشئون الأزهر فأين توقعها؟

فقلت: وأنا قاعد مكانى على الكرسى الخرزان.

فسألنى وهو يضحك: يعنى بتحط الورق على ركبتك وتوقع عليه.

فقلت: قدامى ترابيزة صغيرة باوقع عليها.

وسألنى: وإيه الفكرة من إنك تترك المكتب والكرسى الجلد المريح والفخم وتجلس بعيداً على كرسى خرزان إلى جانب الباب؟

فقلت: علشان يبقى الباب قريب وساعة ماترفدونى أجرى وأقول يافكيك اتعتقت والحمد لله.

١٠ ـ لا للحفلات الراقصة!!

لم يحدث أن حضرت أى حفلة عامة، لكن هناك واقعة واحدة كنت أنا الوحيد الذى يضع على رأسه عمامة فى حفلة فيها رقص ومغنى، وغضبت لأننى وجدت نفسى فى حفلة لم أكن أتصور أنها كذلك.

كانت هذه الحفلة قد أقامها الرئيس السادات لضيفه الرئيس الرومانى شاوشيسكو الذى أطيح به وأعدم على يد الثوار الشيوعيين وقرأنا عن جرائمه فى حق شعبه ما لم يكن يتصوره أحد لبشاعته فقد ظلت مستورة طوال حكمه شأنه فى ذلك شأن كل الطغاة الجبابرة من الشيوعيين وغير الشيوعيين.

ذهبت إلى الحفلة مع الرئيس السادات ولم أكن أتوقع أن فيها رقصاً ومغنى، كان هناك حشد من الفنانين والفنانات، وعندما بدأت الحفلة وأخذت فقرات الرقص والمغنى تتوالى أحسست بالضيق وحرج موقفى فأنا العمامة الوحيدة فى الحفلة، وفكرت فى الانسحاب بطريقة هادئة وانتظرت حتى تنتهى الفقرة التى كانت مستمرة على المسرح وكانت وصلة غناء لكننى من شدة ضيقى لم أحتمل الجلوس بصورة عادية وانحرفت بالكرسى واتعوجت فى جلستى على نحو يبدو وكأننى لا أنظر إلى المسرح وأننى غير مستريح وكان فى ذهنى الانصراف فور انتهاء فقرة الغناء.

ويبدو أن الرئيس السادات لاحظ ذلك ونظر إلى ممدوح سالم نظرة فهم منها ممدوح سالم مايريده الرئيس، فترك مكانه ومر بجانبى وهمس فى أذنى: «اعدل نفسك يامولانا».. فقلت فى غضب:

ـ أنا اللى أتعدل؟!!

ولم أتعدل فى جلستى واستبد بى الضيق وخرجت بعد انتهاء فقرة الغناء وقلت بعدها توبة فلن أذهب إلى أى حفلة قبل أن أعرف برنامجها.

١١ ــ الست جيهان:

دعتنى السيدة جيهان لألقى محاضرة فى جمع من السيدات واشترطت عليها أن تكون الحاضرات محجبات، ووافقت هى على هذا الشرط.. لكنى عندما ذهبت وجدت حاجة تانية وتضايقت أنا وناديت على واحد وقلت له: هات لى السواق بتاعى على شريف.. وجاءت السيدة جيهان تسالنى: حصل إيه ياشيخ شعراوى؟

قلت لها: ماحصلش حاجة بس حضرتك تقدرى تقومى بالمهمة وتخطبى فيهم بدلاً منى.. وليس عليك من حرج وتركتها وانصرفت.. ويومها غضبت منى.

١٢ ــ محاضرة لضباط المخابرات:

اتصل بى الفريق محمد مصطفى الماحى رئيس المخابرات وقال لى انه مطلوب منى أن أعمل محاضرة لضباط المخابرات وأرد على أسئلتهم..

فسألته: وهل سينشر كلامى؟

قال: نعم، والرئيس السادات مهتم جداً بهذه المحاضرة وأنه طلب أن يتم إعداد مكان للصلاة قريب من مكان المحاضرة وأن تبدأ المحاضرة قبل صلاة المغرب ثم تستكمل بعد الصلاة.

كانت فكرة السادات هى أن يعطى رمزاً أو دلالة على التمسك بالدين.. وذهبت وقلت محاضرتى ودخلنا فى حوار ساخن مفتوح، وفى النهاية قلت أن المخابرات شرعية ولكننى أرجو أن تكون المخابرات استدلالاً وليست استغلالاً ولا استذلالاً، فمشروعية العمل انه وسيلة لاستقرار أو وسيلة لحفظ أو وسيلة كى نحترس من مجىء عدو.. ولكن دون أن نتزيد فى ذلك تزيداً يشبع شهوات النفس.

١٣ ــ أنا الوزير:

لا شك أن السبب القوى الذى دفعهم لاختيارى إنما كان نتيجة لتوفيق خلعه الله علىّ فى مجالات الإعلام مما جعلهم يفسحون لى الصحف كتابة والتليفزيون رؤية وصوتاً، فانا أريد أن أصنع شيئاً لدينى وأمتى، فلم يحرمنى الله التوفيق فى بعض المجالات فسأحاول أن أطهر الجهاز الذى يهيمن على الدعوة من كثير من أنواع الفساد التى تاصلت ومن أناس كانوا محميين من السلطات العليا، فلم يجرؤ وزير قبلى أن يقف منهم موقف العداء ولكنى بحمد الله وقفت وسبب ذلك لى عداء السُلطة، غير أن الرأى العام كان من جنودى فلم يستطيعوا أن يعملوا معى شيئاً وتمسكوا بى مكرهين بعدما رأوا نوابهم من جملة المؤيدين والمصطفين، فلما سنحت الفرصة لتحقيق أملهم وأملى إذ عجب الناس أنى قبلت الوزارة وقد لاتتسع ظنونهم للسبب الذى من أجله قبلت، فوالله لقد قبلتها ليعلم الناس أن ماكان سوف يأتيك حتى لايتعب الناس أنفسهم من قرع أبواب الآخرين لبلوغ بعض المآرب وأن رزقك من المال والشهرة أعرف بمكانك منك بمكانه.. ولكنى أحسست أن هناك عملية تلفيق لعمل إسلامى فى نظام وضعى وهذا هو سر التعب، كانت الأمور تسير بالحداقة كما يقال، والحداقة لاتسير نظاماً إسلامياً وهذه هى المعادلة الصعبة.

١٤ ــ آخر مرة:

التقيت بممدوح سالم قبل إقالة الوزارة باسبوعين وكررت له مطلبى فى الاستقالة وترك الوزارة بعد أن استبد بى الضيق ولم أعد قادراً على تحمل المزيد، فرد ممدوح سالم: انتظر ياMولانا.. سنخرج معاً قريباً جداً.. استوقفتنى عبارة «قريباً جداً..» فسألته: صحيح ياسى ممدوح حيعتقونا قريباً جداً؟

قال: صحيح.. وسوف تسمع بذلك خلال أيام.

قلت: ربنا يبشرك بالخير.. وضحك وضحكت أنا أيضاً.

١٥ ـ تصفيق وتحية:

كانت عندنا جلسة فى مجلس الشعب وانتظرنا مجىء الرئيس، وفجأة دوت القاعة بالتصفيق الحار الذى استمر لمدة ملحوظة فتوقعت أنه السادات وأنه حضر أخيراً، لكنى فوجئت بأن التصفيق الحار كان تحية لممدوح سالم.. لقد استقبله المجلس استقبالاً حافلاً بعاصفة من التصفيق.. قلت له يومها: ياممدوح.. كفاك هذا التكريم.

وبعد يومين اثنين سلم ممدوح سالم السيارة التى كان يركبها إلى الحكومة باعتبار أن مهمته كرئيس للوزراء قد انتهت.

١٦ ـ الرائحة النظيفة:

كنت فى رحلة إلى بريطانيا لحضور أحد المؤتمرات وكان هناك أحد المسئولين الإنجليز وهو وزير التعليم البريطانى، الذى سأل: من يكون هذا الشيخ؟ فقالوا له: هذا الشيخ هو الشعراوى وزير الأوقاف وشئون الأزهر فى مصر.. فقال: إنه يعمل مع رئيس الوزراء النظيف ممدوح سالم.. شوفوا الريحة النظيفة بتروح لغاية فين؟!!

١٧ ـ بتتعشى إيه؟!

ذهبت إلى ممدوح سالم ذات مساء فوجدته مستغرقاً فى العمل وسألته هل تعشيت ياسى ممدوح؟

فقال: لم يات وقت العشاء بعد.. قلت: وأين ستتعشى؟ قال: هنا.. قلت: ستطلب العشاء هنا؟ قال: العشاء موجود وإذا كنت تحب أن تشاركنى فيه فأهلاً وسهلاً ويمكن أن نضاعف الكمية فوراً.. قلت: وماذا سناكل إن شاء الله؟ قال: الموجود.. إلا إذا أحببت أن أحضر لك العشاء الذى تريد. قلت: وماهو الموجود؟ قال: الخير كتير والحمد لله.. والأكل فى الثلاجة.. وذهبت وفتحت الثلاجة فوجدت فيها عشاء رئيس الوزراء وهو عبارة عن رغيفين وقطعة من الجبن وحوالى ربع كيلو طماطم!

١٨ ـ حديث مع السائق:

سائق سيارتى على شريف كان إنساناً طيباً وعمل مع كثير من الوزراء وكنت أسأله ونحن فى الطريق:

ـ كام وزير دوبتهم ياوله؟

فيضحك ويقول: كتير يامولانا!!

١٩ ـ الجزمة الإيطالى:

ذهبت إلى روما لكى نقيم المركز الإسلامى هناك، وكان هذا المركز قد أخذ من المفاوضات لإنشائه حوالى ١٥ سنة، وتدخلت فيها الفاتيكان.. كانت الفاتيكان رافضة فى أول الأمر ثم وافقت بعد ١٥ سنة من المفاوضات وذهبنا لوضع حجر الأساس للمركز الإسلامى والمسجد الملحق به، وروما كما نعرف مقامة على سبع ربوات وكان من توفيق الله لنا أن المركز أقيم فى أحسن ربوة وكان موقعه فى حى باريولى وهو من أرقى أحياء العاصمة الإيطالية..

وقبل السفر كنت قد التقيت باثنين من الزملاء الوزراء المهندس عبدالعظيم أبو العطا وزير الرى وتوفيق عبدالفتاح وزير التموين.. فسألانى: حتسافر إيطاليا بكره يامولانا؟

قلت: أيوه.. إن شاء الله.

فقالا: إيطاليا مشهورة بالجزم المتينة الكويسة اللى فيها ذوق..

قلت: هذا صحيح..

قالا: كل واحد منا عاوز جوزين أسمر وبنى والمقاس هو كذا وكذا..

قلت: طيب.

وسافرت وأدينا مهمة وضع حجر الأساس للمركز الإسلامى والجامع الكبير الملحق به واشتريت الجزم المطلوبة للزميلين الوزيرين واشتريت لنفسى

جوزين أسمر وبنى ورجعت إلى مصر وأعطيت لكل وزير الجزمتين بتوعه، وحدث فى اليوم التالى أن كان هناك لقاء للوزراء مع السادات فى قصر عابدين.. ودخل الوزير عبدالعظيم أبو العطا، فلمح السادات الجزمة الجديدة فى قدمه فسأله وسط الحاضرين:

- الجزمة الشيك دى منين ياعبدالعظيم؟

فرد عبدالعظيم أبو العطا: من مولانا الشيخ الشعراوى اشتراها لى من إيطاليا..

وبعد فترة دخل الوزير توفيق عبدالفتاح، فلمح السادات الجزمة الجديدة فى قدمه.. فسأله هو الآخر:

- إيه الحكاية؟ الجزمة الشيك دى منين ياتوفيق؟

فرد توفيق عبدالفتاح: من مولانا الشيخ الشعراوى اشتراها لى من إيطاليا.

ودخلت أنا بعدهما ففوجئت بالسادات لاينظر إلى العمامة وإنما إلى الجزمة التى فى قدمى وكانت جزمة قديمة ولاحظت أيضاً أن الوزراء الحاضرين يفعلون نفس الشىء وهم يبتسمون، وفوجئت بالسادات يسألنى فى دهشة:

- فين الجزمة الإيطالى يامولانا؟

فضحك الوزراء وضحكت أنا الآخر وقلت:

- شايلها فى البيت عشان مقابلة الحكام..

وضحك السادات وقهقه طويلاً.. وضحك معه الوزراء.

٢٠ ــ أنا والشيعة:

جاءنى من الشيخ محمد حسين مخلوف مفتى الديار المصرية هذه الرسالة والتى نصها:

«حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ الشعراوى حفظه الله.. تحيات وإجلال وبعد.. فقد هال الناس مانشرته الصحف بما دار بينكم وبين داعية الشيعة الإمامية من الحديث والآراء، ومعلوم على ما أجمع عليه اهل السنة بشأن الإمامة بعد الرسول ﷺ من أن الخليفة بعده هو أبو بكر الصديق ثم عمر ثم عثمان ثم على، وأن ماذهب إليه الشيعة الإمامية من الإمامة بعد الرسول ﷺ لعلى بن أبى طالب ثم لمن يليه إلى الإمام الثانى عشر باطل فى القول وزوراً، وكذلك من الباطل مايزعمونه بشأن الإمام الثانى عشر وخروجه آخر الزمان قرب الساعة ومعه ماحذف من القرآن بشأن خلافة على بعد الرسول ﷺ إلى آخر ماهو مكتوب فى كتب الشيعة الإمامية فى هذا الشأن. كما أنه معلوم لفضيلتكم ماقام به هذا الداعية من إنشاء جماعة التقريب وإنشاء مجلة لها بمصر وانطواء الشيخ شلتوت لها مع نفر من المنحرفين عن أهل السنة والجماعة وماحرص عليه من وجوب تدريس مذهب الشيعة الإمامية بالأزهر أسوة بالمذاهب الأربعة وماتبع ذلك من أقوال وأعمال.

إن افتراق أمة الإسلام إلى ثلاث وسبعين فرقة وأنها كلها فى النار إلا واحدة وهى أهل السنة والجماعة وهم من كانوا على ماعليه الرسول ﷺ وأصحابه معلوم لفضيلتكم وأن بلادنا مذ حماها الله من التشيع الضال وأقام أهلها على مذهب أهل السنة والجماعة ينصحون بكتاب الله وسنن رسول الله ﷺ ويفعلون السنن عن الرواة الأمناء كما فى كتب السنة وغيرها من كتب الحديث، ومعلوم لفضيلتكم مايقوله الشيعة الإمامية وغيرهم من فرق الشيعة البالغة خمس عشرة فرقة فى شأن الخليفة الحق أبو بكر الصديق وأصحابه الذين بايعوه ومنهم عمر بن الخطاب من الطعن الشديد.

ومايفعلونه ويقولونه فى المدينة المنورة وإلى الآن حين يحضرون للزيارة من الكلام والأعمال التى ينكرها الإسلام بإجماع ويحكم عليها بالبطلان، ونحن جميعاً ندعو إلى الإسلام الحنيف وإلى الاعتصام بكتابه العزيز وسنن نبيه الكريم ﷺ ونعتمد فى رواية السنن على الكتب الستة المعروفة وعلى الكتب الجارية على سننها، ونقرر فى كتب الفقه على المذاهب كل ماجاء فى الكتاب

والسنة الصحيحة وننبذ ظهرياً كل ما افترته الشيعة جميعاً من إمامية وزيدية وغيرهما ونعيش مع الفرق ذوى الأهواء والنحل التى لم تخرج عن الإيمان بالله ورسوله ﷺ معيشة هادئة طيبة لاتكفير فيها لفريق من الفرق، أما مع الفرق الضالة التى تزعم ماهو كفر وضلال فلا يمكن أن نقرها على شىء من مزاعمها بل ننبذه تماماً ونرفع راية الإسلام عالية نقية.

لذلك نقول أن الشيعة الإمامية مبطلة فى مزاعمها بشأن الخلافة وفى حكمها بجواز نكاح المتعة مخالفة لما ثبت فى السنن من بطلانه ونقول أنهم مسلمون ولكن مبطلون فى مخالفة أهل السنة والجماعة، وحسبهم وحسبنا ذلك ويجب أن نكون نحن وهم قوة واحدة للدفاع عن الإسلام وصد هجمات أعدائه من أهل الأديان الأخرى ومن ذوى الملل والنحل الضالة الأخرى المذكورة فى كتب الفرق قديماً وفى التاريخ الحديث كالقاديانية والبهائية والماسونية وغيرها من فرق الضلال والجحود.. ولا أريد أن أطيل على فضيلتكم فى الحديث وإنما أريد إكرام الضيف، لكن لا على حساب أهل السنة والجماعة ولا على حساب نشر مذهب التشيع الإمامى وغير الإمامى فى بلادنا التى برأها الله من الضلال والابتداع فى الدين.

وإن مساعيه لإقامة مذهبه بمصر فى مشيخة الشيخ شلتوت للأزهر وترغيب بعض علماء الأزهر فى الانضمام لجماعته ومجلته بما يرغب معروف للجميع.. فنرجو أن تكون فضيلتكم كما أنتم داعياً إسلامياً قوياً تدعو إليه بما دعا إليه أهل السنة والجماعة، منكراً ماذهب إليه أهل البدع والأهواء، ومن الخير لكم بل من الواجب عليكم بعد كل هذا أن تبين للناس رأيكم فى التشيع عامة والتشيع الإمامى خاصة وأنكم لازلتم نصير أهل السنة والجماعة قولاً وعملاً والله تعالى يوفقك..

وأخشى ما أخشاه أن يستغل الشيعة الإمامية موقفكم من الدعوة إلى نحلتهم ويقولوا أن إماماً من أئمة المسلمين قد انضم إلى مذهبهم وهو الداعية المعروف الشيخ الشعراوى أعاذك الله من ذلك وأبقاك عزاً للإسلام وداعياً قوياً

إلى نصر أهل السنة والجماعة القائمين على قدم الرسالة العظمى بحق ويقين وإخلاص قوى متين.. والله الموفق..

محبكم حسنين محمد مخلوف

وقد جاءتنى هذه الرسالة بعد الضجة التى حدثت عقب خطبة ألقيتها فى الجامع الأزهر فى شهر يناير ١٩٧٧ وأنا فى الوزارة وقلت فى مستهل هذه الخطبة: «إن هذا الأزهر قدر له أن يتحول إلى غير ما أسس من أجله فقد أسس من أجل تدريس المذهب الشيعى الفاطمى، ولكن الله استنقذه ليصبح معقلاً للمذهب السنى النقى..».

وقيل يومها أننى تورطت سياسياً لأن هذا أثار حفيظة الشيعة وغضبوا علىّ.. ثم بعد ذلك نشرت الأهرام خبراً فى ١٨ أبريل ١٩٧٧ يقول: «أعلن فضيلة الشيخ متولى الشعراوى وزير الأوقاف انضمامه إلى جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية وذلك فى حفل تكريم أقامه الوزير لسماحة الإمام محمد تقى الدين القمى زعيم مسلمى الشيعة بإيران ومؤسس جماعة التقريب فى القاهرة وحضر الحفل فضيلة الشيخ عبدالعزيز عيسى وزير شئون الأزهر الأسبق وعدد من علماء الأزهر ورجال الدعوة..».

وفوجئت بمن يقول بعدها أن الشيخ الشعراوى تورط مذهبياً بعد أن تورط سياسياً..!!

٢١ ــ اتعتقنا:

لم يكن رفدى من الوزارة مفاجئاً، فقد عشنا أسبوعين أنا وزملائى فى وزارة ممدوح سالم ننتظر الرفد بين ساعة وأخرى، كنا نعلم أن الوزارة ماشية ماشية وكنا نستمع إلى نشرات الأخبار ونقول خلاص جاءنا الفرج وكنت أكثر الوزراء انتظاراً لهذا الفرج، وعندما صدر قرار الرفد حمدت الله كثيراً.. وقلت خلاص اتعتقنا.

■ **والآن نتحدث...**

هذه ببساطة بعض يوميات الشيخ الشعراوى فى الوزارة، ونسبق كل من يحاول أن يقول أن الشيخ الشعراوى لم يكتب ولم يدون يومياته فى الوزارة، فمن أين لكم بهذه اليوميات.. مؤكد أنها ملفقة؟!

ونطمئن الصارخين حيث إن كل كلمة كتبت فى هذه اليوميات قالها الشيخ الشعراوى وسجلها له من امتهنوا الشيخ الشعراوى، والامتهان هنا نقصد به المهنة وليس الإهانة، فهناك من مهنته الشيخ الشعراوى يكسب من خلفه ويعيش من صحبته ويتقوت هو وأولاده من كلمات الشيخ..

الكلمات إذن موجودة.. وحتى لانشغل القارىء فنحن لم نثبت أسماء الكتب التى جاءت فيها ما أطلقنا عليه اليوميات ولا أرقام صفحاتها واكتفينا بإثبات المراجع فى آخر الكتاب، ومن يتشكك فعليه فقط بالقراءة.

وقراءة يوميات الشيخ الشعراوى فى وزارته من جانبنا تضع أيدينا على العديد من الدلالات الهامة للغاية، وتعالوا نتحدث عما كان..

● فى عدد مجلة الاعتصام الصادر فى مايو ١٩٧٧، أى بعد سبعة أشهر فقط من تولى الشيخ الشعراوى الوزارة كتبت المجلة تعليقاً يقول: «**لقد اختلفت فى قلوب الناس صورة متولى الشعراوى العالم الداعية..**».

وصورة الشيخ الشعراوى فى قلوب الناس تولى بنفسه توصيف جزء منها عندما قال: «**تمنى البعض أن أرفض المنصب وأكتفى بالعرش الذى لى فى قلوبهم**».. هذا بالضبط ماكان.. فالشيخ الشعراوى احتل فى قلوب الناس وقت بزوغ نجمه وسطوعه مكانة عالية للغاية.

الشيخ الشعراوى كان يمثل قيمة كبرى ارتفعت من مستوى الواقع إلى عالم الرمز الرحب الذى يمثل جيلاً رأى فيه أضواء الحكمة الإلهية المتجسدة فى كلماته.

وفى عام ١٩٧٦ ـ وهو العام الذى تولى فيه الشيخ الشعراوى الوزارة ـ كان هو الذى

أمّ الحجيج ودعا لهم فى عرفات فتبوأ مكانة على رأس العالم الإسلامى كله وتكون لدى الناس أمل أنه قد يكون كالمهدى المنتظر أو مسيح آخر الدنيا الذى يجمع المسلمين بعد أن شرذمهم الزمان فيوحد كلمتهم ويملأ الدنيا عدلاً ونوراً بعد أن امتلأت ظلماً وجوراً..

هذه تفاصيل قد يتعجب منها البعض الآن ويقول مثلاً: هل كان الناس عند بداية ظهور الشيخ الشعراوى يعتقدون فيه كل هذا الاعتقاد..

والإجابة بالطبع.. نعم. وهذا ليس غريباً أبداً.. فصورة الشيخ الشعراوى الآن ومكانته وتأثيره تجعلنا نصدق كل شىء عن الشيخ.. فالعامة الآن ـ كما كانوا قبلاً ـ يعتقدون فى قدرات الشيخ الشعراوى الخارقة وكراماته المتلاحقة.. فهو يستطيع أن يشفى المرضى ويذهب عنهم مايعانون من آلام..

الشيخ الشعراوى دخل الوزارة وهو يعلم جيداً مايحتله فى قلوب الناس من مكانة عالية.. صورته لايشوبها شىء من السوء.. حديث الشيخ عن عرشه الذى يحتله فى قلوب الناس يعطينا الإحساس أن الشيخ يعرف تماماً وسيحرص على تلك الصورة من أن يصيبها العطب أو ينالها التراب..

دخل الشيخ الشعراوى الوزارة وهو بهذا التصور عن صورته ومكانته.. أخذته الأحداث التى تؤكد أن الشيخ كان حريصاً على أن تظل صورته كما هى عند الناس.. نعم. لكن يبدو أنه لم يكن حريصاً كل الحرص..

● رغم أن مهام وزير الأوقاف عديدة ومتشعبة لكن يربط الناس دائماً وأبداً بين وزير الأوقاف والدعاة، وهذا الربط ليس هيناً ولا بسيطاً ولكنه ربط وثيق لاينفصل حتى لو سمع الناس من الوزير نفسه أن رجال الدعوة جزء من اختصاصه وليس كل اختصاصه، والسبب ربما يعود إلى أن الحضور الشعبى لأئمة المساجد ورجال الدعوة حضور طاغٍ للغاية فى حياة الناس، فهم كثيراً مايشكون من ضعف الأئمة وبعض ممارساتهم الغريبة، يستمعون لهم لأنهم علماء دين ويتهيبون أن يخرجوا عليهم خشية غضب الله.. لكن على مايبدو أن رجال الدعوة والقائمين على أمورهم لايدركون ذلك..

ما يعنينا نحن فى الكلام أن الشيخ الشعراوى.. ومن واقع كلماته التى قالها قبل أن

يدخل الوزارة أكد أنه يتمنى أن يجعل رجال الأوقاف يعشقون الدعوة إلى الإسلام ولايكون هذا العشق لفظياً نظرياً بالطبع ولكنه عشق يترجم إلى التزام بقيم أخلاقية ثابتة حددها لنا الله.. ويجب أن يدعو الناس إليها.. هذا من ناحية الإعداد..

من ناحية الرسالة الموكلة إلى هؤلاء، فإن الشيخ الشعراوى أكد على ضرورة أن يعرض الدعاة رسالتهم عرضاً مستنيراً واعياً..

وهذا فيه إيحاء بأن الشيخ الشعراوى من كلماته يعرف جيداً ماذا يحتاجه الدعاة على المستوى المادى وعلى المستوى المعنوى، وضع الرجل ذلك على قائمة أولوياته، لكن يبدو أن الحماس لايبقى دائماً مشتعلاً عند المتحمسين.. وانصرف الشيخ الشعراوى الوزير إلى مهام الوزارة وجلسات مجلس الوزراء والسفر إلى الخارج لافتتاح المراكز الإسلامية وجلسات مجلس الشعب.. كل ذلك رائع وجزء لايتجزأ من عمله كوزير.. لكن التزاماته تلك أخرت بصورة أو بأخرى اهتمامه بالدعاة الذين يربط الناس دائماً بينهم وبين وزير الأوقاف، وهذا الربط ليس هيناً ولا بسيطاً، ولكنه وثيق الصلة وللغاية..!!

● الرئيس السادات ـ وهذا طبيعى للغاية ـ ظهر فى يوميات الشيخ الشعراوى وأكثر من مرة، وعلى كل حال فالرجل وزير فى دولة رئيسها الرئيس السادات.

لكن ظهور السادات فى يوميات الشيخ الشعراوى كان عادة ظهوراً ظريفاً خفيفاً مغلفاً بسخرية وضعها الشيخ على لسان الرئيس، هذا إضافة إلى سخرية الشيخ اللاذعة التى يعرفها عنه الجميع..

فالسادات يعلق مثلاً على موضوع مرتب الشعراوى الذى لن يصدق الناس أن وزيراً يحصل عليه، يقول: «**الصيت ولا الغنى ياشيخ شعراوى**».. ويسأله عن سبب عدم جلوسه على كرسى الوزارة ويأخذ هذا حواراً بين أخذ ورد من الشيخ والرئيس يصلان بعده إلى نهاية يؤكدها الشيخ حتى أنهم إذا استغنوا عنه يكون قريباً من باب الوزارة فيتركها ويفر بجلده.. وبالطبع لايعلق الرئيس على كلام الوزير بشىء..

● سمة على مايبدو أن الشيخ الشعراوى لايرغب فى التخلى عنها حتى وهو يحكى عن الرئيس، فالناس اعتادت من الشيخ الشعراوى عندما يتحدث عن نفسه أن يكون هو

نقطة البداية والنهاية والمحرك لكل الأحداث والموجه لكل الشخصيات.. والصامد دائماً وأبداً فى وجه الجميع، فهو فى يوميات وزارته يتحدث بعنف مع جيهان السادات، تدعوه ليتحدث فى محاضرة فيشترط أن تكون الحاضرات محجبات - وهذا حقه - وعندما لاينفذن طلبه يترك الحفل وينصرف وهو غاضب للغاية.. بل الأكثر من ذلك يتحدث بسخرية شديدة ويقول للسيدة جيهان السادات يمكن أن تقومى أنت بالمهمة بدلاً منى ولا حرج عليك مطلقاً.. ويتركها ويمضى..

الأمر ذاته يتكرر عندما يحضر حفلاً ولم يكن يدرى مافيه من غناء، فاعترض على ذلك وجلس جلسة غير معتدلة يُفهم منها أنه رافض، نظر إليه السادات فلم يستجب لنظرته وتوجه إليه ممدوح سالم بعد نظرة نارية من السادات.. ساعتها تحول الرفض الصامت إلى كلمة.. عندما قال له ممدوح سالم:

- **«اتعدل ياشيخ شعراوى»..**

فرد عليه الشيخ الشعراوى:

- **«أنا اللى أتعدل؟!!».**

وبعد نهاية الحفل خرج الشيخ الشعراوى وهو ساخط للغاية.. هل حدث ممدوح سالم أو الرئيس السادات فى شىء من ذلك بعد هذا الحفل؟.. لاندرى.

لكن نعرف أنه لم يحضر بعد ذلك حفلات غنائية اللهم إلا عرض مسرحية «دماء على ستار الكعبة» فى المسرح القومى، ويومها صافح سميحة أيوب واعترض عليه البعض إذ كيف يصافح الشيخ امراة أجنبية.

● رغم أن السادات هو الرئيس وهو موضوع حديثنا هنا، لكن ممدوح سالم فرض نفسه على يوميات الشيخ فى الوزارة، وهذه هى بعض الملامح..

ممدوح سالم رجل - على حد وصف وتعبير الشعراوى - رجل طيب للغاية، صديق شخصى للشيخ الشعراوى، فهو يتحدث معه بدون تكليف، يقول له الشيخ الشعراوى عندما يحدثه «ياسى ممدوح» و«ياممدوح».. المشكلة أن الشيخ الشعراوى عندما كتب عن ممدوح سالم كان مثل الذى يقتل من يحب دون أن يدرى، فحديث الشعراوى عن ممدوح

سالم يظهر الرجل مهزوز الشخصية.. متردداً.. ضعيف الإرادة.. يحدثه الشيخ عن ضعف مرتبه وأنه يصرف من جيبه، فلا يجيبه الرجل بشيء.. يقول له أنه يصرف من مدخراته التى جمعها من السعودية.. فلا يعلق بأى شيء.. يقول له أعتقنى لوجه الله فيبتسم له.. يصرخ فيه أنه زهق ويرغب فى ترك كرسى الوزارة.. فيقول له ممدوح سالم سنتركها كلنا ياشيخ شعراوى..

رغم أن المعروف عن ممدوح سالم أنه كان شخصية أمنية من الطراز الأول استعان به جمال عبدالناصر ومن بعده السادات، وكان وزيراً للداخلية فى فترة اعتقالات مايو ١٩٧١، وكان رئيساً للوزراء فى فترة مظاهرة الجوع ١٧ و١٨ يناير ١٩٧٧.. فترات من أحلك فترات عهد السادات.. فترات حساسة للغاية لاتبرىء الرجل ولا تدينه، ولكن شخصية كانت فى منصب القيادة فى هذه الفترة واستطاعت أن تمضى دون أن يحترق البلد، ليس من المعقول أن يكون مهتزاً أو متردداً أو ضعيفاً.. رغم ذلك الشعراوى تحدث عن الرجل بمنطق حديث مصطبة الريف الذى يشعر الشعراوى بنفسه كاملاً وهو جالس يتحدث للناس من فوقها سواء فى جلساته الخاصة أو فى أحاديثه الصحفية والتليفزيونية..

● أهم مايجذب الانتباه فى مسألة وحدوتة يوميات الشيخ الشعراوى فى الوزارة أن الرجل لم يجلس على كرسى الوزارة مطلقاً، هكذا يقول بمنتهى الاستخفاف ويضع الخبر فى حوار بينه وبين الرئيس السادات، ويجعل منه مادة للضحك والتسلية بعقولنا جميعاً، لانستطيع أن نكذب الشيخ الشعراوى بالطبع فنقول له لم يحدث فأنت كنت تجلس على كرس الوزارة وحكاية الكرسى الذى كنت تجلس عليه بجانب الباب هذه أكذوبة.. لا نستطيع ولا يحق لنا ذلك.. لكن التعليق شديد الأهمية هنا.. هو داء تأصل فى شخصية الشيخ الشعراوى الإعلامية حيث إن الرجل يبحث عن التميز فى كل شيء وبكل شيء ينقب عن الاختلاف.. عن التفرد.. حتى بمثل هذه الحكايات التافهة التى لايمكن لعقل طفل أن يصدقها ولو كانت على سبيل حدوتة قبل النوم.

والسؤال: لماذا يفعل الشيخ الشعراوى ذلك وهو بالفعل متميز على الجميع بعلمه وعمق تفسيره ومنهاجه الجديد فى شرح القرآن الكريم؟!

لماذا يقحم على حياته تفاصيل لاندّعى ونقول أنها لم تحدث.. لكن على الأقل هى لم

تحدث بنفس الطريقة التى يحكى الرجل بها ماوقع؟!.. فأى كرسى صغير جانب الباب.. وأى ترابيزة كنت توقع عليها أوراقك يامعالى الوزير؟!

● الغريب والذى يمكن ألا يصدقه البعض هو موقف الشيخ الشعراوى من الشيعة.. فمنذ سنوات قليلة لاتتجاوز ثلاث سنوات.. قال عن الأزهر الشريف:

«الأزهر الشريف فيه سر وإعجاز، فهو أنشىء قبل ألف عام ليروج لمذهب خاص هو المذهب الشيعى الفاطمى، لكن شاء الله أن يخلصه لمذهب أهل السنة النقى الصافى».

وهذا نفسه ماقاله الشيخ الشعراوى فى خطبته عام ١٩٧٧.. قال:

«إن هذا الأزهر قدر له أن يتحول إلى غير ما أسس من أجله، فقد أسس من أجل تدريس المذهب الشيعى الفاطمى، ولكن الله استنقذه ليصبح معقلاً للمذهب السنى النقى..».

موقف الشيخ الشعراوى ثابت لايتزعزع رغم مرور أكثر من عشرين عاماً على الكلمتين وهذا يحمد له.. وإن كان طبيعياً للغاية أن يظل الرجل على موقفه فهو يتمسك بالمذهب السنى ويدافع عنه والناس يعرفون عنه ذلك ويدركون صلابة الشيخ فى موقفه حتى أن كتاباً صدر مؤخراً بعنوان «الإسلام والسيف» لأحد الكُتّاب الشيعيين وحمل الغلاف صورة للشيخ الشعراوى وللإمام الخمينى وهما يتبارزان بالسيف، والغلاف يحمل دلالة مهمة للغاية حيث إن الشيخ الشعراوى هو المدافع الأول عن المذهب السنى ويقف بضراوة أمام الخمينى الذى يعتبر الممثل الأول للنظام الشيعى.. رغم أنه من المفروض أن يكون على الغلاف صورة لشيخ الأزهر وليس للشعراوى.. ولكن الاتجاه الفكرى يؤكد أن الشعراوى هو صاحب القامة العليا فى الدفاع عن المذهب السنى.

كلام الشيخ الشعراوى فى المرة الأولى اختلف عن كلامه فى المرة الثانية رغم أن المعنى واحد.. لكن موقعية الرجل لم تكن واحدة..

ففى المرة الأولى كان الرجل وزيراً للأوقاف.. تحد من حركته قيود المنصب.. وعندما ثار عليه الشيعة.. كانت الثورة على عالم دين نعم لكنه كان أيضاً وزيراً.. وأخذ الطريق الرسمى الرجل وجلس مع أعضاء لجنة التقريب..

ولجنة التـقـريب هذه بدأت عـام ١٩٤٦ وتبناها بعض رجـال الأزهر الذين ارتبطوا بعلاقات حميمة مع كثير من علماء الشيعة طوال تلك الفترة وحتى أواخر السبعينيات..

ولم يكن هدف اللجنة ـ كما يقول أصحابها ـ أن يترك السنى مذهبه أو الشيعى مذهبه وإنما كانت تهدف إلى أن يتحد الجميع حول الأصول المتفق عليها ويعذر بعضهم بعضاً فيما وراء ذلك مما ليس شرطاً من شروط الإيمان ولا ركناً من أركان الإسلام ولا إنكاراً لما هو معلوم من الدين بالضرورة..

قامت الدنيا بعد ذلك على الشيخ الشعراوى وقالوا أن الشيخ تحول مذهبياً.. الشيخ الشعراوى إنما فعل ذلك مدفوعاً من موقفه السياسى.. كوزير.. والدليل أن الرجل عندما قال نفس الكلام فى التسعينيات لم يقل له أحد أين أراضيك. ماحدث دليل.. ودليل واضح على مايمكن أن يفعله السلطان فى رجل الدين.. الشيخ الشعراوى كان فى وقفته على منبر الأزهر رجل دين يعبر عما يعتقده يؤكد عليه ويعرضه على الناس لايخشى فى ذلك لومة لائم.. بعد أن نزل من على المنبر أجبره السلطان ـ وهو المنصب هنا ـ أن يعدل الموقف وأن يمتص غضب الشيعة فجلس معهم..

لن نبالغ ونقول أن الشيخ الشعراوى تحول إلى الشيعة أو أصبح شيعياً.. المسألة ليست كذلك بالطبع.. ولا نستبعد أن يكون الشيخ كان كارهاً لمثل هذا التقارب.. لكن مقتضيات المنصب فرضت عليه ذلك.

●●●

هذا وغيره كثير للغاية تقودنا إليه قراءة يوميات الشيخ الشعراوى التى استطعنا أن نرصدها أو تلك التى لم نستطع أن نرصدها..

نتيجة مهمة للغاية يمكن أن نسوقها فى سؤال للشيخ الشعراوى ولكل رجل دين.. والسؤال هو: «هل يمكن لرجل دين أياً كان شأنه أن يضمن إذا اقترب من السلطان ألا يتدخل السلطان فى أفكاره وتوجهاته؟ هل يضمن ألا يرغمه السلطان على تغيير موقفه؟!

مرة ثانية.. هذا سؤال للشيخ ولكل المشايخ..!!

٧

تحت القبة

« الشيخ الشعراوى عالم لغة وهو مفسر جيد للقرآن، إلا أن من حوله يستغلونه لمآربهم وضد مبادئه وإن كان هو لايشعر بذلك ».

الشيخ محمد الغزالى

فى عام ١٩٥٩ تم إنشاء المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بقرار وزارى.. كان هذا المجلس تحت المسئولية المباشرة لوزير الأوقاف..

وقبل أن يأتى الشيخ الشعراوى إلى الوزارة كان هناك شخص يدعى «توفيق عويضة» يشغل منصب سكرتير المجلس، وكان نفوذ الرجل قد وصل إلى آماد بعيدة.. وانتشرت رائحة فساده للدرجة التى أصبح فيها الرجل مادة خصبة لكبار الصحفيين..

فكتب مصطفى أمين فى عموده «فكرة»:

«راهننى بعض أصدقائى على أن الشيخ محمد متولى الشعراوى وزير الأوقاف وشئون الأزهر هو الذى سيخرج من منصبه وليس (فلان) سكرتير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الذى يطالب وزير الأوقاف بالتحقيق معه.

كانوا يقولون لى أن سكرتير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية مسنود وأن كل وزير أوقاف أراد أن يخرجه من منصبه هو الذى خرج من منصبه وآخر هؤلاء الضحايا هو الشيخ الذهبى رحمه الله..

وكان من رأيه أن الدنيا تغيرت وتبدلت ـ فى عصر الديمقراطية والحرية وسيادة القانون ينتهى عصر المماليك ـ العصر الذى كان الحاكم يغفر فيه كل الذنوب ماعدا الشرك به فهذا الإله المتأله يغفر للموظف الكبير أن يسرق أو أن يحشش أو أن يختلس أو يهتك الأعراض مادام موالياً «للبيه الكبير»، فالإخلاص والتفانى فى خدمة الحاكم هما الأخلاق الكريمة الوحيدة المطلوبة من الموظف الكبير.. أما الجرائم الكبرى فهى مخالفات بسيطة تقابل بالعفو والابتسام.. اليوم كل المواطنين سواء أمام القانون يطولهم جميعاً بلا

استثناء.. لا فرق بين كبير وصغير.. وإذا تستر أحد على مخطىء كشفته الصحافة الحرة.. أو مناقشة مجلس الشعب».

وكتب إبراهيم سعدة فى أخبار اليوم فى بابه «آخر عمود»:

«لاشك أن السيد فلان سكرتير المجلس يشكل مركز قوة لا مثيل له فى أى بلد فى العالم.. وهذا المركز الخطير تمتد جذوره إلى أعماق السنوات الطويلة الماضية!

فلان «الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية» يعتبره البعض فوق مستوى المحاسبة والمساءلة.. وهو يرأس هيئة ضخمة لها فروع فى جميع أنحاء العالم ويخدمها آلاف من الموظفين والزملاء والأصدقاء والمحاسيب والأنصار والمريدين..

ولهذا السبب لم يستطع أحد أن يقول لا «لفلان» طوال السنوات الماضية وقد حاولت فى العام الماضى - ١٩٧٥ - أن أنتقد ظاهرة الرحلات الخارجية المتعددة التى يقوم بها (فلان) حول العالم بمناسبة وبدون مناسبة، ففوجئت بمظاهرة صاخبة من أنصار (فلان) تحاصر مبنى أخباراليوم وتصلنى عشرات الخطابات والبرقيات من جميع أنحاء الجمهورية تهددنى بالموت والضرب والاختطاف إذا تعرضت مرة أخرى بكلمة نقد واحدة للسيد (فلان)، وقد توقفت عن النقد لأسباب عديدة ليس منها على الإطلاق خوفى من التهديد والوعيد.. بدليل أننى عدت إلى التعرض له فى نفس المكان الأسبوع الماضى عندما اتهمته بتحدى رئيس الوزراء وإصراره على إرسال وفد إعلامى مصرى إلى الولايات المتحدة على حساب الدولة برغم أن ممدوح سالم ألغى الرحلة تمشياً مع سياسة التقشف التى تطبقها الدولة فى الوقت الحاضر، وقد اهتم رئيس الوزراء بكل كلمة كتبتها فى هذا الموضوع وأصدر قراراً عاجلاً بأن يتولى محمد حسين الذهبى وزير الأوقاف التحقيق مع (فلان) أمين عام المجلس فى هذه الوقائع فوراً.. فالاتهامات خطيرة ولا يمكن أبداً السكوت عليها».

الرجل إذن وصل إلى قمة نفوذه ساعة وصل الشيخ الشعراوى إلى كرسى الوزارة..

ومادام الحديث عن وقائع وأحداث.. وجلسات لمجلس الشعب. فتعالوا لانتدخل بل نجعل هذا الباب من الكتاب باباً تسجيلياً نعرض فيه ماحدث من خلال كتابات الآخرين الذين وجدوا أن الشيخ الشعراوى وفق.. وأولئك الذين يرون أنه أخفق..

وهذه شهادة الشيخ الشعراوى على الأحداث.. قبل الحديث.. (يلاحظ أن الشيخ الشعراوى أطلق على سكرتير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لقب «الحوت»).. وهذه كلماته(١).

«عندما تولى الحوت رئاسة المجلس فى مرحلة تالية انحرف به وحصل على تفويضات من بعض وزراء الأوقاف السابقين استخدمها فى تحويل المجلس إلى إمبراطورية سيطرت على وزارة الأوقاف ووزرائها.. عندما وجدت هذا الوضع كان لابد من تصحيحه.. كان كل مااستند إليه الحوت فى إقامة إمبراطوريته وفرض سيطرته هى قرارات وزارية.. قرارات من وزراء.. فأنا ألغيتها كوزير.. وهذا حقى..

لقد غضب الحوت وقعد فى بيته وتصور أن الموضوع قد انتهى عند هذا الحد، لكن تبين لى أن قرارى بإنهاء الحوت وتصفية إمبراطوريته كان بداية لمواجهة ساخنة بدأت من يوم صدر القرار فى أول يوم لى فى الوزارة واستمرت إلى آخر يوم لى فى الوزارة.. كانت معركة.. وهى معركة تكشف عن أساليب الحيتان واحتيالهم فى النفاذ إلى قمة السُلطة.. لقد فوجئت بأن ردود فعل القرار الذى أصدرته بإنهاء الحوت وتصفية إمبراطوريته قد وصلت إلى الرئيس السادات.

وقالوا أن الحوت نجح فى إفهام الرئيس بانه يستخدم إمبراطوريته لخدمة سياسة الدولة فى داخل مصر وخارجها.. وقالوا أيضاً أننى أغضبت بعض القريبين إلى الرئيس بقرار إنهاء الحوت.. وتحولت المواجهة مع الحوت

---

(١) الشعراوى الذى لاتعرفه ـ سعيد ابو العينين ـ صفحة ١٦١.

إلى استجواب لى فى مجلس الشعب.. استجواب لى من أجل الحوت.. وكان هذا شيئاً غريباً.. ويوم الاستجواب وقبل أن اذهب إلى مجلس الشعب دخل إلى مكتبى سكرتيرى الأستاذ خليفة عبدالسلام وقال لى أنه أعد ملفاً كاملاً بالوثائق والبيانات التى يمكن أن أستعين بها فى الرد على الاستجواب فى مجلس الشعب وكلها وثائق ومستندات تدين الحوت وتكشف عن انحرافاته وتجاوزاته، لكننى رفضت أن آخذ هذا الملف وقلت له لن آخذ ورقة واحدة من هذا الملف معى.. ولن أدخل بورقة فى يدى!!

وفعلاً ذهبت إلى مجلس الشعب ودخلت وليس فى يدى ورقة، وبدأ الاستجواب وقالوا كل ماعندهم ووقفت لأقول كلمتى.. وقلت السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد.. يعلم الله أنى ماجئت لأرد على استجواب.. وإنما جئت لأردد الاستجواب.. أنتم تسألوننى مستجوبين وأنا أرد عليكم الأمر مستجوباً..

قلت: ديوان المحاسبة تابع لكم.. تابع لمجلس الشعب وقد فوض المجلس ديوان المحاسبة أن يدرس تصرفات فلان الحوت..

وقام ديوان المحاسبة بالدراسة وكتب تقريراً مودعاً لديكم والتقرير تم توزيعه على أعضاء المجلس وهو يتضمن الانحرافات والتجاوزات التى تدين فلان الحوت، فلماذا لم تتخذوا قراراً فيه؟

إن المجلس هو الذى يجب أن يوجه إليه الاستجواب..!!

لماذا ترك فلان الحوت؟ لماذا لم يتخذ بشأنه قراراً؟

أنا فرقعت القنبلة دى فى المجلس فأصبح المجلس حاجة تانية خالص.. المجلس اتلخبط ومعدش حد قادر يقول كلمة..

أنا كنت شايل فى جيبى التقرير اللى عمله ديوان المحاسبة عن انحرافات وتجاوزات الحوت.. كنت مدكنه فى جيبى وطلعته وقلت لهم التقرير أهه، لماذا لم تتخذوا أى إجراء بشانه؟

كل الجرايد والصحافة كتبت عن اللى حصل فى الجلسة الصاخبة لمجلس الشعب واعتقدت أنا أن الحوت انتهى.. لكن تبين لى بعد ذلك أن الحوت لم ينته وأن محاولات الحوت مستمرة لاستعادة إمبراطوريته ونفوذه وفرض سيطرته وسطوته على وزارة الأوقاف ووزير الأوقاف».

مايشغلنا فقط فى ذلك هو حديث الشيخ الشعراوى عما فعله فى مجلس الشعب.. صحيح أن الحوت أو توفيق عويضة هذا امتدت حلقات الصراع بينه وبين الشيخ حتى أصدرت المحكمة حكمها بإدانته وكان الحكم بإجماع أعضاء المحكمة الدستورية العليا وليس بالأغلبية فقط..

واستوقف الإجماع الشيخ الشعراوى فعرف أن المستشارين قد حصل بينهم نقاش وأنهم كانوا قد عرفوا بأن هناك قراراً صدر بعودة الحوت وأن صدور حكم يتضمن فى نصه أن بعض المستشارين كان مع إعادة الحوت والبعض الآخر لم يكن مع إعادته، هذا الحكم بهذا النص سيجعل البعض مع القرار الذى صدر عن الرئيس والبعض الآخر ضد القرار، ولذلك حرصوا جميعاً على أن ينص فى الحكم بأنه صدر بالإجماع..

كان الرئيس السادات بالفعل قد أصدر قراراً بعودة الحوت إلى عمله وكتب القرار بخط يده..

وقد قال الشيخ الشعراوى عن ذلك:

«كانت حكاية الحوت هى السلبية الوحيدة فى العلاقة التى كانت بينى وبين السادات».

●●●

يمكن أن نكتفى بما قاله الشيخ عن موقفه البطولى فى مجلس الشعب.. لكن هناك تفاصيل أخرى يمكن لنا أن نتعرف عليها(٢):

ففى بداية يناير ١٩٧٧ - أى بعد تولية الشيخ الوزارة بشهرين - فجر فضيلته عدة

(٢) الشيخ الشعراوى.. إمام عصره - أحمد حسين جوهر.

مفاجآت داخل مجلس الشعب ففى يوم ١٩٧٧/١/٢٨ كان هناك انتقاد من العضو فضيلة الشيخ صلاح أبو إسماعيل رئيس لجنة الشئون الاجتماعية والدينية بالمجلس، وكان هذا الانتقاد حول إصدار وزارة الأوقاف سندات الإصلاح الزراعى بفوائد..

وقال العضو: إن هذا يعنى أن وزارة الدعوة تتعامل بفوائد ربوية، وهذا يتعارض مع تعاليم الإسلام.

هذا بجانب العديد من الانتقادات الأخرى من الأعضاء.. وهنا وقف فضيلة الشيخ الشعراوى وطالب مجلس الشعب ووجه حديثه مخاطباً بوضع سياسة لربط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالوزارة، وذلك حتى يمكنها الإشراف على نشاطه أو نقل تبعيته إلى جهة أخرى أولى به.

وقال: **«إن وزارة الأوقاف لاتعرف شيئاً عن نشاط وخطط ومشروعات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لانعزاله ورفضه الرد عليها بأى معلومات أو بيانات تطلب منه»**. وفى نفس الجلسة طلب الأعضاء الاطلاع على القرار الخاص بإنشاء المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ليعرفوا اختصاصاته، كما طالبوا بتحديد وزير مسئول عنه يمكن مساءلته.

وتحولت الجلسة بعد ذلك إلى جلسة مصارحة عن أوضاع وزارة الأوقاف واختصاصاتها وأوضاع الأزهر.. وهنا قال فضيلة الشيخ الشعراوى: **«أنه لايوجد نص على أن الدولة تحكم بالإسلام ولم تأخذ قوانين من الإسلام إلا مايتعلق بالأحوال الشخصية، ولم يكن السبب فى ذلك التمسك بالإسلام وإنما لأننا لم نجد فى قوانين الغرب التى أخذنا عنها قوانيننا نظيراً لأحكام الإسلام الخاصة بالأحوال الشخصية»**.

وقال الشيخ موضحاً: **«إن هناك فرقاً بين أن دين الدولة الإسلام وبين أن دستور الدولة الإسلام.. فالعبارة الأولى تعنى أننا نأخذ إجازات فى عيد الفطر وعيد الأضحى وهذا يختلف عن أن الدستور هو الإسلام»**..

وقال فضيلة الشيخ الشعراوى فى نفس الجلسة: **«إنه يعتمد على أعضاء مجلس**

الشعب فى مساعدته لإصلاح كل الأوضاع الخاطئة وأكد أنه عندما يصل الأمر إلى عدم استطاعته التصرف وحل المشاكل فإنه سيترك الوزارة فوراً حتى دون أن يقول لأحد السلام عليكم». وقد وعد الشيخ الشعراوى (وزير الأوقاف) بأنه سوف يقدم جميع المستندات والبيانات التى طلبها الأعضاء، وقال: **«إن هذه المستندات ستوضح ماكانت تقوم به الأوقاف فى الماضى».** كان فضيلته قد وعد المجلس أن يلقى بياناً شاملاً بالمستندات يوم ١٩٧٧/٣/٢٠، وكانت حقاً جلسة عاصفة.. كانت حديث المجتمع المصرى لعدة أسابيع وشدت انتباه الناس، فقد استمر الصحفى إبراهيم سعدة يثير هذا الموضوع لمدة عامين قبل تولى فضيلة الشيخ الشعراوى الوزارة ومع هذا لم يتحرك أحد.. وجاء الدور على الشيخ الشعراوى.. فماذا حدث؟

لم ينتظر أعضاء مجلس الشعب على إمبراطور المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بعد أن أصبحت الروائح الكريهة تزكم الأنوف فتقدم العضو عادل عيد ـ مستقل ـ باستجواب لوزير الأوقاف وشئون الأزهر الشيخ محمد متولى الشعراوى حول اضطراب الأوضاع المالية بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية وقصور إشراف الوزارة..

ودارت الجلسة هكذا..

عادل عيد: لقد تقدمت بهذا الاستجواب منذ بداية الدورة الحالية ولم أتفق فيه مع أحد.. ولم أتواطأ مع أحد، وربما تساءل البعض: ماذا بقى من استجوابك بعد التطورات التى حدثت فى الأيام الأخيرة حول موضوع الاستجواب؟ .

إن الاستجواب قائم لم يتغير الموقف فيه ومازالت النتائج تنتظر طرحها على حضراتكم لتقولوا فيها كلمتكم، والأمر ليس مجرد مخالفات مالية للسيد سكرتير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.. ولكن الأمر أخطر من ذلك بكثير.. لقد كان ـ فلان ـ ظاهرة تستوقف الانتباه وكان مثار حديث فى الداخل والخارج، إننا نتحدث عن ظاهرة.. وليس عن وقائع، وإذا أردنا أن نصف أخطاء (سكرتير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) فإننا نستطيع القول أنها تشمل العبث بالمال العام واغتراف هذا المال لنفسه وأعوانه بغير رقيب وإنفاق المال العام وبالذات مال وقف المسلمين إنفاقاً يتصف بالسفه فى الداخل والخارج بغير رقيب ولا حسيب وبغير وازع من ضمير، كما أنه استحوذ على سلطات كثيرة بغير

سند من القانون وجعل من نفسه مركز قوة يتحدى السُلطات وأنه أساء إلى سمعة البلاد ونظام الحكم أبلغ إساءة داخلياً وخارجياً وأعطى أسوأ مثل لمن يحمل لواء الدعوة الإسلامية، وأنا أتحدث عن ظاهرة الموظف الذى يخطىء ويجاهر بالخطأ ولايجد من يوقفه.

العضو حلمى عبدالآخر: لايجب التعرض لشخص غير موجود فى الجلسة ولايملك الآن أن يدافع عن نفسه.. نرجو أن يكون الكلام فى حدود الموضوع، وخاصة أن هناك أموراً خاصة معروضة على الفقهاء الآن.

عادل عيد: أطلب من رئيس الجلسة أن يحمينى من هذه المقاطعات وإلا فإننى سأضطر لحمل أوراقى.. وأغادر المنصة ولا أناقش الاستجواب.

إذن فأنا أتحدث عن ظاهرة اسمها (....) سأخلص منها إلى مسألة..

لقد صدر قرار جمهورى بترقية (.....) عام ١٩٦٣ من الدرجة الخامسة إلى الثالثة وبمرتب ١٠٠ جنيه، وفى سنة ١٩٧٠ طلب مكتب رئيس الجمهورية ترقيته إلى الدرجة الثانية.

الدكتور جمال العطيفى: نرجو أن تذكر مصدر معلوماتك.

عادل عيد: أستقى معلوماتى من مصادر شتى ولا أستطيع أن أفصح عن مصادرى كلها لأن هذا حقى.. وأنا أذكر قراراً جمهورياً له تاريخ ورقم.

لقد صدر القرار الأخير تحدياً للوزير الذى كان موجوداً فى الوزارة وقتها.. وفى سنة ١٩٧٠ أصدر سامى شرف ترقية (.....) إلى الدرجة الثانية واعترض وزير الأوقاف، ولكن صدر قرار جمهورى بترقيته إلى درجة نائب وزير، وكان هذا مخالفاً لقانون العاملين الذى ليس به نائب وزير، وهذه الترقيات تخطى لسلطات الوزير، وهذا قرار باطل يصل إلى حد الانعدام تماماً..

بعد هذا أجبر المرحوم الدكتور محمد حسين الذهبى على أن يفوض سلطاته إلى هذا الشخص (أمين عام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) وسندى فيما أقوله تقرير لجنة تقصى الحقائق البرلمانية حول مخالفات هيئة الأوقاف حيث جاء على لسان وزير الأوقاف

أنه طلب منه تفويض (.....) فى شئون الدعوة وهو تفويض أكره عليه وزير الأوقاف.. ثم استغل هذا الشخص الترخيص أسوأ استغلال وعاث فى الوزارة فساداً وأصبح الوزير رمزاً يملك ولا يحكم.

وظل هذا الأمر إلى أن جاء الشيخ الشعراوى للوزارة وفى بداية عهده ألغى هذا التفويض فى جرأة حتى لايدع مجالاً للشك.

وتناول بعض الأعضاء الحديث فى الموضوع.. منهم:

سيد مرعي: ماكنت أنوى التدخل فى المناقشة إلا أنها تتناول أموراً أساسية لم تتناول منذ عام ١٩٢٣ حتى اليوم، ليس من حق العضو أن يقول أن فلاناً ارتكب جريمة معينة.. احذروا هذا لأننا قد نتعرض لهذا فى يوم من الأيام. نريد أن نضع مبادىء لنحمى المستقبل، فالنيابة هى التى تتهم والنيابة أحالت وقائع والمحكمة هى التى تحكم فى هذا.. نسمع وقائع وليس اتهامات..

أليس من الواجب أن تواجه شخصاً بوقائع تقدمها النيابة، كان البعض لديه وقائع فى أحد الاستجوابات وقدمها للنيابة لا نحاول فى ضجة العملية أن نهدر مبدأ من المبادىء واحترامنا لها هو احترام لأنفسنا.

الموضوع أن موظفاً ارتكب خطأ معيناً.. أطالب السيد العضو أن يحدد مايتهم به فلان..

عادل عيد: فيه وقائع أذكرها فيما يلى.. هناك أراضى العجمى وهى من أوقاف المسلمين اتصل توفيق عويضة بأصحابها وأفهمهم أنه يملك البت فى شأن ملكية الأراضى نظير هذا طلب لنفسه ١٢ فداناً وكتبها باسمه واسم زوجته واعترض أحد المواطنين على ذلك فاستعان فلان برجال الشرطة الذين أجبروا هذا المواطن على التوقيع على العقد وقام عويضة ببناء قصر على هذه المساحة تكلف ٦٠ ألف جنيه، أنا لا أجرح أحداً، كان الله فى عون (....) وهو يقف هذه الأيام مثل هذا الموقف.

بعدها اعتلى الشيخ الشعراوى منصة مجلس الشعب ليرد على الاستجواب وقال:

«كان من الممكن أن تكون المناقشة التى دارت فى الجلسة الماضية حاسمة لموضوع الاستجواب لأننى قلت أننى ماجئت هنا لأرد على الاستجواب، وإنما لأردد الاستجواب.

والحق أننى لا أنا ولا السيد المستجوب يدعى فضلاً فى وصول هذه المعلومات إلى آذانكم، فإذا كان موظف مسئول قد اتهم بانحرافات فإن الذى أثبت هذه الانحرافات هو جهاز حكومى أيضاً، فإذا صح أن يكون واحد قد انحرف فإن الذى صوب الانحراف هو جهاز حكومى أيضاً.

وما كنت أحب لى شخصياً أن أمدح بما لم أفعل وأن يمدح غيرى بما لم يفعل.. الجهاز المركزى للمحاسبات هو الذى يجب أن يذكر وهو الذى يجب أن يكرم لأنه فى ظلال مراكز القوى استطاع موظفون شرفاء أمناء أن يقولوا كلمة الحق فى أذن الطغيان.. والمراقبة المالية التى تتمثل فى المراقب المالى فى وزارة الأوقاف تأخذ أيضا نصيبهاً من الشكر ومن التقدير.. طغيان موظف أوهم الناس أنه مركز من مراكز القوى وهو ليس من مراكز القوى.. إن مركز القوى معناه أن يأخذ واحد من القاعدة مركز القمة، ونحن نعلم أنه من محاسن هذا العهد علينا أننا استطعنا أن نردد فى هذا المكان مثل هذا الكلام.. فكم رأينا ورأى سوانا منكراً لم يغيره أحد حتى بقلبه، وما كان يخطر ببال إنسان أن يتوهم أمراً مناقضاً لما كانت تقتضيه القمة أو من يمثلون مراكز القوى فى هذه القمة.. يجب أن تقاس الأحداث بأجوائها، فلا يأخذ شخص اليوم ليتحكم فى أحداث ماقبل التصفية. بل يجب أن نأخذ كل حدث أولاً بأول.. هنا تكون البطولات.. فأين كانت البطولات التى تظهراليوم.. فقد كان فى الماضى تعدى على المال وعلى الاختصاصات وقت أن كانت تراق دماء الأبرياء وذوى الثقل من الشرفاء، ويعتدى على العرض دون أن نسمع همسة تنكر منكراً يحدث أمام الناس جميعاً. والذى نفسى بيده لو كان لى من الأمر شىء لحكّمت الرجل الذى رفعناه تلك الرفعة وانتشلناه مما كان فيه إلى قمة ألا يسأل عما يفعل!!

أنا لو أحببت أن أدخل فى انحرافات لكان من الواجب ألا توقفنى هذا الموقف بعد أن قلت أننى أردد هذه الانحرافات.. ولا أرد على هذه الانحرافات.. بعد ذلك تسألنى لماذا لاتتكلم فى مبادىء عامة..

أتكلم فى قبة برلمانية وقف وزير مسئول فيها ليؤيد مستجوباً بمنتهى القوة والصلابة دون أن يؤثر عليه من رئيس أو زميل، وأقسى من ذلك أن يتحول وكيل المجلس إلى صف المعارضة فى هذه القضية.. تلك ظاهرة جديدة نشأت حينما اختفى من القمة «أنا وحدى».. لأنى «أنا وحدى» لاينشأ فى ظلها إلا «وأنا مالى».. فلا يجب أن نسأل إنساناً أين كنت؟ لأنه كان فى ظلال - الأنا مالى - أى - أنا مالى.. وليت الأمر استقر عند القمة وإذن لأصبحت مسئولاً عن كل شيء ولكن انتقل الأمر إلى أناس ادعوا أنهم القمة وليسوا بقمة.. ومن هنا نشأ كل انحراف.. ويجب ألا نعطل أى انحراف وقع بعد التصحيح.. إذا قال قائل أن مكاتباتى فى أمر المخالفات إنما نشأت بعد السؤال والاستجواب، أقول له لا السؤال ولا الاستجواب أو طلب الإحاطة إنما نشأ من القنبلة التى فجرتها هنا أنا فى المجلس بشأن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وربما قال قائل ما الذى أجبرك على أن تظل فى منصبك إلى هذا الهوان؟.. أقول له: ما أشيع بأن فلان هو الذى يعزل وزراء الأوقاف، فلو أننى استقلت لدخلت فى دائرة أو كشف المعزولين توهماً، وبذلك يكون خروجى تأكيداً لما يدعيه بأنه مركز قوى.

وأنا أريد أن أجرده من هذا السلاح الوهمى فأحببت أن أعلم الدنيا جميعاً أن مراكز القوى قد تنشأ سلبياً من أسفل حينما عرفوا الناس الحقيقة وحينما يهددون تهديدات لايقفون على أراضيهم ليستوعبوها ليتبين للناس ذلك.. المراكز للقوى؟! أم غير مرتبة القوى؟! لو أننى استقلت ثم جاء واحد آخر ليدرس الموقف إذن فسيأخذ أمر (فلان) مقدساً.. لأنه وزير وعزل وزيراً وبهذا يستطيع مد الفساد، ومن العجب أننى استجوبت أمام هذا المجلس.. وكنت أحب أن يوجد تقليد أن أستجوب أنا المجلس..

فالجهاز المركزى للمحاسبة ليس داخلاً ضمن إدارة الوزارة وهو تابع لكم شخصياً ومجرد من كل القوانين، فكان يجب أن أسألكم ماذا صنعتم فى تقرير

الجهاز المركزى للمحاسبات، أنا لا أدعى لنفسى الشجاعة ولكنى رجل أعرف قدر حجمى بالضبط، فما كان لى أن أتصرف أو أوقف حتى أتحسس المجالات التى أتبعها فتعيننى.. ربما كان الأمر.. أمر السياسات العليا، وما أكثر ماتطلبه السياسات العليا الآن مما لانعرفه ومن المصلحة ألا نعرف..

مايدرينا أنه لهم فى تجولاتهم أشياء لاتدخل فى دائرته كسكرتير عام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

لا أدرى فكان من الواجب أن ألتقى فى الأمر التقاء المسئولين، وفعلاً ارتقيت فى الأمر ارتقاء المسئولين.. وأردت بخبث العلماء (أكرر) خبث العلماء..

ألم يكتف (فلان) بما له من سلطان فى المجلس الأعلى سلطان ابن سفاح.. ألم يكتف بذلك؟ هناك فارق بين التفويض لك وبين سكرتارية المجلس الأعلى. سكرتارية المجلس الأعلى حصرت نشاطه فى دائرتنا.. ولكن التفويض وسع اختصاصه فى دائرة الوزارة كلها.. وعندنا نحن العلماء درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.. فكنت أجس النبض لأعرف أهو مسنود حقاً أم اتفق ذلك معه؟

فجمعت القمة الوظيفية التى تعاونه وقلت لهم مارأيكم فى أنى أريد أن ألغى التفويض له؟ قالوا لى نعم لأن ذلك كانت له ظروف ومناسبات تقتضى وجوده.. فلابد أن تستشير. فقلت أتحبون أن أبدأ عهدى بالاستشارة فيما يدخل من اختصاصى؟ من الذى فوّض؟ أهو رئيس الوزراء؟ قالوا لا.. إذن الوزير.. وأنا ألغى تفويض الوزير.. وفعلاً ألغيت التفويض دون استشارة أحد.. إننى لم أتلق كلاماً فى هذا الأمر ممن يساوينى وزارياً أو ممن يعلونى ولا حتى على مجرد العفو عن إصدار هذا القرار.. حينئذ استقر فى ذهنى أن ادعاء المسنودية ادعاء وارد فقلت ننتقل إلى ميدان آخر فقلت للقمة الوظيفية اجمعوا لى كل المعلومات وكل المخالفات فذهبوا واستمهلونى مدة فقلت أن المدة التى استمهلونى إياها مدة قصيرة بالنسبة لعمر الفساد إلا أنهم جاءوا لى وقالوا أن كثيراً من الأشياء التى حقق فيها وأثبتت إدانات ومخالفات لاتوجد فى ديوان الوزارة أبداً.. فقد خفيت جميعها..

قلت ابحثوا عنها فى مصادرها، فقالوا ذلك يحتاج مهلة أوسع من المهلة التى أعطيتنا إياها لأنك أعطيتنا المهلة لنستخرج ماتحت أيدينا فكيف تكون المهلة لنستخرج ما ليس تحت أيدينا.. إذن لابد من مدة أخرى.

وانتهى الرأى إلى المراقبة المالية لوزارة المالية.. وإلى الجهاز المركزى للمحاسبات.. وإلى كتاب نشر فى السوق أشار إليه أخى عادل عيد وهو كتاب النائب العام محمد عبدالسلام، استطعنا أن نأخذ خيوطاً نواجه بها الموقف، ولكن لا أنكر أنى كنت لاأزال أعمل فى المعركة بنصف قلب..!!

لماذا..؟!

لأنى خشيت أن تكون مسئوليته أقوى من فهمى وأقوى من فراساتى والذين كانوا يعملون معى للإنصاف كانوا يعملون بربع قلوبهم لدرجة أنى تساءلت وهذه المساءلات كلفتنى كثيراً من الزمن، فقالوا لى أن الهمس يدور بأن (......) أبقى منك فى المنصب، قلت لهم سألتكم بالله كم دونتم أنتم من الوزراء حطونى فى الرقم.. لماذا تقارنون بينى وبين (....) وهو أبقى منى فى المنصب ده.. وأنا أحب أن تقارنوا بينكم أنتم.. وأنتم لستم فى مقام المسئولية العليا وليس أمامكم ماتنحرفون به، تقارنون أعماركم أنتم بأمره هو.. إذن فأنتم أطول أعماراً منه لأن الوزير فيهم يستطيع أن يتحكم فى متى يخرج.. ولماذا يخرج؟ والذى يحكم ذلك شهادة الميلاد.. أما نحن فلا نعرف متى نخرج.. ولماذا نخرج.

وأنا حينما جئت جعلت الله فى بالى وتنازلت عن كل شىء من شخصى ولقد اتهمت بالكذب وأنا لست بكذاب قلت نحن فى حاجة إلى معونة الله، ورسول الله ﷺ علمنا أنه لايغضب لنفسه قط.

كنت أريد أن أثير الموضوع بداءة ولكنى عدلت عن ذلك حتى لايقال أننى أدخلت المسألة فى مساجلة شخصية بينى وبين (.....) وأجلت الموضوع وتحملت أن أتهم أمامكم بأننى مقصر.. إن الظاهرة التى حدثت يجب أن نأخذ منها مبادىء هى أن وجود المعارضة يجب أن يؤخذ منها بالرأى من جانب

الأغلبية ويؤخذ رأيها بعين الاعتبار.. ويؤخذ بانه رأى برأى وحجة بحجة وليس خلاف قلب مع قلب..

أنا أحب أن كل عمل تقوم به الأغلبية لاتناقضه المعارضة ولا أحب أن كل رأى من المعارضة يقابل برفض من الأغلبية وهذه الظاهرة يجب أن تكون اجتماعية وسياسية أيضاً لأن دوام الوفاق نفاق وكثرة الخلاف اتساق وأحب أن أرى من الأغلبية من يعارض الأغلبية والخلاف فى الرأى لايفسد للود قضية».

عادل عيد: ماقاله فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى فى جملته طيب ولكنى أرجو ألا أكون ممن أشار إليهم السيد الوزير بأدعياء البطولة وأنا أشكر الوزير وأقدره وأرجو أن نعمل دائماً كأسرة واحدة بلا تحزب ولا تعصب.. نعمل جميعاً من أجل مصر.

كانت هذه كلمات الشيخ وكلمات من يقدسونه حول معركة مجلس الشعب التى دخلها الشيخ الشعراوى.. ويظهر من العرض السابق..

أولاً: الشيخ الشعراوى صادق فى كل مايقوله.. فهو لايحكى عن أشياء لم تحدث، بمعنى أنه لايختلق أحداثاً من خياله ويقحمها على حياته، فلا أحد قال ذلك ولا أحد يستطيع أن يقوله.

ثانياً: مانحب أن نقوله نحن أن الشيخ الشعراوى يعرض الأحداث التى حدثت بالفعل بشكل فيه الكثير من المبالغة، فمن واقع مضابط مجلس الشعب نرى أن الجلسات التى حضرها الشيخ كانت عادية للغاية.. وليست كما عبر الشيخ أنه «فجر القنبلة»، ولما قال انعدمت ردود الأفعال وصمت الجميع ولم يجدوا شيئاً يردون به على الشيخ.. بالطبع وببساطة.. هذا هو المأزق الذى يوقع الشيخ فيه نفسه دائماً.. الحديث عن حياته وكأنه أحد الأبطال الأسطوريين.

●●●

مازال هناك حديث عن مجلس الشعب.. ومعركة الشيخ فيه، لكنها من وجهة نظر مختلفة تماماً(٣):

---

(٣) اغتيال أمة ـ دكتور محمد عباس ـ صفحة ٦٩

«حدثت أحداث رهيبة فى مجلس الشعب وكان للشيخ الشعراوى ضلع كبير فيها.. حاول النائب عادل عيد طيلة عام كامل أن يقدم استجواباً فى مجلس الشعب للشيخ الشعراوى عن انحرافات محمد توفيق عويضة، لكن تصرفات رئيس المجلس سيد مرعى كانت تعرقل ذلك من جلسة إلى أخرى.

وفى جلسة ١٩٧٧/١٢/٣٠ حضر الشيخ الشعراوى وأبدى استعداده لمناقشة الاستجواب لكن المجلس أجل ذلك إلى جلسة ١٩٧٨/١/٢٢، وفى ذلك اليوم لم يحضر الشيخ الشعراوى ووقف حلمى عبدالآخر يعتذر عنه لأنه سافر إلى السعودية صباح اليوم فى مهمة علمية ستستغرق أربعة أسابيع، ولقد كان الشيخ الشعراوى موجوداً بالمجلس فى اليوم السابق وكان يعلم أن الاستجواب بعد ساعات.

ولكنه لم يبلغ أحداً بعزمه على السفر، وبعد ثلاثة أيام فقط ظهرت الحقيقة سافرة ومخزية، فقد تبين أن الحكومة قد كذبت على مجلس الشعب وأن الشيخ الشعراوى لم يسافر.. وإنما استجاب لنصيحة وجهت إليه بالاعتكاف وعدم حضور جلسة مجلس الشعب يوم الاستجواب.

وفى يوم ١٩٧٨/١/٢٥ كان الشيخ الشعراوى يظهر فى التليفزيون والصحف مصاحباً أنور السادات وهو يفتتح مقصورة جديدة للسيدة زينب.

ثم تحددت جلسة ١٩٧٨/٢/٢٨ لنظر الاستجواب وفاجأ الشيخ الشعراوى المجلس بطلب تأجيل الاستجواب أسبوعين حتى تتمكن النيابة الإدارية من إنجاز تحقيقاتها مع محمد توفيق عويضة، واعترض عادل عيد على ذلك لأن الاستجواب ليس متعلقاً بانحرافات توفيق عويضة بل بمسئولية الشيخ الشعراوى السياسية كوزير عن تراخيه فى استخدام سلطاته للتصدى لهذه الانحرافات.

وقف الشيخ الشعراوى ليقول أنه يعانى موقفاً نفسياً عنيفاً، فهو ممزق بين واجبه كوزير مسئول متضامن مع الوزارة فى مسئوليتها وبين موقفه كإنسان يجد صادقة ولا يستطيع أن يفعل شيئاً..

ونجح الشيخ الشعراوى فى تأجيل الاستجواب ثلاثة أسابيع، وفى يوم ١٩٧٨/٣/١٥ أحالت النيابة الإدارية توفيق عويضة إلى المحكمة التاديبية العليا، وفى يوم ٣/٢٠ بدأ الاستجواب بالتحدث عن ظاهرة توفيق عويضة وليس عن مجرد انحرافاته.. عن الجهات العليا والمسئولين الكبار الذين أضفوا الحماية ومكنوه من هذه التجاوزات دون أن يتعرض لأى مساءلة.

وقوطع النائب عادل عيد بطريقة مستفزة ومستمرة وهدد سيد مرعى رئيس المجلس أن يؤجل الاستجواب، وقام فؤاد محيى الدين وحامد محمود وحلمى عبدالآخر بدورهم المرسوم.

فإذا تحدث عادل عيد عن واقعة تتناولها تحقيقات النيابة الإدارية قيل له أنها بين يدى القضاء فلا ينبغى له أن يسبق حكمه.. وإذا تحدث عن واقعة جديدة لم تتناولها تلك التحقيقات قيل له أنه لاينبغى أن يوجه اتهاماً بغير دليل.

واستمرت المقاطعات حتى خيَّر عادل عيد رئيس المجلس بين أن يحميه ويمكنه من مواصلة الاستجواب أو أن يطوى أوراقه وينصرف، وصرخ نائب اسمه محمد فاروق الدرى أن الاستجواب أصلاً خطأ.. وأيده سيد مرعى فى أن الاستجواب خطأ.. لكنه طلب الاستمرار.

وأخذ عادل عيد يتحدث عن الموظف محمد توفيق عويضة المرقى إلى الدرجة الوظيفية الخامسة فى سنة ١٩٦٥ وخلافاً للقانون يصدر قرار جمهورى بترقيته فى نفس العام إلى الدرجة الثالثة بمرتب ١٠٠ جنيه شهرياً برغم أن مربوط هذه الدرجة هو ٥٧ جنيهاً، وفى سنة ١٩٧٠ طلب سامى شرف ترقيته إلى الدرجة الثانية فاعترض الوزير لأن القانون لايسمح.. فصدر قرار جمهورى فى يناير ٧١ بترقيته إلى نائب وزير وأجبر الدكتور الذهبى وزير الأوقاف على أن يفوض سلطاته إلى محمد توفيق عويضة.

وصرخ رئيس المجلس: هل قلت أجبر؟.. أرجو أن يكون كلامك مؤيداً بالأدلة.

وأجاب عادل عيد: لا تسالوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم.

وقدم عادل عيد مايفيد ضمناً مسئولية رئاسة الجمهورية عن هذا الإجبار.

ثم تحدث عادل عيد عن أوجه الفساد والانحراف لتوفيق عويضة واستعرض القوانين التى تجعل من وزير الأوقاف مسئولاً عن هذه الانحرافات التى تحدث فى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية والذى يرأسه توفيق عويضة، وانتقد عادل عيد عدم قيام الشيخ الشعراوى بواجبه الوظيفى كوزير فى التصدى لجهاز يتبعه كما انتقد بمرارة طلب الشيخ إلى رئيس مجلس الوزراء بأن يتبع هذا المجلس جهة أخرى غيره يرى ولاة الأمور أنها أولى به..

وصرخ عادل عيد:

- أنا لا أفهم ماهى الجهة التى يتبع لها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وسيادتك وزير الأوقاف وشئون الأزهر.. أيتبع وزارة الخارجية أم المخابرات العامة مثلاً؟ وما المقصود بولاة الأمور؟ من هم؟ إننى أعتقد أنك تقاعست عن استخدام سلطاتك التى خولها لك القانون، ولقد كنت أنتظر من الشيخ الشعراوى أن يكون له موقف يتفق مع موقفه كعالم جليل من علماء المسلمين.. من رأى منكم منكراً فليغيره.. إننى لا أرضى منك فى موقعك أن تنكر بقلبك ولسانك وإنما كنت أود أن تنكر بيدك.. فإذا تصدى بعد هذا لك متصد لعرقلة قراراتك فقد أبرأت ذمتك إلى الله وإلى الناس.

واستمر عادل عيد فى طرح استجوابه..

ولقد أرسل السيد وزير الأوقاف يشكو محمد توفيق عويضة إلى رئيس الوزراء.. فلماذا أرسل ليستأذنه وهو السُلطة المختصة والقانون معه بنص المادة رقم ٦٠ والتى تجيز للوزير المختص إيقاف الموظف عن العمل إذا اقتضت مصلحة التحقيق ذلك.. فلما لم توقفه ولم تمنحه إجازة مفتوحة أو تنتدبه للعمل بالوزارة؟

ولقد رد رئيس الوزراء على الشيخ الشعراوى بأنه وزير مسئول وعليه

اتخاذ مايراه فى حدود سلطات وظيفته بالنسبة لتوفيق عويضة وهو أحد مرؤوسيه.. إن الشيخ الشعراوى قد قصر فى أداء الواجبات الدستورية لمنصبه الوزارى بأن رأى الفساد والانحراف يتفشيان فى جهاز تابع للوزارة.. وأن رئيس هذا الجهاز هو مجرد موظف إدارى يتمرد على سلطان الوزير ويتحدى الدولة فلا يملك السيد الوزير إزاء ذلك كله إلا أن يجأر بالشكوى لله عز وجل ثم للسيد رئيس الوزراء، وحتى بعد عام كامل من توليه منصب الوزارة.

وأغلب الظن أن الشيخ الشعراوى ماكان ليتحرك لولا طلبات الإحاطة والاستجواب التى قدمت فى هذا الشأن.. واستطرد عادل عيد بعد ذلك مبيناً أوجه العبث بالمال العام والتى مارسها توفيق عويضة.. وطالب بمحاسبة المسئولين الكبار الذين مكنوه من ذلك لأن تحقيقات النيابة لن تعيد إلى البلاد الأموال التى أهدرت.. وبين عادل عيد كيف كان توفيق عويضة يتفاهم مباشرة مع رئيس الوزراء ورئيس الجمهورية من خلف وزير الأوقاف.. وعاتبه لأنه لم يتصد لذلك.. وذكر أن رئيس الجمهورية يرسل توفيق عويضة للخارج فى مأموريات لايعلم الشيخ الشعراوى عنها شيئاً بالرغم من أن القانون ينص على أن سفره لابد أن يتم بموافقته كوزير.

وتحدث عادل عيد أيضاً عن أن توفيق عويضة كان يمنح موظفى الجهاز المركزى للمحاسبات مكافآت مقابل عملهم عنده فى المساء.. وهم الذين يراقبون عمله فى الصباح.. كما أن الجهات الحكومية كلها كانت عاجزة أمامه لنفوذه ولنفوذ من يضفون الحماية عليه.. وعندما بدأ عادل عيد يعرض لانحرافات خطيرة لمحمد توفيق عويضة فقد تصدى له فؤاد محيى الدين مطالباً بالا يذكر اتهاماً لم يثبت بتحقيق قضائى وتناوب البعض مقاطعة النائب المستجوب فصرخ النائب أحمد ناصر..

أحمد ناصر: لماذا ترهبون السيد العضو المستجوب؟ إننا نريد أن نعرف كيف تسير الأمور فى هذا البلد؟.. وإنكم إما أن تأكلوا الاستجواب وإما أن ترهبوا العضو المستجوب.. اتركوه يتكلم بحرية.. اتركوه يتكلم واسمعوا وافهموا.

رئيس الجلسة: ماهذا الكلام يا أستاذ أحمد ولمن توجهه؟

أحمد ناصر: لماذا ترهبوننا؟

رئيس الجلسة: ليست هذه طريقة عمل.. عضو يصرخ وآخر يضرب بيده على الخشب.

فؤاد محيى الدين: احترم الجلسة يا أستاذ أحمد.

أحمد ناصر: ماهذا الإرهاب؟!

رئيس الجلسة: لايمكن أن نستمر بهذه الطريقة وإذا استمر الزميل أحمد ناصر بهذه الطريقة فسوف أطبق عليه اللائحة.

وأخذ الكلمة الدكتور محمود القاضى الذى ناشد فى مرارة رئيس المجلس أن يمكن عادل عيد من مواصلة الحديث دون مقاطعة مقرراً أنه مهما كانت بلاغته وفصاحته لارتبك الأمر معه وما أمكنه الاسترسال فى الحديث وفند حجج المقاطعين بقوله أنهم يقاطعونه عندما يريد أن يتحدث عن خطأ الشيخ الشعراوى كوزير فهو من وجهة نظرهم لم يخطىء، فإذا أراد أن يثبت ذلك بذكر الوقائع التى كان الشيخ الشعراوى يستطيع التصدى لها ومنع الانحراف، قلتم له أنه ليس من حقه التعرض لقضية أمام النيابة، وإذا أراد سرد انحرافات ليست أمام النيابة قلتم له أنه ليس من حقه أن يهاجم أحداً إلا بحكم قضائى.. إذن فكيف يمكن أن يبين أن الوزير مخطىء؟

وتوالى المتحدثون فى محاولة مستمرة لتشتيت أفكار عادل عيد، وأخيراً طلب رئيس المجلس منه أن يواصل إلا أن الشيخ عاشور محمد ناصر قام قائلاً:

ـ لدى كلمة تتعلق باللائحة.

ورفض رئيس المجلس السماح له بالحديث فهتف مرة أخرى: لائحة.. لائحة..

ورفض رئيس المجلس، فصاح الشيخ عاشور:

- إننى من هذا المكان أطلب أن يحضر السيد رئيس الجمهورية جلسة خاصة ليسمع من ممثلى الشعب المخالفات التى تحدث فى هذا المجلس..

وغضب رئيس المجلس وقال موجهاً حديثه لمسجلى الجلسة:

- لن يثبت هذا الكلام فى المضبطة فلم يسمح للعضو بالكلام.

واستنكر الشيخ عاشور كلام رئيس المجلس فقال له الرئيس:

- ماهذا ياشيخ عاشور؟ هل أول نشاط لك فى هذا المجلس منذ عام ونصف تبدأه بهذه الصورة؟

وأخيراً سمح لعادل عيد أن يقول بعض ماعنده من انحرافات صارخة وثراء غير مشروع.. محذراً من أن تتردى الأوضاع فى مواقع أخرى من جهازنا الحكومى بتكرار ظاهرة توفيق عويضة.. واختتم كلمته بقوله: لا أجد ما أختتم به كلمتى هذه إلا أن أقول لكم مقالة رسول الله ﷺ: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، فوالذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

وجاء دور الشيخ الشعراوى ليرد على الاستجواب، فكان همه الأول الدفاع عن يزيد بن معاوية - بلا طلب للعفو - أقصد أنور السادات.

راح فضيلة الشيخ يشيد بأنور السادات ويقدح فى جمال عبدالناصر، ودوت القاعة بالتصفيق والتهليل للشيخ الجليل الذى كان يمثل فى نظر الكثير نور عقل أمته وضياء ضمير دينها.. وإزاء الاستحسان فاقت حماسة الشيخ كل حد فاندفع يقول:

والذى نفسى بيده لو كان لى من الأمر شىء لحكّمت الرجل الذى رفعنا تلك الرفعة وانتشلنا مما كنا فيه إلى قمة من لا يُسأل عما يفعل.

وصرخ الشيخ عاشور:

- مفيش حد فوق المساءلة.. لنرع الله.

ولكن رئيس المجلس أمره بالصمت.

وصاح الشيخ صلاح أبو إسماعيل:

ـ لقد كذبت يارجل.. لقد كفرت.. لقد كدت تكفر، فاستغفر الله فهذه الصفات لا تمنح لبشر.. إنما اختص بها المولى سبحانه..

ورد الشيخ الشعراوى موجهاً حديثه للشيخ عاشور:

ـ أنا أعرف بالله منك.

وانتهى الاستجواب بتوجيه الشكر للشيخ الشعراوى».

●●●

كان هذا أيضاً عرضاً بسيطاً لما حدث للشيخ تحت قبة البرلمان، ويجزم كاتبه أن مرجعه ليس الصحف القومية ولا عشرات المذكرات التى نشرت حول الموضوع، وإنما مضابط مجلس الشعب.

بين رؤية الشيخ وأتباعه والرؤية الأخيرة هذه اختلافات كثيرة ندرك تماماً دلالاتها.. التعليق لايفيد فالأمور واضحة للغاية.

واضحة لأننا أصبحنا نعرف طريقة الشيخ عندما يتحدث عن نفسه وعن أعماله.

واضحة لأن هناك من حاولوا استغلال طيبة الشيخ وحسن نيته، ولذا فكلام محمد عباس الذى استقاه من مضابط مجلس الشعب يمكن وبمنتهى السهولة أن يكون دليلاً دامغاً على ضراوة ووقع «أن ينام الدين فى فراش السُلطة».. وهذا ماحدث بالفعل من شيخنا الجليل الذى «نام فى فراش السُلطة طويلاً»!!

٨

عن اليهود نتحدث

«السادات سافر للقدس من تلقاء نفسه وبمشورة شخصية منه وكأنه وقف يقول لنفسه: إيه رأيك ياسادات تروح إسرائيل؟ ومالة نروح إسرائيل.. مفيش حاجة أبدا..!!».

سؤال بسيط للغاية: هل تحب اليهود؟!.. بالطبع لا..

سؤال آخر بسيط: لكن لماذا لاتحب اليهود؟

رغم بساطة هذا السؤال لكن الإجابة عنه غير محددة، فنحن نكره اليهود لمليون سبب.. وببساطة السؤال يمكن أن تكون الإجابة على لسان المصرى ابن البلد: «أنا باكره اليهود وخلاص يا أخى.. أنا حر.. أنت شريكى؟!».

الكراهية متأصلة فى النفوس والقلوب والأرواح، ليس فقط لأنهم الآن يحتلون فلسطين ويدنسون المسجد الأقصى بقذارتهم.. لكن تاريخهم الطويل معنا يجبرنا على أن يكون هذا هو إحساسنا بهم.. شعورنا ناحيتهم.

فلو كان الأمر اعتداء على الأرض فقط فهو شىء يسير رغم فداحته، فباستطاعتنا أن نحارب ونقاتل ونحرق اليهود بالفعل وليس بالكلام..

المسألة تعدت ذلك بمراحل، وصلت إلى سرقة الذات، التعدى على الهوية، الغوص فى أعماق الثقافة والزعم بأن اليهود يملكونها.. ولا أحد يعلم فلو لم يكن القرآن يحمل آيات كثيرة تدينهم لكانوا ادعوا أنه ملكهم الخاص وأنه نزل على موسى، لكن الرسول محمد ﷺ ـ هذا إذا اعترفوا برسالته ـ سرقه منه..

لم يدعِ اليهود ذلك ولكنهم فعلوا ماهو أكثر، فقد بدأ الشيخ الشعراوى فى تفسيره للقرآن الكريم فى أواخر السبعينيات، وكأى مفسر أمين مع نفسه كان يتعرض للآيات التى تتعرض لليهود يفسرها كاملة ولايخفى شيئاً.. يعرف الناس مخاطر هؤلاء ومزاعمهم وتاريخهم.. وليت الأمر توقف على ذلك فالشيخ الشعراوى ـ وهذا معروف عنه ـ كان يصبغ كلماته عن اليهود بلون من السخرية التى يصوغ فيها كلماته عادة، وإذا كان الرجل ساخراً بطبعه فإن اليهود ومن على شاكلتهم يمثلون مادة خصبة للسخرية من الشيخ ومن أمثاله..

والحكاية بدأت هكذا..

احتجت إسرائيل على تفسير الآيات القرآنية التى تخص اليهود والتى يفسرها الشيخ الشعراوى.. بل واعتبرت هذا التفسير هجوماً عنيفاً على اليهود وجاء الاحتجاج فى صورة رسمية من قبل السفارة الإسرائيلية..

بالطبع لانملك حيال هذا الأمر إلا الضحك على سذاجة المنطق وتفاهة الأسلوب وحقارة الاحتجاج، فلا يستطيع مفسر مهما كان دور السلطان فى حياته ومهما كانت السياسة هى التى توجه الأمور عنده.. لايستطيع مفسر أن يتجاهل إسرائيل مثلاً فيكف بصره عن الآيات التى تعرضت لها فى القرآن وهى كثيرة.. وإذا تمت المجاملة فلحساب من تكون؟!

هناك الكثير من أحداث التاريخ طالها الزيف والتزوير والإضافة والحذف حتى الأحاديث النبوية الشريفة التى وردت على لسان النبى ﷺ أصابها بعض من هذا العطب، فهناك أحاديث موضوعة وأحاديث مكذوبة، لكن القرآن أمر آخر.. شأنه شأن مختلف، فالأحداث التى وُثقت بذكرها فى القرآن الكريم لايستطيع أحد أن يغيرها أو يبدل فيها..

حتى لو طلب السلطان وحتى لو ألح فى الطلب.. وهذا موقف وقفه الشيخ الشعراوى من هذا الاحتجاج.. وسجل كل المحيطين بالشيخ تعجبهم ودهشتهم الشديدة من هذا الاحتجاج وثارت التساؤلات..

● فإذا كانت إسرائيل ومن يدور فى فلكها وبعض رجالات الإعلام المصنوعين على عيون الغرب.. يجدون من المتحدثين من يؤول ويفسر ويقدم ويؤخر ابتغاء إخفاء الحقائق أو تزيين الباطل، فكيف يخطر على بالهم أن يكون الشيخ الشعراوى أحد هؤلاء؟!

● وكيف نستطيع أن نتخيل أنه من الممكن أن يغير هذا العلاّمة والداعية الإسلامى الكبير من طريقته التى اتبعها فى التفسير والتى يطلق عليها خواطره الإيمانية والتى كانت هدياً من الله تعالى لعبده لكى ينتفع عباده الآخرون؟!

● وكيف يتخيل أحد أن يرضخ أكثر الناس علماً وفقهاً وإيماناً وأقواهم وأقدرهم فى شرح وتأويل القرآن الكريم؟

● كيف يتخيل أحد أن يخضع الشيخ لإرادة غير إرادة الله.. لأنه إذا ضاع الإسلام من القائمين عليه فقل على الدنيا السلام، بل قل إنها نهاية الدنيا؟!

كانت هذه هى تساؤلات من أحاطوا بالشيخ، ونحن بدورنا لانستطيع مطلقاً أن ننساق خلفهم أو نجعل من كلمات الشيخ نبراساً وبناءً مقدساً لايمسه النقد.. وهذا كلام له موضع آخر.

المهم من هذا كله أن اليهود الذين ذهب السادات ليمد لهم يده وقف الشيخ الشعراوى ليرفضهم وليرفض تاريخهم كله لدرجة أن أنيس منصور قال للرئيس السادات أن بيجين - رئيس وزراء إسرائيل - له شكوى غريبة، فهو يزعم أن الشيخ الشعراوى يهاجم اليهود كيهود وأن هذا من شأنه تعطيل عملية السلام.

ماذا كان رد الرئيس السادات؟! لم يقل أنيس منصور ولم يضف شيئاً لكلامه هذا.

هذه كانت رواية أنيس منصور التى رواها بمنتهى الهدوء ولم يذكر تعليق السادات عليها.. لكن ماذا لو سمعنا الشيخ الشعراوى وهو يروى ماحدث.. وننقله هنا بالضبط.. يقول الشيخ:

«الذى رواه أنيس منصور عن شكوى بيجين أنه حدث مرة أن جاءنى سفيرنا فى إسرائيل سعد مرتضى فى حالة من الفزع والاضطراب قال لى مصيبة لابد أن نبلغها للرئيس السادات، مصيبة كبرى فمعى رسالة من السيد مناحم بيجين يشكو من أحاديث الشيخ الشعراوى فى التليفزيون لأنه دائم الهجوم على اليهود وليس على إسرائيل أو على الصهيونية العالمية، وأن هذا الذى يفعله الشيخ الشعراوى يعطل مسيرة السلام. قلت لسعد مرتضى أرجو أن تعيد ماقلت.. فأعاد. قلت لا أعرف كيف أنقل هذه الشكوى إلى الرئيس، فسوف يغضب غضباً شديداً فليس من حق بيجين أن يتدخل فى شئوننا ولا أن يتعرض لرجال الدين، فرجال الدين أكثر دراية وعلماً والرئيس السادات يحاول أن يضيق مجالات الخلافات بين مصر وإسرائيل وهذا الذى يقوله بيجين سوف يوسع الخلافات والموضوعات الدينية حقول ألغام مروعة، فأعطنى بعض الوقت لكى أفكر فى طريقة نقلها للرئيس ولابد أن أنقلها إليه.

وفى لقاء الرئيس السادات لمحت له بما يقال فى إسرائيل عن الأحاديث الدينية فى التليفزيون وفى المساجد.. وكان رد الرئيس السادات أن هؤلاء المتطرفين فى إسرائيل هم الذين أقاموا الدولة وهم الذين سوف يهدمونها أيضاً بضيق الأفق والخرافات التى يجهدون أنفسهم فى تفسيرها على أنها حقائق.

وقلت للرئيس السادات أن بيجين له شكوى غريبة فهو يزعم أن الشيخ متولى الشعراوى يهاجم اليهود كيهود وأن هذا من شأنه أن يعطل عملية السلام.. وقبل أن يرد الرئيس قلت: سيادة الرئيس إنه ليس على يقين مما يقول ولكننا على يقين الذى قاله السيد هامير وزير التعليم الإسرائيلى، فهو يقول أنه لا أمل فى أن يتحقق السلام بين مصر وإسرائيل إلا إذا حذف المصريون الآيات القرآنية التى تهاجم اليهود.. إنه رجل مجنون.. فهو لايعرف معنى القرآن ولا معنى الكلمات البشعة التى تفوه بها وهو بالذات الذى يستطيع أن يشعل حروباً بين مصر وإسرائيل وهو كواحد من أقطاب المتطرفين لايريد السلام مع مصر.

وتضايق الرئيس السادات وطلب منى أن أسافر إلى إسرائيل وأن أرد وأن أوضح خطورة ما قاله بيجين وقاله وزيره هامير.

لايستطيع أحد مهما كانت حجته ومنطقه أن يزعم أن الشيخ الشعراوى لايعرف من هم اليهود.. ولا ماهى أهدافهم.. لايستطيع أحد أن يقول أنه كان يود الصلح ووضع يده فى يد اليهود.

فالرجل أفتى منذ عدة شهور أن الذين يقومون بالعمليات الفدائية فى إسرائيل إنما هو جهاد فى سبيل الله ومن يمت فهو شهيد..

لكن يبدو أن الشعراوى لم يكن على قدر من الثقل حتى يعارض ويعلن رفضه لسفر السادات إلى إسرائيل والصلح مع اليهود، ولنرصد معاً ملامح الصورة التى شكلت موقف الشيخ من القضية كلها.

يقول الشيخ الشعراوى:

«قبل قيام السادات بهذه المبادرة حدث أن كنت فى زيارة لإحدى الدول

الأوروبية التى يغيب عن ذهنى ذكرها الآن.. وكنا قد ذهبنا إلى هناك لعمل مركز إسلامى، وقد فوجئنا بالكثيرين يقولون لنا أنهم يقيمون فى عمارات وأنهم يجدون تحت عقب الباب جوابات ورسائل موجهة إليهم من اليهود يقولون فيها «أيتها الأسرة المحترمة نرجو أن تخطرونا كم عدد الأفراد الذين يستطيعون أن يلجأوا إليكم لأن مصر والدول العربية يريدون أن يرمونا فى البحر»!! هذه كانت من الدعايات الإسرائيلية المضللة، والسادات أراد أن ينزع من إسرائيل هذه الورقة التى كانت تلعب بها وهو لم يقم بالمبادرة إلا وهو منتصر».

ويقول الشيخ:

«صحيح أن المبادرة التى أقدم عليها السادات كانت مفاجاة للعالم كله ولم يكن أحد يتوقعها لكنها عندما حصلت تبين أنها تتمشى مع واقع الحال والظرف فى ذلك الوقت، وقد أثبتت الأيام بعد ذلك أن السادات كان بعيد النظر فقد أخذ الأرض بدون إراقة الدماء وخصومه فى المبادرة هم أنفسهم الذين قالوا بعد ذلك: ياريتنا قبلنا..».

ويقول الشيخ:

«قلت للسادات فى أول مقابلة لى معه بعد زيارة القدس: قبل الله مسعاك وجازاك على نيتك وإن لم تات بشىء..».

الغريب أن الشيخ الشعراوى قال:

«لقد علمت بزيارة الرئيس السادات للقدس وأنا على جبل عرفات ليلة العيد وكان الأمر مفاجاة لى مثلما كان مفاجاة لغيرى، علمت ليلتها من الدكتور محمد عبده يمانى وكان وقتها وزيراً للإعلام فى السعودية، كان معى الدكتور الزبير والسيد أمين غطاس والسيد إسحق رحمه الله، وقد سألنى السيد إسحق ليلتها: ألم يتحدث معك الرئيس السادات.. ألم يبلغك بما كان يعتزمه.. ألم تقابله قبل سفرك للحج؟

فقلت: لم يتحدث معى الرئيس السادات فى هذا الأمر ولم يشاورنى ولا أعتقد أنه شاور أحداً..».

وهنا نقطة هامة للغاية، فالسادات ذهب هناك دون أن يسمع لأحد.. لم يشاور أحداً.. لم يأخذ رأى من حوله. وفى كتابه «البحث عن الذات» نفى حتى تدخل الأمريكان فى هذا القرار حيث أكد أنه «.. **قبل المبادرة بشهرين تقريباً فوجئت برسالة من السفارة المصرية فى واشنطن تقول أنها تسلمت خطاباً خاصاً للرئيس السادات من الرئيس كارتر وأنه مكتوب بخط اليد ومختوم بالشمع الأحمر، فقلت لهم أرسلوه ولكن السفارة لم ترسله فى الحقيبة الدبلوماسية بل أصرت على إرساله مع مندوب خاص.. قرأت هذا الخطاب الذى لايعلم أحد عنه شيئاً ويخيل إلىّ أن أحداً لن يعلم عنه شيئاً فى المستقبل أيضاً، ثم كتبت الرد عليه بنفس الطريقة أى بخط اليد ووضعت عليه الشمع الأحمر وسلمته لنفس المبعوث الذى سافر به وسلمه للرئيس كارتر شخصياً، ربما تبادر إلى ذهن البعض أن هذا الخطاب تضمن طلباً من الرئيس كارتر لى بالقيام بهذه المبادرة ولكن هذا غير صحيح إذ أننى منذ أن زرته فى أبريل ١٩٧٧ وأنا أتبادل معه الرسائل عن طريق سفارتينا وأتبادل معه تقييم الموقف من وقت لآخر والاتفاق على الخطوات المقبلة، وأعتقد أنه يفعل ذلك أيضاً مع بقية الأطراف وخاصة مع إسرائيل ولكن رغم أن هذا الخطاب كان خطاباً شخصياً لايمكننى أن أفصح عن محتوياته فقد كان يتضمن آخر تقييم للموقف ويمثل فى الحقيقة بدء التفكير فى المبادرة التى حدثت بعد ذلك بشهرين، كما قلت لم يطلب كارتر منى هذه المبادرة فهو لايستطيع ذلك لأنه يعلم أن بيننا وبين إسرائيل حاجزاً نفسياً رهيباً ولابد أنه قد تبين ذلك بنفسه عندما قابلته فى واشنطن أثناء زيارتى للولايات المتحدة فى أبريل ١٩٧٧ وأعتقد أنه عرف أن ذلك الحاجز يمنعه من طلب هذه المبادرة».**

السادات سافر للقدس من تلقاء نفسه وبمشورة شخصية منه.. وكأنه وقف يقول لنفسه: «إيه رأيك ياسادات تروح إسرائيل؟.. وماله نروح إسرائيل. مفيش حاجة أبداً»

والمدهش أن الشعراوى كان يعرف نلك جيداً ويدرك أبعاده.. ولذا قال لمن سأله: **«ولا أعتقد أنه شاور أحداً»**. هذه المعرفة الجيدة من الشيخ الشعراوى تجعله يراجع نفسه ألف مرة عندما يعترض أو يقول له.. لا..

تشى تلك الكلمات التى قالها الشيخ الشعراوى أنه حزين وليس موافقاً على سفر الرئيس وأن له تحفظات.. ولكن عندما عاد الرئيس قال له الشيخ: **«قبل الله مسعاك وجازاك على نيتك..»**.

ولا يستطيع أحد مثلاً أن يصف الشيخ بالنفاق - معاذ الله - فالرجل بعيد عن ذلك تماماً.. المسألة وببساطة فى الخلل الذى يصيب رجل الدين عندما يدخل ساحة الحاكم يقترب منه ويكون أحد رجاله، ساعتها يكون رجل الدين على علم ودراية بصحة أو خطأ موقف الحاكم، لكنه لايستطيع أن يواجهه أو يقول له فى وجهه أنت مخطىء.

الشعراوى وقع فى نفس المطب.. ساعتها لم يقل للسادات شيئاً، فقد حضر اجتماعات مجلس الوزراء.. قابل الرئيس وهنأه وتمنى له التوفيق.

هل هناك أكثر من ذلك..؟!

كان هناك بالفعل ماهو أكثر، فالشيخ الشعراوى، وكما قال: **«السادات أراد أن ينزع من إسرائيل هذه الورقة التى كانت تلعب بها وهو لم يقم بالمبادرة إلا وهو منتصر»**.. فالشعراوى بحث للسادات عن مبرر يقول من خلاله أن السادات كان على حق فيما فعله.. وأن ذلك يعد حسنة فى حق هذا الرجل.

وإذا كان السياسيون يقولون الآن أن السادات كان بعيد النظر فيما ذهب إليه والدليل هرولة بقية الدول العربية لتعقد مع إسرائيل صلحاً قام به السادات منذ أكثر من عشرين عاماً.

وإذا كان هذا هو كلام السياسة فإن كلام الدين شىء آخر، فالدين مرتبط بالناس فى الشوارع.. يعيش معهم.. يأكل معهم.. يشرب معهم.. يتحدث معهم.. وعندما ينامون ينام معهم.. لايفارق الدين الناس أبداً حتى لو مرت بهم لحظات ضيق وظنوا أن التزامهم بالدين يشكل عبئاً عليهم فإن بداخل كل منهم شيئاً يربطه بدينه.

الشعراوى كان - ولايزال - يمثل رجل الدين هذا ولا نستطيع بالطبع أن نقول أن الرجل كان بعيد النظر عندما وافق على ما فعله السادات.. بل وباركه وتمنى له التوفيق.. السبب بسيط أن الناس فى الشوارع مازالت ترفض إسرائيل.. مازالت تقول لها لا.

مازالت تنتهز الفرصة تلو الفرصة لتؤكد كراهيتها لإسرائيل ورغبتها الشديدة فى حرق هذا الكيان والتخلص منه..

الناس مازالوا يقولون أن السلام سلام حكومات مع بعضها والحكومات حرة فيما تفعل.. لكن الشعوب لها شأن آخر.

هذا كان موقف الشيخ الشعراوى الذى جمعه بالرئيس السادات..

لكن كون الرجل كان له موقف آخر جعل إسرائيل تعترض عليه وتقول الشعراوى يعرقل السلام.. فهذا طبيعى منه وليس من المآثر التى يمكن أن تستغل لتضاف إلى عنتريات الرجل..

مجمل القول.. أن السادات جعل من الشيخ الشعراوى رجلاً مهتزاً فى موقفه من اليهود..

يصمت أمامك ويبارك خطواته فى السلام.. ولا يستطيع أن يعلن موقفه ورفضه فى وجه الرجل.

لكن عندما يخلو إلى مصحفه وتفسيره والناس الذى تحولوا إلى آذان تستمع له.. يقول فى اليهود مايشاء ويرغب.. وفى هذا واحد من تأثيرات الحاكم على رجل الدين!!

٩

الحصاد المر

«بعد كل هذا الصخب ترى من كان الخاسر؟! وحتى نكون محددين ومنطقيين تعالوا نقف مع كل الأطراف بما فيها نحن.. نعم نحن شركاء حتى لو كانت فترة ماضية وأغلبنا لم يعشها إما سنياً أو بعدم اكتمال الوعى وإما لحاجة فى نفس يعقوب لم يقضها حتى الآن».

لاشىء يشغل المصريين مثل تقييم تجاربهم.. فالمصرى منذ أن يقوم من فراشه إلى أن يأوى إليه مرة أخرى يظل يتحدث عن وجوه الصواب والخطأ فى تجارب الآخرين.. فهذا على صواب.. وهذا على خطأ.. وهذا كان من المفروض أن يعمل كذا.. وهذا كان من المفروض ألا يعمل كذا.. وربما تكون هذه عادة قديمة للغاية على مايبدو..

وسيراً على هذه الطريقة تعالوا نتحدث بعد كل ماتقدم عن تجربة الشيخ الشعراوى فى الوزارة..

لن نقيمها نحن ولن نبتدع فى الكلمات أو ما وراء الكلمات، ولكن نستمع إلى كلمات الشيخ أولاً . ثم بعد كلماته نمارس هوايتنا نحن المصريين فى الحكم والتقييم.

●●●

وقال الشيخ:

«ويسألنى سائل: هل أقبل الوزارة لو عرضت على ثانية؟ فأقول: إن الذى يجيبك على أمر يمكن أن يحدث مستقبلاً مفتئت على نفسه وعلى قدره لأن من الجائز أن يكون عندى الآن من المبررات مايجعلنى أقول أقبل أو من المبررات مايجعلنى أقول لا أقبل، ثم تأتى الأيام فتتغير الوضع وتتحول «أقبل» إلى «لا أقبل»، كما تتحول «لا أقبل» إلى «أقبل».. ولذلك فالذى يجيب عن هذا السؤال يكون غير صادق أمام نفسه وأمام ربه، ومن يدرى فربما تجد ظروف تجعلنى أنا الذى أقول لهم خذونى معكم فى الوزارة، إن الذى أقلقنى أثناء عملى بالوزارة هو أننى أحسست أننا أتعبنا من فوقنا.. وأتعبنا من تحتنا».

●●●

وقال مرة ثانية:

«الحمد لله الذى أجرى على لسانك كلمة قبلت لأن القبول يقتضى إيجاباً من طرف آخر يملك أن أكون وزيراً وأنا لم أطلبها ولم أسع إليها وإنما قبلتها».

●●●

وقال مرة ثالثة:

«الحمد لله أننا نتعامل مع إله يعرف نيات خلقه ولم تكن نيتى فى القبول بعد أخذ ورد وفكر وتمحيص إلا لأننى قلت لنفسى ولأحبائى ما الذى جعلهم يفكرون فى مثلى ليكون وزيراً ولم أكن من رجالهم ولا من المحسوبين على أحد منهم ولم تربطنى أية رابطة بأجهزة الحكم اللهم إلا ما يسر الله لى من إعلام على الشاشة الصغيرة، لذلك قلت لماذا فكروا فى إنسان لاتربطهم به صلة ولا قرابة وهو بعيد عن أعينهم، غريب عن أماكنهم اللهم إلا أن يكونوا استعرضوا ذاكرتهم ليختاروه وينتخبوه ولايصنع ذلك إلا من يريد شيئاً من الإصلاح يأمل أن يجده عندى، والإسلام فى مجالى لايعنى إلا منهج الله إعلاماً به وتطبيقاً له، وهذا ماجعلنى لا أتوانى فى قبول العرض لظنى أن ذلك سيأتى بخير على قدر ما أؤمل لدينى وبلادى».

●●●

وقال مرة رابعة:

«كانت أسوأ تجربة فى حياتى يوم أصبحت وزيراً.. وحاولت أن أتركها كثيراً، لقد قلت لممدوح سالم رئيس الحكومة مراراً وتكراراً اعتقنى لوجه الله، فكان رحمه الله يقول لى وهو يضحك سوف نخرج منها معاً إن شاء الله.. وشاء الله أن نخرج معاً.. اتعتقنا يوم مارفدونا وكان هذا من فضل الله علينا».

●●●

ويقول مرة خامسة:

«الشيخ عبدالمنعم النمر كان زميلاً وصديقاً من أيام ماكنا فى الأزهر، وقد تولى هو الآخر وزارة الأوقاف فى مرحلة تالية من بعدى، كان الشيخ النمر بعد خروجه من الوزارة يقول لى ضاحكاً:

ـ أنت حتفضل طول عمرك فلحوس..؟!

وكنت أقول له: ليه ياوله؟

فيقول: كلنا كنا وزراء أوقاف وكلنا بنكتب أسماءنا الآن ونقول وزير الأوقاف السابق.. أو الأسبق.. أما أنت فعمرك مافعلتها، عمرك ماكتبت إلى جانب اسمك وزير الأوقاف السابق أو الأسبق، ليه بقى عامل نفسك فلحوس؟

وكنت اضحك واقول له أولاً أنا كنت وزيراً لوزارتين: الأوقاف وشئون الأزهر، أما أنت ومن جاء بعدك فكنتم وزراء لوزارة واحدة هى الأوقاف، يعنى انا كنت أحسن منكم.. أنا اترفدت بوزارتين وأنتم اترفدتم بوزارة واحدة.

وكنت أقول له أحياناً عندما نكون وسط جمع من الأصدقاء أنا باستحى أقول أو أكتب الوزير السابق أو الوزير الأسبق لأننى أعتبر نفسى فشلت فيها! فهى بالنسبة لى عيب أحرص على أن أستره فى نفسى، أما أنت وغيرك فمن الجائز تكونوا قد نجحتم فى الوزارة وعملتم حاجة كويسة تجعلكم تتفاخرون بانتسابكم إليها سابقاً.. وكنا نضحك».

●●●

ويقول مرة سادسة:

«كل وزير أوقاف جديد كان يأتى لزيارتى بعد أن يتسلم عمله ونجلس نتكلم فكنت أقول ضاحكاً أنا عارف أنت جاى تزورنى علشان إيه؟!

فيقول: علشان إيه ياMولانا؟! فاقول عايز تعرف إيه اللى أنا عملته واترفدت علشان تاخد بالك كويس وماتقعش فى نفس الغلط اللى أنا وقعت فيه!

●●●

ويقول مرة سابعة:

«من يدرى لو لم أمر بها لعلى كنت أتمناها ولكنى والحمد لله لو لم تكن فى حياتى تلك التجربة».

●●●

ويقول مرة.. يمكن أن تكون أخيرة:

«حدث ذات مرة أن كنت فى مؤتمر فى الكويت وكنت قد خرجت من الوزارة وكان يحضر هذا المؤتمر وزير الأوقاف المصرى فى ذلك الوقت الأحمدى أبو النور، وأثناء انعقاد المؤتمر حدث تغيير وزارى فى مصر ورفدوا الشيخ الأحمدى ولكنه مع ذلك بقى يواصل حضور جلسات المؤتمر! وتقابلنا فى إحدى جلسات المؤتمر فقلت له وأنا أضحك: ياجدع أنت قاعد هنا ليه؟! ماخلاص شغلك انتهى واترفدت من الوزارة توكل على الله وروح شوف حالك.. وضحك الشيخ الأحمدى وقال فعلاً حاروح أشوف حالى وترك المؤتمر وعاد إلى القاهرة»!!

●●●

وكلامنا يبدأ من البداية..

ساعة أن قبل الشيخ الوزارة.. ساعة أن قال: **«إن رزقك أعلم بمكانك منك»**.. الحكاية إذن رزق.. ويبدو أن الشيخ الشعراوى لم يحلُ له هذا الرزق.. فخرج منه لاعناً ساخطاً.. وإن كانت اللعنة والسخط لم يكونا فى غاية النقاء حيث إن الشيخ مرة يقول نعم ومرة يقول لا..

ولنبق مع كلمات الشيخ الشعراوى بعض الوقت نقرأ مابعد الكلمات ونتأمل، فكلمات الشيخ بالفعل تجبر الإنسان على التأمل.. والتأمل الشديد..

فالشيخ مازال يصر وبشكل شديد على طريقته التى يفلسف بها كل الأمور حتى الصغير منها.. فهو يقول أن الذى يجيب عن سؤال بأثر رجعى لايكون صادقاً مع نفسه مطلقاً.. لأن الإنسان يمكن أن تمر عليه ظروف معينة وأحداث خاصة تجعله فى وضعية مختلفة تتحول عنده نعم إلى لا.. وتتحول لا إلى نعم.. وعليه فلو عرضت الوزارة على الشيخ مرة أخرى.. فإنه لايستطيع أن يجزم هل يقبل أم يرفض حيث إنه من الممكن أن يكون عنده من المبررات التى تجعله يقول أقبل أو لا أقبل.

كلام غامض حتى على الشيخ، يجعله دائماً فى منطقة المتطلع إليهم حتى يعرف الناس عنهم كل شىء.. حيرة يقع فيها الناس بعد كلام الشيخ هذا..

السؤال بسيط للغاية ويمكن للشيخ ببساطة أن يقول نعم كنت سأقبل أو لا سأرفض.. ولكن لأن الشيخ الشعراوى يحب الكلام والأحاديث وبريق الإعلام يأسر خياله فقد ترك هذه الكلمات لحديث آخر حيث قال: **«كانت أسوأ تجربة فى حياتى يوم أصبحت وزيراً..»**.

الشيخ يصر على إيقاع الناس فى دوائر الحيرة، هو هنا يجزم بأن تجربة الوزارة هذه هى أسوأ تجربة.. بالطبع الرجل لايقدم أسباباً منطقية لهذا الغضب الصارم.. هذا على الرغم من أن الشيخ عندما يتحدث عن فترة وزارته يظل يعدد جهوده وما فعله وما قدمه.

● فهو أنصف المظلومين ورفع الظلم عن كاهل المظلومين فى الوزارة ورفع الغبن عن ظهور المغبونين.. وهذا من أول يوم فى الوزارة!!

● ضرب الفساد من جذوره وقصم ظهر الموظف الذى كان يشتم أجدع وزير أوقاف، وكان يلقب بالحوت.. الشعراوى فعل ذلك من أول يوم له فى الوزارة!!

● لعب دوراً خطيراً فى النهوض بحالة الدعاة وبمستواهم العلمى والمعيشى وقدم لهم العون من موقعه كوزير للأوقاف!!

● لم تقتصر جهوده على الدعاة فقط بل استطاع الرجل أن يرفع المشايخ إلى درجة المناصب العليا بعد أن كانوا يقفون فقط عند درجة مدير عام إلى درجة وزير أوقاف وأحياناً وزراء!!

● كان هو الوحيد الذى أفحم أعضاء مجلس الشعب وصرخ فيهم أنا الذى أستجوبكم، وظل يقول لهم قولوا لى كذا وقولوا لى كذا فأنا الذى يستجوب!!

● كان له دور كبير فى تأسيس وافتتاح العديد من المراكز الإسلامية فى مختلف أنحاء العالم.. كان يشارك بنفسه ويضع حجر الأساس بيده!!

● أسهم فى تهدئة الجماهير فى أحداث ١٨ و١٩ يناير عام ١٩٧٧.. وكان لخطبته فى الأزهر.. وحديثه فى التليفزيون أثر السحر!!

كان..وكان.. وكان.. وكان..

ويظل الشيخ يعدد مآثره وآيات عمله مادامت تدب فيه الحياة..

مع كل هذه الإنجازات يقول الشيخ الشعراوى أن أسوأ تجربة مرت فى حياته.. كانت هى تجربة الوزارة.. ولا ندرى ماهو السبب؟!.. فالشيخ لم يتحدث عنه.. وعيب جداً أن نتدخل فى أمور الشيخ النفسية.

لكن ليس عيباً ألا نسمح لأنفسنا أن نسأل وأن نفتش والأهم من السؤال والتفتيش.. هو الرصد.. والرصد ياسادة يأتى لما فعلته تجربة الوزارة فى شخصية وفكر الشيخ الشعراوى..

فرغم أن الوزارة لم تكن هى بداية اتصال الشيخ الشعراوى بالسياسة فالرجل منذ نعومة أظفاره كان يقاوم الاحتلال ويسير فى المظاهرات بل ويقود المظاهرات، يقترب من مصطفى النحاس يقول فيه الشعر ويمدحه ويقدح فى حق من يذمه أو يتهجم عليه.. يستقبل الرئيس جمال عبدالناصر ويقول فى حقه الشعر وعندما يموت يقول فى رثائه كلاماً لم يقله أحد قبل ذلك فى موت أى زعيم..

عندما جاء الشيخ الشعراوى إلى مجلس الوزارة إذن لم يكن ذلك أول اتصال له بالسياسة فالرجل يعده مريدوه من السياسيين الكبار!!

لكن ماذا فعلت السياسة وتجربة الوزارة بهذا السياسى الكبير والداعية الجليل؟

● منطقة من الظلال الكثيف.. والظلام الأكبر صنعتها وشكلتها تجربة الوزارة فى حياة الشيخ الشعراوى.. ليس الحكم هوائياً.. ولا كلاماً من فراغ.. ولكن الشيخ الشعراوى - وإن لم يعترف بذلك - خسر خسارة فادحة من تجربته وحياته فى الوزارة والدليل باسادة أن الرجل لايتحدث مطلقاً عن هذه التجربة.. لايفخر مثلاً بأن يقال عنه أنه وزير سابق.. صحيح أنه علل ذلك.. لكن تعليله ليس مقبولاً فمهما وصل الإنسان منا إلى أعلى درجات التقوى والعبادة فإن نفسه يكون فيها شىء.. شىء يجعله ينظر إلى نفسه.. لن نقول يأخذه العجب بها.. ولكن على الأقل يفرح بما فعله وقدمه.. خاصة إذا كان هذا الذى فعله أو قدمه فى خدمة دين الله.

الشيخ الشعراوى لايفعل ذلك.. فهو لايتحدث وإن ورطه أحد.. وكثيراً مايتورط الشيخ فى الحديث عن الوزارة فإنه يظل يلف ويدور ويقدم تعليلات وتبريرات لا أساس لمنطقها ولا دافع لقبولها.

هذه المرحلة إذن أورثت شخصية الشعراوى غموضاً كبيراً..

غموض المسئول عنه بداية ونهاية هو مولانا الشيخ الشعراوى حيث إنه لم يكن محدداً ولا صريحاً فى حديثه عن فترة وزارته.. فلا نعرف إن كان سعيداً بها أم أنه نادم عليها فقد قال هذه.. وقال تلك.

● نوع من التعالى طغى على شخصية الشيخ الشعراوى ولا نقصد به هنا الكبر فحاشا لله أن يكون الكبر يعرف طريقاً إلى قلب الشيخ وعقله.. ولكن التعالى الذى أقصده.. هو تعالى الشيخ فى التعامل مع الآخرين.. والآخرين أقصد بهم فقط الكُتّاب والصحفيين، فمنذ فترة طويلة والشيخ الشعراوى لايرد ولا يهتم بكلام أحد.. ولا يدخل فى أية معارك.. فقد مضى الزمن الذى كان فيه الشيخ طرفاً فى معارك كثيرة بداية من زكى نجيب محمود إلى يوسف إدريس.. كلهم وقف الشيخ الشعراوى فى وجوههم يقذف بكلمات الحق فى عيونهم، ذلك لأن الشيخ كان هو نقطة البداية، كان هو من يبادر بالحديث.. من يجر الكلمات إلى ساحة القتال ليظل يصول ويجول..

لكن فى الفترة الأخيرة يرفض الشيخ أن يتحدث بل يرفض أن يتحدث عنه أحد فيردون عنه الهجمات..

أظن ـ وبعض الظن ليس إثماً ـ أن الوزارة أكسبت الشيخ هذه الطريقة فى التعامل، فالوزراء فى مصر عادة لايهتمون بما ينشر ولا يردون عليه فى الغالب.. ولايتحركون إلا إذا كان الكلام يحمل إساءة شخصية لهم.. والشيخ كان وزيراً.. حتى لو كان داعية قبل دخوله ثوب الوزارة.. فإنه فى النهاية.. كان وزيراً.

● الوزارة كان لها الدور الأكبر فى تأكيد خضوع رجل الدين للسُلطة بكل معنى كلمة خضوع.. لانريد أن نخوض كثيراً فى هذه العلاقة ولكن من يرغب معرفة ذلك.. فليقرأ فقط الكتاب من البداية..

والآن..

بعد كل هذا الصخب.. ترى من كان الخاسر؟

وحتى نكون محددين ومنطقيين.. تعالوا نقف مع كل الأطراف بما فيها نحن.. نعم نحن شركاء حتى لو كانت فترة ماضية وأغلبنا لم يعشها إما سنياً وإما بعدم اكتمال الوعى وإما لحاجة فى نفس يعقوب لم يقضها حتى الآن..

● الرئيس السادات.. لم يكن الرجل خاسراً بأية حال من الأحوال.. وعلى مايبدو فإن الرئيس السادات لم يعرف الخسارة فى حياته، أو بمعنى آخر، كره الرجل الخسارة فعمل بكل ما أوتى من قوة على ألا يخسر شيئاً.. وهذا ماحدث بالضبط.

لن يجرنا الحديث عن السادات إلى حياته كلها بالطبع.. ولكننا نتحدث عن حالة مفردة وهى وزارة الشيخ الشعراوى فى عهد الرئيس السادات، وبدقة أكثر.. فى أواخر عهده.

الرئيس السادات ربح كثيراً من الشيخ الشعراوى الوزير والسبب لم يكن بالطبع أن الشعراوى كان وزيراً، ولكن لأن الشعراوى كان فى الأصل داعية.. وداعية بدأ نجمه يلمع بشكل كبير للغاية.. أصبح الناس يتطلعون إلى هذا القادم الجديد فى ساحة إسلامهم يتحدث بكلام جديد وبأسلوب جديد.. أحس الناس أن الشعراوى هو الذى سيجدد إيمان الناس.. هو إمام القرن بلا منازع.. كان الرئيس السادات يرقب ذلك ويعلم تماماً رد الفعل

الذى تحدثه أحاديث الشيخ ولقاءاته المتفرقة فى الناس.. عرف الرئيس السادات أن قيمة اسم الشيخ الشعراوى ارتفعت للغاية عند العامة وهؤلاء هم من كان يهتم بهم.. فإذا جاء لهم بالشيخ الشعراوى الذى يحبونه قالوا أن الرئيس يحسن اختيار معاونيه، فالناس لايتصورون أن الشيخ الشعراوى يمكن أن يخطىء أو يفعل شيئاً يغضب الله، فهو فى النهاية الشيخ الشعراوى وكان هذا هو أول مكسب للرئيس السادات من اختيار الشعراوى وزيراً..

المكسب الثانى هو ما أحدثه الشيخ الشعراوى بعد ذلك ومافعله أثناء وزارته.. أقصد بالطبع موقف الشيخ الشعراوى من مظاهرات ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧.. حيث كان الشيخ الشعراوى من أهم جنود تهدئة الجماهير الثائرة خاصة وكلماته جاءت من على منبر الجامع الأزهر، وكان هذا أيضاً مكسباً للرئيس السادات.. فالرجل لم يكن خاسراً أبداً.

● الشيخ الشعراوى.. بعيداً عن تناقضات الشيخ وكلامه الذى يصدم بعضه البعض.. فمرة يقول نعم ومرة أخرى يقول لا.. وبعيداً أيضاً عن تقييم الشيخ الشعراوى لتجربته الذاتية فى الوزارة فالشيخ الشعراوى خسر كثيراً من تجربة الوزارة.. لا أقصد بذلك خسارته المادية رغم أن الرجل كرر ذلك كثيراً.. وأنه ينفق من لحم الحى ومدخراته فى البنك نفدت عن آخرها والناس لاتصدق.. الخسارة كانت أكبر من ذلك وقد أوضحنا جانباً منها.. لكن الشيخ الشعراوى بروحه الساخرة ودعابته النادرة يحول المسألة إلى مزاح حيث أنه أعتق عندما رُفد من الوزارة . ربما.. الله أعلم.

● الشعب.. دعونا من قاعدة أن الشعب هو الخاسر دائماً وأن آخر مايفكر فيه الحاكم هو الشعب.. دعونا من هذا كله لا لننفيه ولكن للأسف الشديد.. والشديد جداً لنؤكده ونثبته فى دفاتر التاريخ وسجلاته.

فساعة أن اختار الرئيس السادات الشيخ الشعراوى ليلعب دور وزير أوقاف فى عهده لم يكن يضع فى حساباته أن الشيخ يمكن أن يقدم للناس شيئاً جديداً.. وخاصة أن الناس تنتظر من وزير الأوقاف أن ينهض بمستوى الدعاة وهم أمل الناس.. لم يكن هذا هدفه.. وإنما كان يشغل الرجل أن يلبس من حولهم العباءات التى أعدها لهم ولايخرجوا عن النص.. لسبب بسيط أن الذى كان يخرج عن النص كان يخرج نهائياً من الدائرة.

مسكين هذا الشعب.. فلم تنفعه حجج حكامه.. ولا شفاعات علمائه.. ولا حتى نيات الناس الحسنة نفعتهم.

● الوزارة..

هل كسبت الوزارة شيئاً جوهرياً ذا قيمة عندما دخلها الشيخ الشعراوى؟.. لا أظن.

السؤال مرة أخرى.. هل خسرت الوزارة شيئاً جوهريا ذا قيمة عندما خرج منها الشيخ الشعراوى؟.. أيضاً لا أظن!!

ولا أظن هذه لست وحدى مسئولاً عنها.. أو المقرر لها.. أو يقع على كاهلى عبء إثباتها.. فالأحداث تقول ذلك بمعنى آخر.. قراءة الأحداث تقول ذلك وتؤكده..

فالشيخ الشعراوى وكما كل الوزراء فى مصر سواء قبل العهد الثورى أو بعده لايملكون من أمرهم قليلاً ولا كثيراً.. هم فى النهاية يقومون بدور المنفذ لتوجيهات وإرشادات وأوامر عليا فوقية تأتيه ممن هم أعلى منه..!!

صعب ونادر.. ونقول نادر حتى نحتفظ بحق الذين يبدعون ويفكرون ويعملون بجدية من الوزراء.. الأغلبية ليس لها دور.. مرة تلعب دوراً فى تسكين الجماهير وغالباً مايكون ذلك بالوعود الكاذبة أو على الأقل الوعود غير الصادقة.. وفرق - وإن لم يكن كبيراً - بين الوعود الكاذبة والوعود غير الصادقة..

الحديث عن الشيخ الشعراوى إذن لايشذ بأية حال من الأحوال عما قيل عن الوزراء فهو فى النهاية وزير مصرى قضى فترة من حياته فى وزارة عملت فى عهد السادات وهذا تعريف مبسط للغاية للرجل والبساطة هنا ليست تعبيراً عن العجز ولكنها تعبير عن بساطة حقيقية للموضوع، فمهما قال الشيخ الشعراوى عند أعماله وإنجازاته فى فترة وزارته فهو لم يفعل كثيراً ولا إعجازاً لافتاً للانتباه.

لم يترك الرجل بصمة وعلامة فى تاريخ الوزارة نذكره بها ونقول هذا العمل كان وراءه الشيخ الشعراوى.

وإن تحدث عن تجربة البنوك الإسلامية وأنه كان أول من أدخلها لمصر.. نقول له وهل

استطعت أن تفعل أكثر من مقاطعة شيخ الأزهر عندما وصف الدولة التى تتبنى نظام البنوك الإسلامية بأنها دولة غبية ومتخلفة للغاية.

يحدثنا الشيخ عن نهوضه بمستوى الدعاة والعمل على ترقيتهم.. نسأله وأين جهودك تلك وشكاوى وآلام الدعاة مازالت لم تتغير ولم تتبدل ولم يطرأ عليها جديد بل تزيد وتتضخم والضحية دائماً هم الناس.

سنحاول أن نكون موضوعيين ولن نقول وعلى سبيل الدعابة أن هناك مكسباً أو خسارة للوزارة بدخول الشيخ الشعراوى للوزارة أو خروجه منها.. ولكن نقول أن كفتى الميزان كانتا متعادلتين فلا تخسر الوزارة شيئاً.. وبالطبع لم تربح.. وحتى لو كنا نسمع بعض من يفلسفون الأمور أن عدم الربح فى مثل هذه التجارب يعد خسارة.. فلن نسمع لهم..!!

● الدعاة.. لن نزيد فى كلامنا عنهم.. فقط نؤكد أن الشيخ الشعراوى عندما دخل الوزارة وأصبح يحمل لقب وزير كان بداخله طموحات عديدة وآمال عريضة كلها تصب فى طريق يقف فيه الدعاة ينتظرون من يضع لهم على الطريق إشارات وعلامات توضح لهم طريقهم فصعب للغاية أن نتصور أن من أوكلنا لهم توضيح الطريق للناس طريقهم أنفسهم غير واضح.

لن نبالغ ونقول أن كل أحلام الرجل لم تتحقق.. وأنها ضاعت فى الهواء.ولكن على الأقل حاول الشيخ الوزير.. هل نجحت محاولاته؟ واقع الدعاة ينفى ذلك تماماً.. ولكن فى النهاية يكفى الرجل شرف المحاولة.

● الدين.. وهنا مربط الفرس.. وعقدة حياتنا جميعاً.. ونعود بهذه الكلمة إلى بداية حديثنا هذا.. فما أروع أن تكون نقاط البداية هى محطات الانطلاق لمحطات النهاية.

عندما نتحدث عن الدين.. وهل ربح أم خسر من دخول الشيخ الشعراوى للوزارة نجد أنفسنا نعود مباشرة إلى السؤال الأول:

من ينام فى فراش من؟!..

الدين فى فراش السُلطة؟!..

أم السُلطة على كتف الدين؟!

أظن أن الإجابة الآن على الأقل ليست صعبة ولا عسيرة.. تذكرون تصريح الشيخ الشعراوى قبل دخوله الوزارة عندما قال أنه سيصلح الأمور كلها فى الوزارة فى ثلاثة أو أربعة أشهر ثم يتفرغ تماماً لأمور الدعوة.. هذا على الأقل لم يحدث بالصورة التى كان يرغبها الشيخ الشعراوى.. فلم يخلص الرجل نهائياً لدعوته ولا لأمورها.. جرّت تجربة الوزارة هذه قدم الشيخ الشعراوى إلى منطقة مليئة بالألغام.. لاتنفجر فيها الألغام بالضغط عليها.. فالإشارات كافية جداً لتفجير كل ألغام المكان.. الشيخ الشعراوى بتوليه الوزارة وجلوسه على كرسيها دخل إلى منطقة أن يسكت الدين فى وجود السلطان.. صحيح أن الشيخ الشعراوى يحكى كثيراً عن معارضته للسادات وعن قوله ذلك، لكنه كان يقول ذلك بعيداً وليس فى مواجهة الرجل.. فى مواجهته كان يصدق على كلامه.. لايعارضه.. قد يناقشه.. لكن فى النهاية الكلمة لصاحب السلطان..

جر الشيخ الشعراوى الدين ورجاله إلى منطقة الطاعة ومنطقة القبول بكل المناصب.. حيث لا مانع مطلقاً مادام المنصب سيفيد الإسلام..

كلها يا أصدقائى كلمات فقط.. الشيخ الشعراوى قال أنه قبل حتى لايقولوا أنهم قصدوا الرجال الأكفاء لكن هؤلاء الرجال الأكفاء خذلوهم.. فلمن يذهبون؟

وأصبحت هذه حجة يرتكن عليها الجميع.. والخاسر فى النهاية ليس أحد منهم بالتأكيد..

الخاسر هو الدين والدين هو الخاسر..!!

وإن لم تصدق ذلك.. فاقرأ هذا الكتاب من جديد.

مراجع الكتاب

● **الســـادات:**

١ ـ البحث عن الذات — أنور السادات

٢ ـ حقيقة السادات — عبدالله إمام

٣ ـ السادات الحقيقة والأسطورة — موسى صبرى

٤ ـ الدين والديناميت — أنيس منصور

٥ ـ لغز السادات — رشاد كامل

● **الشعراوى:**

١ ـ الشعراوى الذى لانعرفه — سعيد أبو العينين (مرجع أساسى)

٢ ـ الشعراوى.. حكايتى مع هؤلاء — سعيد أبو العينين

٣ ـ رحلة فى أعماق الشيخ الشعراوى — محمد مصطفى

٤ ـ لا ياشيخ شعراوى — محمد جلال

٥ ـ الشعراوى.. إمام عصره — أحمد حسين جوهر

٦ ـ الشعراوى.. القيثارة الإيمانية — كمال محمد على

٧ ـ اغتيال أمة — د. محمد عباس

● **مراجع عامة:**

١ ـ تفسير الشعراوى..

٢ ـ مواقف خالدة لعلماء الإسلام — د. محمد رجب البيومى

٣ ـ حرية الرأى والعقيدة.. قضايا وإشكاليات — اللجنة المصرية لحقوق الإنسان

فهرس الكتاب

● الإهـــــداء ٥
● قبل الكلام (١، ٢، ٣) ٧
● نقطة البداية ١٥
١ ـ العمامة والسيف ٢١
٢ ـ ملامح حياة ٥٧
٣ ـ حديث الشيخ عن الرئيس ٧٧
٤ ـ الوزر قبل الوزارة ٨٧
٥ ـ الصدمـــــة ١٠٥
٦ ـ يوميات وزير ١١٥
٧ ـ تحت القبــة ١٤١
٨ ـ عن اليهود نتحدث..!! ١٦٥
٩ ـ الحصاد المــر ١٧٥
● المراجـــــع ١٨٩

فى هذا الكتاب

● كيف تعرف الشيخ الشعراوى على السادات؟ ● لماذا اختاره السادات وزيراً وهو لم يلتق به إلا مرة واحدة؟ ● الشعراوى رفض الوزارة ثم قبلها.. فما أسباب القبول وأسباب الرفض؟ ● ماهو تقييم الشيخ الشعراوى للسادات الرئيس والإنسان؟ ● ما أهم أعمال الشعراوى فى الوزارة؟ ● هل كان الشعراوى مجرد دمية يحركها أصحاب السياسة؟ ● هل يدّعى الشيخ الشعراوى البطولة فى معركة مجلس الشعب؟ ● ولماذا كفّروا الشيخ الشعراوى فى مجلس الشعب؟ ● موقف الشعراوى من الصلح مع اليهود وهل تغير بعد موت السادات؟ ● ماسر تناقض الشيخ الشعراوى فى تقييمه لفترة وزارته؟ ● ما سر الفتوى التى أطلقها الشيخ الشعراوى وكانت سبباً فى موت السادات؟ ● من هو الخاسر فى تجربة الشيخ فى الوزارة.. من؟!

الشعراوي والسادات

■ هل ينام الدين - أى دين - في فـراش السلطة - أية سلطة أم أن السلطة - أى سلطة - هي التي تنام على كتف الدين - أى دين .. ؟! من خـلال رحلة إنسـانيـة فى العلاقـة التي ربطت بين السـادات - رجل السلطة - والشعراوى - رجلى الدين - يمكن وبسهولة شديدة أن نطل على إجابة السؤال الأزلى .. من فـوق من ؟ . ومن يسـتغل من ..؟ ومن يسـيطر على من .. الدين .. أم السلطة .. كلمة الله أم كلمة السلطان ؟!

صحيح أن النماذج كثيرة لعلاقات بين رجـال الدين ورجـال السلطة لكن هذا النمـوذج له جاذبية خـاصة لأن السـادات مسـئول بشكل أو بآخـر عن فـسـاد الحس السيـاسي عند الناس .. والشعراوى أيضا مسـئول بشكل أو بآخـر عن فـسـاد الحس الدينى عند الناس ..

وكلهم فى - الذنب - سواء.

محمد الباز

DES.: KAMEL GRAPHICS